حوار إسلامي مسيحي في القدس

سلسلة لقاءات وحوارات

PASSIA

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية - القدس

حوار
إسلامي – مسيحي
في القدس

سلسلة لقاءات وحوارات

PASSIA
الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية – القدس

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية في القدس **PASSIA** ، مؤسسة أكاديمية أهلية مستقلة، لا تسعى للربح أو التجارة أو المنفعة المالية، وغير مرتبطة بأية جهة حكومية أو حزبية أو تنظيمية أو طائفية، وتسعى من خلال برامجها إلى تعميم الفائدة من المعلومة الصحيحة والتحليل المنهجي وإعداد ونشر بحوث ودراسات أكاديمية وعقد دورات تدريب وتعلم في قضايا المجتمع المدني والشؤون الدولية والدبلوماسية وأيضاً تفعيل منبر الحوار الوطني والديني، وتوثيق المسألة الفلسطينية في مضمونها الوطني وإطارها القومي العربي وبعدها الإنساني والدولي.

إن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية يهدف إلى تشجيع ودعم المفكرين والمجتهدين والباحثين إلى التصدي لقضايا المجتمع والتطور الإنساني الحضاري على أسس العقيدة والإيمان ومن خلال بحوث وندوات ومؤتمرات لإثراء الحوار بين الناس لتطوير العلاقة الإنسانية والحضارية بين المؤمنين والموحدين وتوظيف هذا الجهد في إطار من الحرية الأكاديمية لإبراز التعددية الفكرية والمنهجية والإسهام في خدمة قضايا الوطن الفلسطيني.

ويأتي نشر هذا الكتاب بدعم من مؤسسة فريدريخ إيبرت الألمانية في القدس.

جميع الحقوق © محفوظة للجمعية

(الطبعة الأولى) كانون أول ٢٠٠١
Moslim-Christian Dialogue in Jerusalem
First Edition – Dec. 2001

مطبوعات PASSIA

هاتف: ٦٢٦٤٤٢٦، ٦٢٨٦٥٦٦- ٢- ٩٧٢؛ فاكس: ٦٢٨٢٨١٩ - ٢- ٩٧٢

بريد إلكتروني: passia@palnet.com

صفحة الإنترنت: http: //www.passia.org

ص.ب. ١٩٥٤٥- القدس

المحتويات

صفحه

- د. مهدي عبد الهادي ٥
  مقدمه
- الشيخ الدكتور عكرمة صبري ٩
  الندوة الأولى: التحديات حول المسجد الأقصى المبارك
- المهندس عدنان الحسيني ١٣
  الندوة الثانية: التحديات حول المسجد الأقصى المبارك
- الشيخ حيان الإدريسي ٢٧
  الندوة الثالثة: زيارة القدس في ظل الاحتلال الإسرائيلي بين المعارضة والتأييد
- الأب الدكتور مارون لحام ٤١
  الندوة الرابعة: العهدة العمرية
- د. مصطفى أبو صوي ٤٥
  الندوة الخامسة: العهدة العمرية وبُعدها الحضاري
- د. موسى إسماعيل البسيط ٥٣
  الندوة السادسة: العهدة العمرية بين القبول والرد

- د. أحمد مصطفى فواقه ٧٣
  الندوة السابعة: السيد المسيح في القرآن الكريم

- الأب إبراهيم بطارسه ١٠١
  الندوة الثامنة: أتباع المسيح في مصادر الوحي الإنجيلي- مسيحيون ونصارى

- القس الدكتور نعيم عتيق ١٣٣
  الندوة التاسعة: النبي محمد في الكتاب المقدس- العهد القديم والعهد الجديد

- الأستاذ عزيز أبو راس ١٤٥
  الندوة العاشرة: الإسلام والتعددية الدينية

- الشيخ يعقوب قرش ١٦٩
  الندوة الحادية عشر: محمد ﷺ في الكتاب المقدس

- د. مصطفى أبو صوي..... ١٩٣
  الندوة الثانية عشر: محمد ﷺ في التوراة والإنجيل

- د. إبراهيم أبو سالم ٢٠٣
  الندوة الثالثة عشر: يوسف عليه السلام في القرآن الكريم

- د. سعيد القيق ٢٣٧
  الندوة الرابعة عشرة: الإسلام والتعددية السياسية

مقدمه

يتناول الحوار الإسلامي – المسيحي حول الدائرة المستديرة في وحدة الدراسات الدينية منذ أن تأسس قبل سنوات في جمعيتنا على خمسة عناصر رئيسة:

أولها: البدء بالمصادر الرئيسة للعقيدة كما جاءت في نصوص التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، قال تعالى: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدًى للناس وأنزل الفرقان)[1].

وثانيها: الاجتهاد في تفسير وشرح هذه النصوص ومقارنتها موضوعاً وزماناً ومكاناً، قال تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النّبيّون من ربهم لا نُفرّق بين أحدٍ منهمْ ونحنُ لهُ مُسلِمون)[2].

وثالثها: بيان فهم وممارسة وتطبيق الشرائح الاجتماعية المختلفة لهذه النصوص ومدى اختلافها أو اعتمادها أو إغفالها لتلك التفاسير والاجتهادات.

ورابعها: استقراء تأثير النص، التفسير والممارسة العملية على حياة الناس، عملهم وثقافتهم وعلاقاتهم وتطوير مجتمعاتهم، قال تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله)[3].

وخامسها: ماذا يمكن عمله لتطوير منهجية حضارية للربط فيما بين النصوص [دونما إضعاف للعقيدة]، وبين التفسير والاجتهاد [دونما انغلاق أو تحزب أو قمع

---

[1] سورة آل عمران الآيات ٢- ٤
[2] سورة البقرة آيه ١٣٦
[3] سورة آل عمران آيه ٦٤

فكري] ، وبين الممارسة الحالية [دونما سكوت على التجاوزات أو الأخطاء] ولما يمكن أن يصبح عليه الحال في المجتمع وذلك لاستمرار التواصل فيما بين الناس، موحدين ومتدينين ومرابطين، ومحاولة لبيان وتصليح الأخطاء والمفاهيم وتجاوز التصادم والاختلاف فيما بينهم وبناء مناخ حضاري للتعايش المشترك.

وهناك أهمية وخصوصية فريدة في لقاء النخبة من أهل الفكر والعلم والفقه والدين حول دائرة مستديرة للحوار الإسلامي – المسيحي العربي، تحت مظلة العلم والتعلم والاجتهاد، وضمن برنامج عمل دوري، وفي مكان يتوجهون إليه، وزمان يتفقون عليه، ويصبح فيما بعد أحد عناوينهم إن لم يكن أحد بيوتهم.

إن هذه اللقاءات قد تشكل منهجاً حضارياً في إعلان الحضور، [وجود الآخر] والحوار والمناقشة [قبول الآخر] وبناء المعلومة والمعرفة منه وعنه، [الاعتراف بالآخر] والاستمرارية في اللقاء والعمل المشترك [احترام الآخر كما يطرح نفسه]

وإن هناك خصوصية أخرى في قضايا الحوار الإسلامي – المسيحي العربي، تنتقل من موقع الأطراف المتحاورة مكاناً وزماناً لآخرين في محيطهم الإقليمي وساحاتهم الدولية، لعدة أسباب منها؛ أنهم يقيمون في القدس، وهي بالإضافة لما تمثله من مركزية في عقيدتهم وتاريخهم وحضارتهم، فهي أيضاً ترتبط في حياة المسلمين والمسيحيين خارج فلسطين، كما أن المقدسين يبحثون في قضايا حياتهم ومقدساتهم وما يحيط بها من تحديات، وهي لا تنحصر في مسؤولياتهم بل تمتد لمسؤوليات العرب والمسلمين والمسيحيين في الدفاع والحماية وتحريرها من قيود الأسر والحصار.

فالعرب المسلمون والمسيحيون في القدس وفلسطين، يعيشون تحديات مصيرية حول: وجودهم وحقوقهم الإنسانية، عقيدتهم ومقدساتهم، وحرية العبادة في مساجدهم وكنائسهم،

وحماية وإعمار مقدساتهم، وتثبيت هويتهم الوطنية وتراثهم وحضارتهم، وحقهم في تقرير مصيرهم على أرضهم والمساواة والعدالة.

وأيضاً تحديات في بناء وتشكيل وتطوير علاقاتهم المحلية، لصياغة التعايش فيما بين أحيائهم وحاراتهم ومدنهم وقراهم ومخيماتهم، ومجتمعهم المدني ومؤسساته ورجاله ونسائه والإصرار على حقهم في التصدي ومقاومة أخطار "التهويد" و "التشريد" وأيضاً كسر أطواق الأسر والحصار.

وأهمية التواصل مع محيطهم الإقليمي الإسلامي المسيحي العربي كعمق قومي يعتزون به، ويحرصون عليه، دون الانصهار في كيان الآخرين أو " تورط" في مزاحمة أو منافسة الآخرين خلال حماية الذات الوطنية وما تمثله من خصوصية.

أما عن أهمية العلاقة مع الأبعاد الدولية، مؤسسات وهيئات وحكومات ودول وشعوب، فهي لغايات تأكيد الشرعية في الحقوق والواجبات وفي مقدمتها مقاومة وإنهاء الاحتلال والعدوان على الأرض والإنسان والمقدسات، وهذه الأمور؛ المحلية والإقليمية والدولية، تتطلب قوة في الإيمان، وسعة في العلم والمعرفة، وشجاعة في الاجتهاد، وقدرة على مضاعفة الجهد والترحيب إن لم يكن السعي لتوفير المساندة والدعم.

وقد تتفاوت مواقع ومواقف وآراء أهل الخبرة والعلم والفقه والدين أو الدارسين والباحثين وأيضاً المجتهدين، الأمر الذي قد يؤدي إلى إغناء المواضيع، وبالتالي المكتبة العربية أو الاقتصار على بعض المواضيع حتى يتمكن الباحثون من إجراء المقارنة وتوفير الأسانيد والحجج لتأكيد الفكرة والمعلومة بدعم فقهي أو لاهوتي.

وقد يتوقف الحوار طويلاً أمام مواضيع الساعة: "حديث الناس وهمومهم" لغياب "المنابر" الأخرى وأيضاً بسبب الاطمئنان الذي يوفره مناخ اللقاء، الأمر الذي يحتاج إلى " تدخل" من المشرفين أو المنظمين للّقاء وحتى لا يتحول إلى " ثرثرة" للنخبة بعيدا عن أجندة الحوار.

وفي نهاية الأمر، وعلى الرغم من كل ذلك، فإن "الحوار" الإسلامي المسيحي في بيت المقدس ومن خلال المقدسين وضمن هذا الجهد المتواضع وبناءً على هذه الأجندة الصريحة والواضحة التي تعرّضتُ لها في بداية هذه المقدمة، يُعتبر من وجهة نظر جمعيتنا بداية ضرورية وحاجة مطلوبة يمكن تطويرها وباستمرار مع تشجيع الآخرين للانضمام إليها بحضورهم وفكرهم وقلمهم، وأيضاً تحمل أمانة ومسؤولية الصدق في القول والعمل الذي يحتاجه الناس في حاضرهم ومستقبلهم.

د. مهدي عبد الهادي

القدس في كانون أول ٢٠٠١

الندوة الأولى*

التحديات حول المسجد الأقصى المبارك

الدكتور الشيخ عكرمه صبري**

إن التحديات التي تواجه المسجد الأقصى المبارك كبيره وكثيرة وقديمة وحديثة ومستمرة، وتتلخص هذه التحديات بادعاء اليهود بأن المسجد الأقصى مقام على أنقاض هيكل سليمان، وأن مخططهم البعيد بهدم المسجد الأقصى وإعادة بناء الهيكل، هذا الهدف لم يكن مصرح به قبل ذلك، وإنما بدأت إسرائيل تسير نحو هذا الهدف بخطوات، أول هذه الخطوات كان الاستيلاء على مفتاح باب المغاربة وهو من بوابات المسجد الأقصى المبارك، وهناك بوابة من بوابات المسجد الأقصى اسمها باب المغاربة غير باب المغاربة والذي يشكل جزءاً وأحد أبواب سور مدينة القدس، ثم وضع الجيش الإسرائيلي يده على المدرسة التنكيزية المجاورة لباب السلسلة والمطلة على باحات المسجد، وتتكون العمارة التنكيزية من طابقين؛ الأول أرضي والثاني علوي، شبابيك الطابق الثاني تطل مباشرة على باحات المسجد الأقصى، ثم شرعوا بالتدخل في موضوع الزيارات إلى المسجد الأقصى، ثم تطورت هذه الزيارات إلى اقتحامات فجائية الى ساحات المسجد ومحاولات لإقامة صلوات يهودية في باحات المسجد الأقصى، وكان السياسيون والشرطة الإسرائيلية يقولون لنا أن هؤلاء المتطرفين هم جماعه أقله ولا يكترث بهم وبالتالي "تحملوهم" ولا يشكلون أي خطر، إلى أن جاءت المفاوضات النهائية وإذا بالسياسيين

---

* قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٢٢ كانون ثاني ٢٠٠١

**مفتي القدس والديار الفلسطينية

الإسرائيليين يطرحون نفس أطروحات اليهود المتدنيين، أول مطلب لهم يريدون جزءاً من المسجد الأقصى وجزءاً من باحاته ليقيموا كنيساً عليه، أو يريدون أسفل المسجد الأقصى لوضع سلطتهم "سيادتهم" عليه وتبقى ساحات المسجد الأقصى العلوية كما يدعون للمسلمين، أو يتخذون من أي عمارة من الأبنية المحيطة بالمسجد الأقصى كنيساً لهم وهذا ما قال به معظم السياسيين الحاليين العاملين في الحكومة الإسرائيلية الحالية والتي تدعي بأنها حكومة علمانية وحكومة يسارية، لكن تطالب بما يطالب به اليهود المتطرفون. هذا وقد سبق للهيئة الإسلامية العليا قبل سنه أن أصدرت بياناً تحذر فيه من طرح مسألة المسجد الأقصى على طاولة المفاوضات، وقدمت الهيئة الإسلامية مذكرة للرئيس أبو عمار أيضا توضح له وجهة نظرها بأن الهيئة الإسلامية ترفض أن يطرح المسجد الأقصى على طاولة المفاوضات، هذا كان قبل سنه، وتوقعنا هذا وهو ما حصل، هذا بالنسبة إلى المطالبة بأجزاء من المسجد الأقصى ونوع من التحديات.

أما التحديات الأخرى فهي موضوع الحفريات، الحفريات التي ما زالت إسرائيل مستمرة بها حول المسجد الأقصى والآن يحفرون أسفل المسجد الأقصى، وكما هو معلوم لدى الأخوة خبراء الآثار ولدى المهندسين أن كل البلدة القديمة قائمه على شبكة قنوات مياه وعلى الآبار، فاليهود كلما وجدوا قناة ماء يدعوا أنها نفق، فيوسعوها ويعمقوا في القناة على أمل الوصول إلى ما يزعمون أو يتوهمون أن يصلوا إليه لآثار هيكل سليمان وبالرغم من هذه المحاولات وعبر ثلاثة عقود فإنهم لم يجدوا شيئاً، وتأكيداً على ذلك فقد جاء في عدد جريدة القدس الأسبوع الماضي من خلال لقاء ومحاورة مع مائير ميندوف، وهو خبير آثار إسرائيلي، حيث أقر واعترف أنه لم يجد شيئاً بالآثار العبرية والتاريخ العبري حول المسجد الأقصى ولا تحت المسجد، إن اليهود يريدوا أن يعملوا معركة معاكسة لنا يتهموننا بأننا نلعب

بالآثار وأننا نعمل أنفاق في ساحات المسجد الأقصى، ويكذبون أنفسهم بأنفسهم وهم يريدوا أن يستعملوا السلاح المعاكس حتى يغطوا على تجاوزاتهم وعلى اعتداءاتهم وهذه عادة اليهود في التلاعب في المواقف وفي تضليل الرأي العام العالمي، ومهمتنا أن نجلي الموقف ونؤكد على أنه لا يوجد عندنا حفر للآثار، بل عندنا ترميمات وصيانة وهذا أمر عادي ومن حقنا أن نعمر ومن حقنا أن نصون المسجد الأقصى، ويوجد في المسجد الأقصى مكتب دائم للإعمار، وهذه مهمته ضمن (١٤٤) دونم بحاجة إلى ترميم مستمر والأقصى بآثاره وبتاريخه القديم، لا يمكن أن يكون بدون صيانة، فنحن نعتبر الضجة الإعلامية الجديدة هي حرب جديده لتبرير عدوانهم والحفريات التي يجروها تحت المسجد الأقصى وأيضاً تبرير لمنع ترميم وصيانة المسجد ورفض ادخال مواد بناء إلى ساحات المسجد الأقصى.إن الحكومة الحالية تسير في ركاب اليمين المتطرف من أجل الدعاية الانتخابية القادمة على حسابنا وعلى حساب مقدساتنا والآن لا نستطيع أن نميز بين يهودي يميني وبين يهودي يساري فكلهم في فلك واحد وكلهم يتسابق في كيفية تحقيق انجازات وأهداف "التهويد" في المسجد الأقصى وتحقيق أغراض الدعاية الانتخابية القادمة.

* * * * *

الندوة الثانية*

التحديات حول المسجد الأقصى المبارك

المهندس عدنان الحسيني**

تمهيد

المسجد الأقصى... هذا الصرح العظيم الشامخ، قلب مدينة القدس... هو القدس والقدس هو، يعيش بأعماقنا، ويشغل حيزا كبيرا من حياتنا وآمالنا ومستقبلنا، ولا يمكن لأحد أن يتصور بأن الحياة الكريمة للمسلمين في أنحاء الأرض يمكن أن تكون بدون المسجد الأقصى، فهو يمثل رمزاً للعقيدة والبقاء على هذه الأرض المباركة، وفي هذه العجالة سوف أتكلم في أربعة محاور:

المحور الأول

تعريف المسجد: أبعاده، مكوناته، أوصافه:

المسجد الأقصى المشار إليه في سورة الإسراء:(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)[1]، يعني الموقع الذي شهد حادثة الإسراء والمعراج، ولم يكن في ذلك الزمن أي مباني أو إنشاءات، وعليه تحديد وتعريف المسجد يعني مساحة (شبه المنحرف) البالغ مساحته ١٤٤ دونما، الواقعة بين أسوار المدينة القديمة، من الجهتين الشرقية والجنوبية، والأروقة وما يعلوها من مدارس ومعالم حضارية، من الجهتين الشمالية

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٢٢ كانون ثاني ٢٠٠١

**مدير الأوقاف الإسلامية العامة

[1] سورة الإسراء، الآية ١

والغربية، وامتداد ذلك خلال البلدة القديمة. والمساحة المشار إليها لم تتغير، وهي غير قابلة للتغيير منذ حادثة الإسراء والمعراج وحتى الآن.

وعليه؛ فإن التعريف بأن قبة الصخرة، أو الأقصى المغطى في الجهة الجنوبية من هذا الموقع، هو المسجد الأقصى الذي أشير إليه بسورة الإسراء في القرآن الكريم، تعتبر عملية خلط لا تلازم الحقيقة لا من قريب ولا من بعيد، ولكنها تندرج ضمن مسلسل المحاولات التي يسعى إلى ترسيخها المتربصون بالمسجد الأقصى المبارك، حتى تكون النتيجة، بأن ما يخص المسلمين هو قبة الصخرة، أو المسجد الأقصى المغطى في الجهة الجنوبية، أو الاثنين معا، أما ما يتبقى من الموقع فهو أمر آخر، حيث يشار إليه بالتسمية التي يرغبون بها، والتي تلبي تطلعاتهم، وتتمشى مع أفكارهم السوداوية المتناقضة، ولقد تمكنوا من نشرها مع الأسف الشديد في فكر الكثير من الناس في هذا العالم، من خلال إعلامهم وصحافتهم المنتشرة والمؤثرة، إضافة إلى تأثيرهم السياسي في معظم محافل الغرب وأمريكا.

وهنا ظهر مصطلح (جبل الهيكل)، الذي أصبح يطفو على السطح، ويبدو أكثر انتشارا من المعنى الحقيقي (المسجد الأقصى) في المحافل الغربية، ومجرد أن يبقى هذا المصطلح منتشرا على النحو الذي هو عليه، فإن مقولة الهيكل سوف تبقى بالوجدان بين اليهود، ومجالاً يحتاج للدعم من قبل غير اليهود، من ناحية إنسانية ونفسية، وأحيانا عقائدية، ولا بد من التأكيد هنا بأن هذه التسمية لم تأت على خلفية تاريخية مشوشة فقط، بل إنها مقدمة من أجل خلق واقع جديد جرى التحضير له نفسيا وعاطفيا وعمليا منذ فترة طويلة، وأضحت هذه التسمية مصدرا للقلق لدى المسلمين، بالرغم من أن قوة الارتباط العقائدي بالمسجد بكل حيثياته من قبل المسلمين لا تسمح إلى أي حيز من الشك، فلقد تم التعبير عنه بالدم والشهداء. "**وهنا علينا أن نعي لخطورة الرسالة القائلة بأن جبل الهيكل هو البديل للمسجد الأقصى.**

وهكذا فإن عملية الخلط المبرمجة التي يسعى من خلالها الطرف الآخر لقلب الحقائق، يجب التصدي لها، والموقف لا يحتمل أي تهاون بعد الآن، حيث تكالبت الخطوب، وتأهبت الذئاب من كل مكان، متحفزة للنيل من هذا المكان الذي باركه الله وبارك كل ما حوله.

المحور الثاني

المفهوم الديني:

لا بد من التأكيد بأن ملكية المسلمين للمسجد الأقصى المبارك، لم يكن بصفتهم ضيوفا، أو مستوطنين، أو عابري سبيل، ولا هم سحابة عابرة. **المسلم موجود برغبة وأمر رباني فرض عليه في سورة الإسراء.** فعندما اسري بالنبي محمد ﷺ من مكة المكرمة، إلى المسجد الأقصى، كانت إرادة الله، وكان الإعلان الرباني بربط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى عقائديا. وبعد أن صعد بالنبي محمد ﷺ إلى السماء العلا، لتلقي ركن الصلاة التي هي عماد الدين، كان الإعلان الثاني بربط هذه الأماكن بالسماء، وهنا تظهر فلسفة الإسلام المعلنة عن ربط السماء بالأرض، فهي موضع المسجد الأقصى، وهنا يتبين مدى أهمية المسجد، ومدى قوة إرتباط المسلمين به، ولا بد من الإشارة إلى كلمة المسجد التي سبقت في الآية القرآنية، والتي تعني أن الأقصى هو مكان لعبادة المسلمين، ولا مكان لأي عبادة أخرى فيه، فالمسجد مصطلح يخص المسلمين فقط، ويبقى هذا الأمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إن الإسلام هو استكمال للأديان الموحدة التي سبقته، وذلك كما جاء بقوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم

عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام)[٢]. حيث كانت اليهودية، وتبعتها المسيحية، إلى أن جاء الإسلام ليكون الدين المكمّـل والخاتم، ولقد ورث الإسلام الأديان التي سبقته، واحترمها وأكّـد عليها، وأضاف لها ما أراده الله للناس.

إذن هكذا تفهم الأمور، وهكذا تصان الكرامة، ولا يكون هناك أي تعرّض للعقائد، فهي تكمـل بعضها بعضا، ولا تحمل بين جنباتها أي تمييز، وهكذا فإن القاعدة الأساسية والهامة في هذه الحلقات، لمسيرة الأديان الموحدة بالله، تشير إلى الاحترام والاعتراف المتبادل على مستوى العقيدة، وعدم التعرض لمكونات أي مرحلة من قبل أي مرحلة سابقة أو لاحقة. ولكن هذه المفاهيم لدى الطرف الآخر تكاد تكون غير مفهومة، بل مشوهة ومعدومة، حيث أنهم لا يؤمنون بأحد، ولا يعيرون أي أهمية لمشاعر الآخرين وعقائدهم، وهنا تكمن المشكلة. ويظهر الصراع بين المسلمين وبينهم حول المسجد الأقصى المبارك.

فإذا ما احترموا الديانات السماوية الموحدة ومقدساتها وخاصة العقيدة الإسلامية، وبأنها وارثة للأديان الأخرى، وإرادة الله الأخيرة التي أنزلت للناس، لما كانت هنالك أي مشكلة، ولفهم هؤلاء بأن الأقصى مسجدا إسلاميا برغبة وقرار وأمر رباني لا رجعة فيه، وأن عليهم احترام هذا التوجه الرباني، والتعامل معها وعدم التعرض لها، وبعكس ذلك فإنها تعني مزيداً من الإفساد الذي سيضاف إلى ما سبقه من إفساد، وعندها تكون الآلام والمعاناة أكثر لجميع الناس على هذه الأرض الطيبة. وعودا إلى بعض ما ورد في بعض كتب التاريخ، فإن من هدم الهيكل أينما كان موقعه هم الرومان، قبل ما يزيد عن خمسة قرون من ظهور الإسلام، ويتحمل الرومان وحدهم مسؤولية هذا الهدم، والمسلمون لم يكونوا طرفا فيه ولم يثبت لغاية

---

[٢] سورة آل عمران، الآيات ٢ – ٤.

الآن وبالرغم من كل جهود الحفريات خلال العقود الثلاثة الماضية، بأي أثر له في ساحات المسجد الأقصى.

المحور الثالث

الهيكل:

تسيطر فكرة إعادة بناء الهيكل الثالث [٣] على فكر الكثيرين من اليهود المتدينين والمتزمتين، وحتى تتهيأ الظروف لتنفيذ هذه الفكرة لا بد من إيجاد موقع يقام عليه هذا الهيكل، ويشعر هؤلاء بأن تهيئة الأجواء يمكن أن تتأتى من خلال أقوال جاءت في التوراة، أو التلمود، أو المشناة، أو على لسان الرحالة. أي باختصار عملية تجميع كلام من كل اتجاه يؤدي إلى عملية تهيئة الأجواء. أو من خلال إيجاد بقايا مادّية بواسطة الحفريات الأثرية، أو غيرها، لعلّهم يكتشفون بعض البقايا من الهيكل الأول، أو الثاني في موقع ما، ليكون بالتالي الموقع المقترح للهيكل الثالث. وحتى نثبت بأن الهيكل لم يكن يوما من الأيام في موقع المسجد الأقصى [٤] لا بد من التطرق إلى ما يلي:

أولا: مكان الهيكل:

الأفكار حول مكان وموقع الهيكل كثيرة ونورد فيما يلي بعضا منها:

- جبل جرزيم (شخيم) نابلس: حيث أنها مدينة كنعانية[٥] والوعد بالنسبة لإبراهيم عليه السلام، كما ورد في التوراة له ولنسله من بعده، هو على أرض كنعان، وأما القدس فهي لليبوسيين.

---

[٣] سفر الخروج، الإصحاح ١٥.
[٤] د. محمد مصالحة، القدس، ١٩٩٧: المسجد الأقصى المبارك وهيكل بني إسرائيل.
[٥] سفر التثنية، الإصحاح ١١.

- برك سليمان (قرب عين عطام): حيث باشر داود عليه السلام بحفر أساسات الهيكل، كما ورد بالتوراة، وبرك سليمان تقع جنوب بيت لحم والقدس[٦].
- بيت إيل (شمال شرق رام الله): حيث حلم يعقوب عليه السلام بأن بيت الرب وباب السماء في هذا الموقع أيضا، كما ورد في التوراة، وأنه وضع حجر الأساس لبيت الرب، الذي هو الهيكل على هذا الموقع[٧].

وأما في مدينة القدس فالأفكار كثيرة، والخيال كان واسعا، وهي على النحو التالي:

- مكان قبة الصخرة تماما، حيث موقع الصخرة هو قدس الأقداس[٨].
- على بعد (٢٦) مترا شمال قبة الصخرة، وعلى محور شرق غرب، حيث يمثل باب الرحمة في الشرق بداية المحور، والمدخل إلى الهيكل، وقبة الأرواح في الغرب نهاية المحور، حيث تقع هذه القبة فوق قدس الأقداس[٩].
- بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى تقريبا، فوق موقع الكأس – مكان الوضوء المستدير – ويقال أن هذا الموقع داخل المسجد الأقصى يمثل أعلى نقطة، ومن مواصفات الهيكل أن يكون على أعلى نقطة حسب ما ورد بالمشناة، وأن عمليات حفر وتسوية حصلت بعد بناء وهدم الهيكل غيّرت من طبيعة الموقع [١٠]
- مكان موقع الأقصى المغطى في الجهة الجنوبية، ولكن هذا الموقع حسب أبعاد الهيكل تقع في مساحة خارج المساحة المقدسة، وذلك كما جاء في تفاصيل ومواصفات الهيكل في المراجع اليهودية[١١].

---

[٦] المشناة: " وهي ما تردد على لسان الرابي العيزر بن يعقوب والذي كان شاهد عيان في زمن الهيكل".

[٧] سفر التكوين، الإصحاح ٢٨ .

[٨] كونفلد (عبري): البحث التاريخي والأثري لعام ١٩٧٥ .

[٩] كاوفمن، ١٩٧٥ (عبري): الهيكل الثاني: شكله، موقعه وحدوده.

[١٠] لفنوني، ١٩٩٥ (عبري): الهيكل: وصف للهيكل الثاني حسب الرمبام.

[١١] المشناة: القياسات.

- خارج حدود المسجد، وفي الجهة الجنوبية، أي فوق قرية سلوان، وبالتحديد فوق عين سلوان، حيث يجب أن يكون عين ماء في الهيكل حسب المواصفات، ولا يوجد أي عين في مدينة القدس إلا هذه العين. وتشير هذه الفكرة بأن المسجد الأقصى المبارك كان يمثل جزءا من قلعة أنطونيا، أي مقر لقيادة الرومان في ذلك العهد (عهد الهيكل الثاني)[١٢].

وهكذا فإن الأفكار المطروحة كثيرة ومتناقضة، والهدف منها في غاية الخطورة، فهم يطرحون أفكارا كثيرة، ويرضون بأي فكرة يمكن أن تكون قريبة من تحقيق هدفهم، أو يمكن أن يكون بالإمكان تنفيذها، ولكن هذه التناقضات أيضا تؤكد بأنها أعمالا مفبركة، وتؤكد بأن ما يسمى بالهيكل لم يكن في يوم من الأيام في موقع المسجد الأقصى المبارك، ولا حتى في مدينة القدس، حيث لم تذكر القدس بالتوراة – الأسفار الخمسة–، مع العلم بأن جبل جرزيم قد ورد بالتوراة ثلاث مرات مثلاً.

ثانيا: آثار وبقايا الهيكل:

لا شك فيما لو تم العثور على بقايا آثار للهيكل داخل حدود المسجد الأقصى، أو في محيطه من الخارج، لكان هذا الأمر شاهدا على وجود الهيكل، وسوف نشير الآن إلى داخل حدود المسجد الأقصى المبارك، ومن ثم إلى محيطه.

أ- داخل حدود المسجد الأقصى:

في بداية الستينات تمّت عملية ترميم جذرية شاملة لبناء قبة الصخرة، واشتملت هذه العمليةالهندسية دعما للأساسات، شاملة الجدران والواجهات الخارجية، والعناصر الإنشائية الداخلية لمبنى القبة، وبعد أن تم الكشف عن الأساسات لم يظهر أي فراغ، أو أي إنشاءات تقع بين طبقة الصخر الطبيعية وبين عناصر

[١٢] د. أرنت آل مارتن، ٢٠٠٠(انجليزي): الهيكلان المنسيان في القدس.

بناء قبة الصخرة، وبالطبع بوسط المبنى توجد الصخرة المشرفة، على ارتفاع النظر، ولا يوجد فوقها، ولا أسفلها أي إشارة إلى وجود مباني أخرى من الهيكل المزعوم أو غيره.

- إثر الحريق الذي تعرض له المسجد الأقصى المغطى في الجهة الجنوبية عام ١٩٦٩، بأيد خبيثة، والذي أتى على ما يزيد على ٢٠% من مساحته، بوشر بعملية إعادة بناء هذه الأجزاء التي تضررت وتصدعت، بعد أن تم مسحها وتوثيقها، ومن ثم إزالتها، حيث واكب هذه العملية الحفر إلى عمق وصل حوالي عشرة أمتار أسفل منسوب بلاط أرضية المسجد الأقصى المغطى، وتم الوصول إلى طبقة الصخر الطبيعية ــ وهي ظاهرة أيضا من الخارج ــ من أجل إعادة البناء والتأسيس على طبقة الصخر الطبيعية القوية، وخلال هذا العمل لم تظهر أي معالم لبقايا أي بناء في الموقع، وجميع العناصر التي ظهرت هي من العصور الإسلامية وليس قبل ذلك.
- في بداية السبعينات، وضمن عملية تنفيذ مشروع إطفاء الحريق في المسجد الأقصى المبارك، تم إنشاء خزان مياه كبير في الجهة الشرقية الشمالية من سطح قبة الصخرة، ووصلت هذه الحفريات إلى أعماق كبيرة، ولم يظهر أي معلم لأي مبان في الموقع.
- في بداية عام ١٩٩٩ بوشر بعملية فتح باب المصلى المرواني الرئيس، في الجهة الشمالية من المصلى المرواني ــ أي في الجهة الجنوبية الشرقية من المسجد الأقصى ــ، وتمّت عملية حفر وصلت إلى حوالي عشرة أمتار، أي حتى الوصول إلى منسوب بلاط المصلى المرواني في الجهة الشرقية، وأزيل الطمم خلال هذه العملية، وهو من مخلفات إعمار المسجد الأقصى، منذ ما يزيد عن مائة عام تقريبا، ولم تكتشف أي آثار لأي مبان.

- أما في الجهة الشمالية من المسجد الأقصى مقابل: المدرسة العمرية، والمدرسة البكرية، والمدرسة الغادرية وغيرها، فإن الطبقة الصخرية الطبيعية ماثلة للعيان، وتظهر عدم وجود أي آثار لأي مباني فوقها أو أسفلها.
- إضافة لكل ما ورد أعلاه، فإن في موقع المسجد الأقصى المبارك يوجد (٣٧) بئرا جميعها محفورة بالصخر، ولا يوجد ضمن مكوناتها أي مبان أو جدران يمكن أن توحي بوجود بقايا لأي إنشاءات كانت موجودة.

ب: خارج حدود المسجد الأقصى:

وهنا لا بد من الإشارة إلى الحفريات المكثـــفة العميقة الهائلة، التي شرعت بتنفيذها الجهات الإسرائيلية المختلفة بعد احتلال المدينة المقدسة عام ١٩٦٧، وأظهرت هذه الحفريات الطبقة الصخرية الطبيعية للموقع، من الجهة الجنوبية بأكملها، والجنوبية الغربية، التي أفرزت ما يزيد على ٨٠% من المكتشفات آثارا عربية إسلامية، معظمها أموي[١٣]، والباقي بعض المكتشفات الرومانية والبيزنطية، ولم يكن هناك أي أثر للهيكل. وهكذا نصل إلى نتيجة بأن كل المعطيات النظرية والمادية حول هذا الهيكل تؤدي إلى احتمالات وتكهنات وتحليلات جميعها متناقضة، وغير مؤكدة، وتندرج ضمن عملية طمس للحقائق، وخلط مكشوف ويمثل اعتداءاً على حقوق ومشاعر المسلمين، كما أوردنا سابقاً.

---

[١٣] مازار، ١٩٧٥ (عبري): الحفريات الأثرية المجاورة لجبل الهيكل، أرض إسرائيل/ القدس؛ بن دوف، ١٩٧٥ (عبري): المباني في العهد الأموي، بجوار جبل الهيكل، أرض إسرائيل.

المحور الرابع

الأفكار المطروحة في المفاوضات "السياسية" حول المسجد الأقصى المبارك:

إن استهداف المسجد الأقصى واحتواءه، أو وضع اليد عليه، أو على جزء منه أو على مداخله، بدأت منذ بداية الاحتلال الإسرائيلي للمدينة المقدسة عام ١٩٦٧، وعلى النحو التالي:

- في الأيام الأولى للاحتلال، قامت سلطات الإحتلال بمصادرة مفتاح باب المغاربة،- في الجهة الغربية الجنوبية - وهو أحد أبواب المسجد التسعة المفتوحة والمستعملة، وما يعنيه هذا الإجراء أن لهذه السلطات شيئا ما داخل المسجد، وهي تمثل رسالة قد تكون في ظاهرها ممارسة سلطات إحتلالية إستفزازية، ولكن في جوهرها تشير إلى الكثير، ومع الأسف الشديد لم يكن الوعي لهذه الأخطار في حينه كافيا لمقاومة هذا الإجراء، ولكن ما تبع ذلك أوضح الصورة الكاملة، ولا بد من الإشارة هنا بأن هذا الإجراء قوبل بمعارضة واستنكار ورفض علني ورسمي ومباشر من الهيئة الإسلامية العليا، وعلى رأسها في حينه المرحوم الشيخ عبد الحميد السائح، حيث تم إبعاده من فلسطين بسبب قيادته المعارضة لهذا الإعتداء الظالم[١٤].
- وبدأت بعد ذلك عملية تسلل ودخول لبعض اليهود، مع أفواج السياح الذين يزورون المسجد الأقصى المبارك، وكان الجميع يعلم بأن اليهود من ناحية دينية لا يمكنهم دخول ساحات المسجد، وذلك حسب ادعائهم حتى لا تطأ أرجلهم على الكلمات العشر وقدس الأقداس، ولكن فتاوي الحاخامات، بدأت تظهر لتغيّـر هذا المفهوم، ولتسمح لليهود المتطرفين من الدخول، مع قيامهم بالاستفزازات،

[١٤] أرشيف الهيئة الإسلامية العليا/ القدس.

والممارسات الشاذة بحماية الشرطة الإسرائيلية، تمهيدا للوصول إلى ما يرغبون، وظهرت الأمور بعد ذلك جلية، بأن هؤلاء المتطرفون يعبرون عن إحدى آليات سلطات الاحتلال الرسمية[١٥]، من أجل تغير الوضع القائم بالمسجد.

- في السنوات العشرة الأخيرة تم زرع قواعد لهؤلاء المتطرفين حول المسجد الأقصى المبارك، وعلى مداخله في الحي الإسلامي، ووصل عددها إلى ما يزيد عن خمس وخمسين بؤرة استيطانية، وهذا الإجراء يأتي لتكثيف الزيارات وتسهيلها، حتى تكثر المواجهات والإشكالات مع المسلمين، وحسب اعتقادهم، فإن هذا الأمر قد يخلق أجواء لافتعال أوضاع جديدة بحجج مختلفة، ولهم باع طويل بذلك.
- وتبع ذلك إجراءات رسمية، من قبل الشرطة اتجاه حراس المسجد الأقصى المبارك، حيث تجري عمليات توقيف واعتقال واستدعاء للتحقيق معهم، فيما لو قاموا بواجبهم، ومنعوا المتطرفين من قيامهم بما يتعارض مع آداب الزيارة، ولقد تم الاعتداء واعتقال العديد منهم، وتم فتح ملفات كثيرة في المحاكم[١٦]، وبالطبع فإن هذا يعني أن السلطات الرسمية تشجع هؤلاء لتنفيذ السياسة الرسمية المرسومة، والمتمثلة في تغيير الوضع القائم، في الوقت الذي يتشدقون فيه ويعلنون بتصريحات كثيرة عن "حرّية العبادات" وسهولة الوصول إلى أماكن العبادات للديانات المختلفة في المدينة.

أما الأمثلة المراد تطبيقها لتنفيذ الغاية المرجوّة، هو ما حصل في المسجد الإبراهيمي الشريف، حيث تم تحويل المسجد من طرف واحد، وعلى خلفية مذبحة الفلسطينيين المصليين في صلاة الفجر عام ١٩٩٦ إلى كنيس يهودي بكل معنى

---

[١٥] أرشيف أوقاف القدس/ الاعتداءات.
[١٦] أرشيف أوقاف القدس/ قضايا.

الكلمة، وتجري عملية مضايقات للمسلمين من أجل منعهم من الحضور إلى المسجد الأقصى، وما حصل في مسجد ومقام يوسف في بلاطة ــ نابلس، ومسجد بلال بن رباح في مدخل مدينة بيت لحم، والمحاولات الجارية في مقام مسجد النبي صموئيل شمال شرق المدينة المقدسة.

- وفي بداية عام ١٩٩٤، ومع الفشل الذريع للمحاولات الواردة آنفا، بدأنا نقرأ بالصحف تصريحات وتحليلات على لسان جهات رسمية إسرائيلية ومستشارين، تشير إلى إمكانيات وأفكار تصلح لأن تكون بديلا للهيكل المراد إقامته على أنقاض المسجد الأقصى المبارك، في مناسيب سفلية، أي أسفل منسوب المسجد الأقصى المبارك وساحاته، وكانت هذه الإشارات تتجه صوب المصلى المرواني، المسمى خطأ اسطبلات سليمان، وعندها ولمقاومة هذا التوجه، عمل المسلمون على تكثيف إشغال المصلين لهذا الجزء من المسجد، وعمل كل ما يلزم من أعمال ترميم ضرورية لتنفيذ هذه الغاية، وعلينا أن نتذكر بأن المصلى المرواني قد بني في نفس الوقت الذي بنيت فيه قبة الصخرة[١٧] والأقصى المغطى، وهو في العهد الإسلامي المبكر ــ الأموي ــ، ويمثل عنصرا أساسيا وهاما من مكونات المسجد الأقصى، ويتسع الى ما يزيد عن سبعة آلاف مصلي، ومساحته في حدود خمسة آلاف متر مربع.
- أما حائط البراق ــ الذي يسمونه بحائط المبكى ــ فهو يمثل الحائط الغربي للمسجد الأقصى المبارك، وحائط المسجد هو جزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى، والتفريط في ملكيته الإسلامية يعني مقدمة للتفريط بالمدينة المقدسة، ولقد أكّدت جميع اللجان الدولية التي حضرت للبحث عن أصحاب الحق في هذا

---

[١٧] د. الفني، ١٩٩٧: التسوية الشرقية للمسجد الأقصى (المصلى المرواني).

الحائط، وأهمها في عام ١٩٣٠، بأنه وقف إسلامي وملك إسلامي، وجزء لا يتجزأ من المسجد الأقصى المبارك[١٨].

- وتبع ذلك جهود عربية لاستكمال ترميم المسجد القديم (الأقصى القديم)، وذلك في بداية عام ١٩٩٦، والمدرسة الخنثية الملحقة به في الجهة الجنوبية، حيث تقام فيه الشعائر الدينية، ويدرّس القرآن الكريم في المدرسة الملحقة به، ويتسع هذا المسجد إلى أكثر من ألف وخمسمائة مصلي.

الخلاصة

- المسجد الأقصى هو فوق الأرض (حتى السماء)، وتحت الأرض (حتى مركز الكرة الأرضية) ، ولا يوجد أي مكان لإضافة أي عناصر أخرى، وذلك كما تأكد لنا ضمن ما أوردنا من حقائق ومعايير وتحليلات.
- المسجد الأقصى مسجد إسلامي بقرار رباني، ولا يحق لأحد في أن يغير في هذا الأمر، فهو جزء من العقيدة وورد النص عليه في القرآن الكريم، ولا يمكن ولا يجوز لأحد أن يغيّر هذه الحقيقة.
- إن الحفاظ على المسجد الأقصى المبارك، هو الحفاظ على مدينة القدس، ومن ثم على فلسطين... كل فلسطين، فهو صمام الأمان لوجودنا في هذه الديار.
- المسجد الأقصى هو المركز والمحور الذي تجتمع قلوب المسلمين في هذا العالم من حوله، وهو المكان الذي ترتبط به العقيدة، وهو نقطة القوة في قضية المواجهة مع المتربصين بنا، وبمقدساتنا وبوطننا ومستقبلنا ومستقبل أولادنا.
- إن فشل كل إجراءات الاحتواء والتغيير الجائرة للإحتلال، يؤمن ورقة قوية للمفاوض الفلسطيني في موضوع المسجد الأقصى المبارك، ويؤهله أن يحافظ

---

[١٨] د. أحمد العلمي، ٢٠٠٠ : ثورة البراق.

عليه مسجداً إسلامياً كما أراده الله، وبالتالي ضمان السيادة العربية الإسلامية عليه، وعلى المدينة المقدسة بشكل عام.

- إن بقاء المسجد تحت السيادة العربية الإسلامية هي الطريق الوحيدة للحفاظ عليه، وبعكس ذلك فإن محاولات المتربصين سوف تتواصل، من أجل العدوان على المسجد وعلى مستقبله، ويجب أن تكون هذه السيادة العربية الإسلامية محكمة، لا تسمح بأي فراغ أو خطأ من أي نوع، حتى لا يشكّل هذا مدخلا لأي عدوان عليه.
- وما الإجراءات الجارية حاليا من قبل المحتلين، والمتمثلة بإغلاق المدينة، وبإغلاق محيط المسجد الأقصى المبارك أمام المصلين، ومنع المسلمين، وإدارة الأوقاف الإسلامية من القيام بواجبها نحو ترميم المسجد والحفاظ عليه، إلا حلقة من حلقات العدوان والظلم التي تفضح هذا الاحتلال أمام العالم أجمع، ولكنها يجب أن تكون بنفس الوقت محفــّزة لشحذ الهمم، وتهيئة النفوس، والعمل على إزالة هذا الاحتلال الظالم الغاشم، حيث أثبتت الأيام الماضية بأن بقائه يمثل كارثة، والتعامل معه من المستحيلات.
- علينا أن نعطي الإعلام حقه، لمواجهة الأكاذيب والأفكار المسمومة الموجهة باتجاه الاعتداء على المسجد وعلى عقيدة المسلمين بدون وجه حق، وهذا الأمر يحتاج إلى استراتيجية عربية إسلامية، توجه إلى جميع أنحاء الأرض، وبالأسلوب الذي يفهمه هذا العالم العجيب!!.

** * * * **

زيارة القدس في ظل الاحتلال الإسرائيلي
بين المعارضة والتأييد

الشيخ حيان الإدريسي**

مكانة فلسطين في التصور الإسلامي:

تتمتع أرض فلسطين بمكانة خاصة في التصور الإسلامي وهي المكانة التي جعلتها محط أنظار ومهوى أفئدة المسلمين، فهي أرض مباركة بنص القرآن الكريم، "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير" وقال تعالى:" ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها"[1]، وهي أرض مقدس بنص القرآن الكريم:" يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم"[2]، وفلسطين أرض الأنبياء ومهبط الرسالات السماوية، وهي أرض المحشر والمنشر وهي قبلة المسلمين الأولى وفيها ثالث المساجد الإسلامية مكانة ومنزلة (المسجد الأقصى) بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي والصلاة فيه بخمسمائة صلاة عما سواه من المساجد وهي مسرى رسول الله ﷺ ومنها عرج إلى السماء.

ولهذا احتلت القدس وفلسطين مكانة جعلتها جزءاً من عقيدة المسلمين ووجدانهم، فكان أن أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم طلائع الجيوش الإسلامية قبل وفاته

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ١٥ شباط ٢٠٠١

**عضو محكمة الاستئناف الشرعية، رئيس جمعية الكفيفات في رام الله

[1] سورة الأنبياء آيه رقم ٨١

[2] سورة المائدة آيه رقم ٢١

حيث دارت معركة مؤته ايذانا بفتح الشام، وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تم فتح القدس حيث تسلم مفاتيحها ودخلت فلسطين في ديار الإسلام، وقد تعمقت مكانة فلسطين في نفوس المسلمين وفدوها بأرواحهم وردوا عنها كيد المشركين فاختلطت دماء الصحابة والمجاهدين بثراها المبارك حيث دارت على أرضها على مدار التاريخ الإسلامي معارك فاصلة كأجنادين وفحل بيسان، وسميت بهذا الاسم لأن المسلمين وقفوا في منطقة اسمها فحل والصليبيين وقفوا في منطقة اسمها بيسان، عند المواجهة ولهذا سميت فحل بيسان، واليرموك وحطين وعين جالوت ثم لا ننسى معارك المجاهدين ضد الاحتلال الفرنسي ثم الإنجليزي ثم اليهودي ولا زال شلال الدم الطاهر يروي بغزارة ثرى هذه الأرض المباركة التي ابتليت بأشرس وأخطر احتلال عرفته فلسطين منذ فجر التاريخ.

وقد يتساءل البعض لماذا يعتبر احتلال اليهود لفلسطين أخطر احتلال وغزو تتعرض له بلادنا منذ فجر التاريخ رغم أن مدينة القدس سقطت أو احتلت أربعة وعشرين مرة على مدار التاريخ وفي اعتقادي أنه لا يوجد في العالم مدينة أو قرية أو حتى موقع عسكري تعرض لتبادل الأيدي عليه مثل ما تعرضت له هذه المدينة المقدسة وأرض فلسطين.

والجواب على هذا التساؤل!

أ- لقد تعاقب على سكنى هذه الأرض أقوام قبل الميلاد وبعده تعرضوا للاجتثاث وتبادلت القوى احتلالها وبسط النفوذ عليها، وظل هذا قبل الإسلام ظاهرة موجودة ومتعارف عليها في قانون القوي حيث لم يكن لسكان فلسطين أي امتداد ديني أو قومي يربطها بحولها من الشعوب والبلاد المجاورة ولهذا لم يوجد من يحمي ويدفع عنها المحتل ويهب لنجدة أهلها من براثن المغتصبين، أما بعد الفتح الإسلامي فقد أصبحت فلسطين جزءاً من الدولة الإسلامية

وأصبح أهلها جزءاً من الشعوب العربية الإسلامية، ولهذا فإن أي غزو كانت تتعرض له سواء صليبي أو مغولي كانت الحميّة الدينية العامل الأكبر في هياج المشاعر لإنقاذ الأقصى مسرى رسول الله ﷺ، وكان الامتداد العربي والإسلامي يشكل عمقاً استراتيجياً تنطلق منه حملات جهادية لتحرير فلسطين مثلما حصل في الحروب الصليبية وغزو التتار كما ذكرت.

ب- أما في عصرنا الحاضر فإن المأساة التي تعرض لها شعب فلسطين من احتلال وسقوط القدس تعتبر أخطر الحملات الاستعمارية رغم وجود امتداد أو عمق إسلامي وعربي حولنا لماذا؟:

١- الشعب الإسرائيلي الذي اغتصب فلسطين يشكل لفيفاً من شعوب جاءت من أصقاع المعمورة ولم ينطلقوا من أرض ودولة تزحف لاحتلال أرض فلسطين ثم أنهم جاءوا تحت شعار عودتهم إلى أرض الميعاد من أجل إقامة الهيكل وبناء دولة إسرائيل، ولهذا فإن اجتثاثهم من فلسطين وعودتهم إلى الشتات الذي جاءوا منه، يحتاج إلى إصرار واستعداد يفوق إصرارهم واستعدادهم على البقاء ويحتاج إلى عقيدة تتفوق على عقيدتهم وان تسيطر العقيدة وتسيّر اتباعها بالقول والفعل والعمل. والمسلمون لهم عقيدة متينة وقوية وثابتة ولكن هذه العقيدة لا تحكمهم ولا تسوسهم بعد أن تركوا حكم الله وساروا وراء الشهوات، وإلى أن يعود الإسلام حاكماً والدين مرجعية فلا بد أن نظل نعاني من ويلات الاحتلال.

٢- اليهود تمكنوا من هذه الديار وأقاموا دولتهم بعد أن سيروا الدول الاستعمارية الكبرى وجعلوها رأس حربة لاحتلال فلسطين، فاستصدروا وعد بلفور من بريطانيا التي احتلت فلسطين بعد ذلك ومهدت لهم الهجرة وأمدتهم بالسلاح، ثم إن اليهود أقاموا دولتهم تحت ستار الشرعية الدولية بقرار التقسيم الصادر عن

هيئة الأمم المتحدة أي بقرار دولي ولا يوجد محتل سبق له احتلال فلسطين بقرار عالمي، ولا يوجد محتل سبق له احتلال فلسطين بقرار عالمي مثل ما حصل مع احتلال اليهود واغتصابهم لفلسطين وعليه فإن كل زعماء العرب والمسلمين اليوم لا يتجرأ منهم أحد بتفوه لفظ يشير إلى زوال دولة إسرائيل وإنما الجميع يقول بانسحاب اليهود حتى حدود عام ١٩٦٧، وتطبيق القرارات الدولية ٢٤٢، ٣٣٨ .

٣- لقد استطاع الاستعمار تجزيء الأمة العربية والإسلامية إلى أقطار وشعوب متفرقة ، وبهذا فقد أصبحت قضية فلسطين قضية عربية إسلامية ظاهراً وشكلاً وجعلوا واجب تحريرها يقع على الشعب الفلسطيني مؤخراً، هذا الشعب يقع عليه تحريرها وحده لأن العرب اليوم قد اتخذوا السلام منهجاً وإستراتيجية ولهذا فإن أي دعم يمكن أن يصيبنا من العرب والمسلمين لن يتعدى الدعم المالي أو السياسي أو الإعلامي فقط.

وهذا ما أكدت عليه قرارات مؤتمرات الدول العربية والإسلامية وآخرها ما عقد خلال انتفاضة الأقصى (قبل شهرين) والتي أكدت على أنه لا طريق لحل القضية إلا من خلال النضال السياسي.

٤- وفي ظل النظام العالمي الجديد فأي دوله عربية أو إسلامية لن تتجرأ على إعلان الحرب على إسرائيل أو إمداد الفلسطينيين بالسلاح، وإلا اعتبرت دولة إرهابية سوف تتعرض للحصار والتدمير ولهذا فإن الدول العربية مكبلة لا تستطيع أن تُجمع على أدنى ما يطلب أو يفرض عليها الواجب الديني اتجاه أخوتهم في فلسطين.

وإذا ما أضفنا إلى ذلك التأييد الأمريكي لإسرائيل بالمال والسلاح وامتلاك إسرائيل لأسلحة الدمار وعلى رأسها النووية والكيماوية والصواريخ، فان الابتلاء الذي نعانيه يعتبر أكبر وأفظع ما مر على هذه الديار من ويلات الغزو.

أيها الأخوة

لقد مضى على إقامة دولة إسرائيل ثلاثة وخمسين عاماً ومضى على احتلال القدس ثلاثة وثلاثين عاماً وقعت خلالها عدة حروب ومواجهات بين العرب واليهود كما طرحت عشرات المشاريع السلمية ولكن هذه الحروب وهذه المشاريع والحلول السلمية لم تقربنا من الحل ومن الخلاص بل على العكس استمرت إسرائيل في تعنتها وازدادت شراستها في القتل والتدمير ومصادرة الأراضي وأمعنت في تهويد مدينة القدس وفقدت الأمة العربية بزعاماتها الحالية المصداقية ثم جاءت فكرة الحل الدائم بعد فشل الحل الجزئي وظهرت مشاكل في طريق الحل وعلى رأسها قضية القدس ثم جاءت انتفاضة الأقصى التي أيقظت المشاعر في العالم العربي والإسلامي وأحرجت زعماء العرب والمسلمين وأجبرتهم على عقد مؤتمر قمة عربي ومؤتمر قمة إسلامي وخرج المؤتمرون بقرارات كانت دون مستوى المسؤولية وأظهرت بشاعة الخذلان والانهزامية لدى زعماء هذه الأمة فأصبح الشارع العربي وقد ازداد غضباً على زعمائه الذين كبلوا أنفسهم بمصالحهم الشخصية وخذلوا أشقائهم في فلسطين وخذلوا أولى القبلتين مسرى الرسول ﷺ.

لقد مضى على انتفاضة الأقصى أربعة أشهر واستمرت صفحات الشهادة والفداء وقدم الفلسطينيون التضحيات الجسام، مئات القتلى والجرحى بالآلاف وهدمت على رؤوسهم المنازل وقصفت المدن والقرى التي حوصرت وتقطعت أوصالها وحورب

الناس في أرزاقهم ويتهددنا انهيار اقتصادي فظيع إذا ظلت الأمور تسير على هذا المنوال.

ويتطلع أهل فلسطين إلى الفرج والخلاص من هذه المحنة فيجدوا أن العالم من حولهم بما فيه العرب والمسلمين يكتفون بمتابعة أخبار الحصار والقتل والدمار من خلال الوسائل الإعلامية أو من خلال بعض الدعوات والابتهالات والصلوات أو من خلال التصريحات الدبلوماسية أو الندوات.

وخلاصة لذلك فإن العالم العربي ينتهج طريق اللاعنف في التعامل مع إسرائيل وذلك من خلال مطالباته بتطبيق القرارات الشرعية أو سحب السفراء المعتمدين لدى دولة إسرائيل أو إغلاق المكاتب والممثليات الإسرائيلية في بعض العواصم العربية أو من خلال تقديم الاحتجاجات وإصدار بيانات الشجب والاستنكار.

وضمن نهج مسيرة اللاعنف تقع تلبية إمام الأزهر فضيلة الشيخ محمد سيد طنطاوي الدعوة لزيارة القدس وتأييدها أيضا من قبل وزير الأوقاف المصري الدكتور محمد حمدي زقزوق.

وقد تناولت وسائل الإعلام الردود والاعتراضات والانتقادات التي صدرت في البرلمان المصري ومشيخة الأزهر وعن المفكرين الإسلاميين الذين استغربوا هذا الموقف من إمام الأزهر وأبدوا اعتراضهم على مبدأ قبول هذه الزيارة، وواجبي هنا أن أنوه إلى:

- أن فضيلة الإمام الأكبر لم يدع إلى زيارة القدس ابتداء ، فهذه ليست فكرته ولا مبادرة منه وإنما صدرت الدعوة من جانب الدكتور بركات الفرا نائب سفير فلسطين بالقاهرة وذلك خلال ندوة عقدت بجامعة الأزهر يوم ١٤ كانون ثاني ٢٠٠١، وبحضور فضيلة الإمام الأكبر.

- إن موقف نائب السفير الفلسطيني بتوجيه هذه الدعوة تعتبر خطوة غير مسبوقة ولا تمثل بالضرورة ما تعارفت عليه الدبلوماسية الفلسطينية، إذ أننا نسمع باستمرار وعلى لسان الرئيس عرفات أنه ينادي بالدعوة للصلاة في القدس معاً بعد تحريرها ورفع راية العلم الفلسطيني فوقها، ولم يسبق حتى الآن توجيه الدعوة لأي مسؤول سياسي أو ديني لزيارة القدس في ظل الاحتلال الإسرائيلي وإذا توجهنا باللوم على نائب السفير الفلسطيني في القاهرة الذي صدرت منه الدعوة والتي تعتبر غير مناسبة وفي غير محلها فإننا نوجه اللّوم إلى فضيلة الإمام الكبر لقبوله الدعوة ولو على سبيل الشكليات والمجاملات الدبلوماسية.
- أما لماذا تعتبر دعوة نائب السفير للزيارة في غير محلها؟ فلأنها وجهت بطريقة رسمية لشخصية دينية لها وزنها وثقلها في العالم العربي والإسلامي، وقد جرت العادة أن يعترض الفلسطينيون والمسؤولون العرب على الزيارات التي كان يقوم بها مسؤولون أجانب أثناء زيارتهم لإسرائيل إذا ما دخلوا القدس الشرقية وذلك بحجة أن القدس محتلة وأن هذه الزيارة من قبل المسؤولين الأجانب تعتبر اعترافاً منهم بشرعية احتلالها وقرارات ضمها وتوحيدها وجعلها عاصمة لإسرائيل. ولهذا فإن دعوتنا لشخصيات عربية مرموقة أو دينية مسؤولة لزيارة القدس وهي تحت نير الاحتلال إنما يعتبر ترويجاً يصب في مصلحة اليهود الذي يهتمون بأبرز الجانب الإعلامي للزيارة فيما يتلاءم مع مخططاتهم الجارية لتهويد المدينة المقدسة.
- أما عن موقف أمام الأزهر فضيلة الشيخ طنطاوي من هذه الدعوة وقبولها، فإننا نقف إلى جانب المعترضين على من أصدر هذه الدعوة ونقف إلى جانب المعترضين على فضيلة الإمام الأكبر لقبوله مبدأ الزيارة للقدس في ظل الظروف الحالية وذلك للأسباب التالية:

إن فضيلة الإمام الأكبر يعتبر مرجعية دينية وقدوة للملايين من المسلمين وقبوله الدعوة أو زيارته للقدس قد تفسر اعترافاً منه باحتلالها، فزيارة أي مسلم لا تتم عن طريق إذن السلطة الفلسطينية أو تأشيرة منها، وإنما تتم عن طريق طلب تأشيرة دخول تقدم إلى السفارة الإسرائيلية كما أنه عند قدومه يدخل عن طريق معابر وحدود تسيطر عليها القوات الإسرائيلية وبهذا تكون هذه الخطوة اعترافاً بالاحتلال أولا ثم تعتبر تنقيصاً لكرامة وهيبة المسلمين أن يدخلوا تحت حراب وهيمنة المحتلين ونحن لا نتمنى لإخواننا في الخارج أن يشاركونا في الذل والمهانة التي نلاقيها في ظل الاحتلال، وعند توجهنا للصلاة في الأقصى خصوصاً أيام الجمع ولا نتطلع أن يشاركونا في المعاناة عن طريق نهج اللاعنف، وإنما نتطلع أن يسيروا في الطريق الصحيح لتخليصنا من هذا الذل ومن هذا الاحتلال.

إن فضيلته لم يشر في معرض قبوله للدعوة إلى أنها تلبية لدعوة الرسول ﷺ " لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد" لأنه يعلم أن شد الرحال في ظل الظروف الحالية متعذر وإنما كان جوابه أنه يلبي دعوة السلطة الفلسطينية لأنهم أدرى بمصالحهم وأنه عندما يدعو مسؤول فلسطيني بذلك فلا أستطيع أن أقول له: ماذا تقول وإنما أنا أؤيده فيما دعا إليه، هذا جواب فضيلته على من اعترضه ثم أضاف أنه من المهم أن نلبي الدعوة، أن نلبيها للجهاد أو لغير الجهاد فالذي دعانا أدرى بمصالح شعبه.

وهذا الجواب الدبلوماسي لو صدر عن شخصية سياسية فإنه يعتبر جاهل في مبادئ السياسة والدبلوماسية أما صدوره عن أكبر رمز ديني في مصر وله وزنه في العالم الإسلامي فإننا نعتبره خوار وتثبيط وتراجع في الآراء والمسؤولية وتراجع عن الأمانة والمسؤولية الكبيرة التي هي في عنقه تجاه فلسطين والقدس والمسجد الأقصى المبارك.

ذلك أن فضيلته يعلم أن الدين الإسلامي يقرر أنه إذا احتل أو اعتدي على أرض المسلمين وجب على أهلها مقاتلتهم فإن لم يقدروا على عدوهم وجب على المسلمين مناصرتهم والجهاد معهم وأصبح ذلك فرض عليهم، وفضيلته يعلم أن أهل فلسطين لا قبل لهم وحدهم بمقاتلة اليهود وأن الواجب الديني يفرض على المسلمين مناصرتنا والجهاد معنا من أجل تخليص أرض المسلمين من الاحتلال، فكيف بهم إذا كانت هذه الأرض هي مسرى الرسول ﷺ وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وعدوله عن الدعوة إلى الجهاد بالزيارة تحت ظروف الاحتلال المهينة هي إسقاط للجهاد وتثبيط لهمم المسلمين وهي تنصب في مصلحة العدو ولن ينتفع بها المسلمون أو أهل فلسطين خاصة.

وفضيلته يعلم أن الرسول ﷺ عندما منعه المشركون بعد الهجرة من زيارة الكعبة ومنعوا المسلمين من دخول مكة المكرمة أراد الرسول أن يثبت حق المسلمين في أداء شعائر الله وأنه لم يفاوض المشركين للسماح له بالزيارة وإنما خرج بألف وخمسمائة مسلم متوجهاً إلى مكة حاملين أسلحتهم قاصدين دخولها مهما كانت النتائج، فكان أن حاولت قريش منع المسلمين ولكنها في النهاية قررت مصالحتهم والموافقة على طلبهم على أن يعودوا في السنة القادمة لزيارة الكعبة وأداء العمرة، وكانت نتيجة ذلك عقد معاهدة صلح الحديبية، فكانت خطوة الرسول تأكيداً لحق المسلمين في الكعبة، ولو قسنا هذه الخطوة مع الفارق بأن مكة كانت منذ بدايتها موئلاً للكفر خرج منها رسول الله مهاجراً ثم حاول العودة إليها طالباً حق أداء الشعائر الدينية، فإننا نرى أن اليهود قاموا بمثل هذا الأداء وعادوا إلى القدس مطالبين بإقامة هيكل سليمان واستغلوا ضعف المسلمين واستكانتهم، ولو أن شيخ الأزهر عمل على شحن الهمم وتعاون علماء المسلمين في تذكير المسلمين بحقهم في فلسطين وأكدوا على ضرورة الجهاد والعمل لاستعادة القدس، فإن هذا يصب في

مصلحة القدس، وعليه فلا يقبل منه قوله فليذهبوا للجهاد أو لغير الجهاد المهم أن يلبوا هذه الدعوة لأن هذا يعتبر هروباً من المسؤولية الدينية الكبيرة المطلوبة منه بيانها والمبادرة إلى تجميع المسلمين حول الجهاد واستعادة القدس.

ثم أنني استرجع قصة خروج بني إسرائيل من مصر وتوجههم إلى الأرض المقدسة، وكيف أنهم رفضوا الامتثال لأمر الله : "قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون"[٣]. بل انهم قالوا "يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون". لقد رفض بنوا إسرائيل أمر الله بالدخول لأنهم أرادوا أرضاً بلا شعب وطالبوا موسى أن يتوجه لربه ليخرج القوم الجبارين، فمبدأ قبول الأرض ودخولها مقبول عندهم ولكن مبدأ القتال وإخراج من فيها بالقوة مرفوض لأنهم لا يريدون التضحية والجهاد، وهذا هو حال المسلمين اليوم، يريدون استرجاع الأرض المحتلة ولكن عن طريق القرارات الدولية وعن طريق المباحثات السلمية ويطالبون العالم بإخراج اليهود من الأرض المحتلة، فإذا كان اليهود نتيجة لرفضهم أمر الله بالدخول والمحاربة استحقوا أن يوصفوا بالقوم الفاسقين واستحقوا أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة فإننا نستحق العقوبة والمصائب والعذاب نتيجة رفض أمر الله، وفضيلة الإمام الأكبر يعلم علم اليقين ويفهم مدلول هذه الآيات وله كتاب ضخم عن بني إسرائيل في الكتاب والسنة وعليه التزام إمام الله ورسوله ليبينه للناس فهو أعلم بخفايا ونوايا بني إسرائيل وأعلم بمكائدهم وأساليبهم التي فضحها القرآن. ولهذا لا يقبل منه بهذه البساطة أن يقبل الدعوة للزيارة في ظل هذه الظرف ولا يقبل منه أن يقول فليذهبوا للقدس للجهاد أو لغير الجهاد وهو يعلم أن اليهود لم يحضروا إلى هذه الأرض إلا لسبب ديني وهو عودتهم إلى أرض الميعاد لإقامة هيكل سليمان وإقامة

---

[٣] سورة المائدة آيه ٢٢

دولة إسرائيل انتظاراً لقدوم المسيح وهو يعلم أن الله عز وجل قد ذكر أنه في نهاية الأمر إذا جاء وعد الآخرة فإنهم سيقدمون على دخول هذه الأرض وأن الله وعدنا بالنصر عليهم والرسول ﷺ ذكر أن مقاتلتهم من علامات قرب الساعة ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود.

وإننا نتمنى أن يكون موقف شيخ الأزهر كموقف (العز بن عبد السلام) الذي بادر بالوقوف في وجه المماليك أثناء فتنة غزو التتار وبموقف (الإمام ابن تيمية) عندما حث المسلمين والحكام بالتمترس في بلاد الشام لوقف الزحف المغولي واستطاع إقناع جيش مصر بالحضور إلى الشام لا الانتظار في مصر لقدوم التتار ودخولهم عليها وبموقف علماء الزهر من الحملة الفرنسية والغزو البريطاني والحملات الصليبية على مصر

وإننا نسأل فضيلة شيخ الأزهر

هل زيارته للقدس والصلاة في المسجد الأقصى سوف تزيل كل العقبات التي تضعها إسرائيل في وجه المسلمين من منعهم من دخول القدس والصلاة فيها؟.

هل زيارته ستمنع حملات الاستيطان في المدينة المقدسة أو تهويدها؟.

هل زيارته ستعيد لنا حائط البراق وحارة الشرف وحارة المغاربة وما يسمى بحارة اليهود وتعيد لنا البيوت والأراضي المصادرة في القدس الشريف؟.

هل زيارته ستدفع إسرائيل إلى إلغاء قرارها بتوحيد وضم القدس؟.

هل زيارته ستؤدي إلى رفع القيود المفروضة على سكان القدس بالبناء وتعيد لهم هويّاتهم المصادرة؟.

هل زيارته ستوقف عمليات الحفر التي تقوم بها إسرائيل تحت أساسات وساحات الحرم القدسي الشريف؟.

هل زيارته ستؤدي إلى إخراج الشرطة وحرس الحدود من ساحات الحرم الشريف؟

هل زيارته ستؤدي إلى إبعاد المتطرفين عن محيط الحرم وتغلق المدارس الدينية المنتشرة حول الحرم وتعيدها إلى الأوقاف الإسلامية؟

هل زيارتهم ستؤدي إلى شطب فكرة بناء الهيكل وهدم المسجد الأقصى المبارك من مخيلة اليهود؟.

إن أهل فلسطين يتطلعون إلى إخوانهم في العالم العربي والإسلامي أن ينتفضوا كما انتفض الفلسطينيون ضد الاحتلال وأن يعملوا إلى تحويل المعركة من دهاليز هيئة الأمم ومفاوضات السلام العقيمة إلى ساحة المعركة الحقيقية وهي (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) وأن يعملوا بقوله تعالى " وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله".

ويتطلعون إلى علماء الأمة وعلى رأسهم فضيلة الإمام الأكبر أن يشحذوا همم المسلمين برفع شعار الدعوة إلى الجهاد والى التمسك بالإيمان في صراعنا مع عدونا لا إلى التمسك بالشرعية الدولية والقشور لأن أمضى أسلحة المعركة هو سلاح الإيمان ولا معنى لصراعنا مع عدونا إلا إذا عادت النخوة والمروءة والجهاد والثأر.

وأن يحثوا المسلمين على التبرع والجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وأن يوحدوا طاقاتهم المالية والسياسية والعسكرية لاستعادة مسرى رسول الله ﷺ.

وأن يتوقفوا عن إطلاق الشعارات الفارغة وإصدار البيانات الكاذبة والتنديدات الجوفاء، فرب العالمين يقول" يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص".[٤]

---

[٤] سورة الصف الآيات ١- ٤

وفي الختام فإنني أحب أن أشير هنا أن (أبا حنيفة) رضي الله عنه قد ذكر أن البلاد التي يظهر فيها أحكام الكفر والسلطة فيها لغير المسلمين ولا يأمن فيها المسلم أو الذمي في إقامته على نفسه وماله فهي دار حرب، وإننا لا نأمن نحن على أنفسنا من اليهود الذين قتلوا ونكلوا بالشعب الفلسطيني وصادروا أرضه وأملاكه، فكيف بالإمام الأكبر وغيره يأمنون على أنفسهم من دخول دار الحرب، فلا أمان لهم في هذه الزيارة من غدر اليهود، وان الذي حضر جولات المواجهة بيننا وبين اليهود في ساحات الأقصى والقدس وفي ساحات المواجهات اليومية الأخرى الدائرة في الأراضي المحتلة يعلم بأنها ساحات جهاد وبطولة وتضحية ويرى بأن اليهود لا يقيمون أي قيمة للإنسان.

كما أحب أن أشير هنا إلى فتوى لفضيلة الشيخ (ناصر الدين الألباني) رحمه الله حول سؤاله عن دار الحرب التي يعيش فيها أهل فلسطين تحت الاحتلال فيها، فقال إن على أهل فلسطين أن لا يعيشوا في دار الحرب وأن يهاجروا إلى دار الإسلام استدلالاً لقوله تعالى "إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا " [٥] .

ولقوله ﷺ أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين.

قال السيوطي "إنما كره مجاورة المشركين لأنهم لا عهد لهم ولا أمان ولهذا حث المسلمين على الهجرة .وفي الآيات دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه أما إذا كان المسلم قادر على الهجرة مع قدرته في نفس الوقت على إظهار دينه دون خوف الفتنة فيصبح الأمر بالهجرة على سبيل الندب لا على سبيل الفرض.

---

[٥] سورة النساء آيه ٩٧

وقد اعترض على الشيخ الألباني أهل العلم وبينوا خطأ رأيه وضيق الرؤية نتيجة قياسه مع الفارق بين ما تعنيه الآية وما يقصد الرسول ﷺ في حديثة الشريف وما هو عليه الوضع الآن في فلسطين لأنه على ما تقدم من فتوى الألباني رحمه فلا يبق أي مسلم في فلسطين ولا في روسيا ولا في الهند وفي أوروبا وأمريكا ولا في الدول الإفريقية التي يحكمها غير الإسلام ويعتبر فيها المسلمون من الأقليات ومجموع هذه الأقليات المسلمة في دول العالم حوالي أربعمائة مليون مسلم.

وفي الختام أقول ما قاله الشيخ (جمال الدين الأفغاني) لو كان المسلمون ذباباً يطن في آذان أعدائهم الإنجليز لأدى ذلك إلى خروجهم من ديار المسلمين، فنحن لا نريد من المسلمين أن يكونوا ذباباً يطن في آذان اليهود، ولكننا نريد منهم أن يرتقوا إلى مستوى المسؤولية ويعملوا على توحيد الصفوف ونبذ الفرقة والأنانية ويعتصموا بحبل الله جميعاً والله لن تعود فلسطين إلى حظيرة الإسلام إلا اذا عاد المسلمون إلى حظيرة الإسلام وقاتلوا تحت راية لا اله إلا الله محمد رسول الله تحت راية دينية كما يقاتل اليهود تحت راية دينية ويجتهدون الآن في أرض فلسطين تحت راية التوراة وإقامة الهيكل.

* * * * *

الندوة الرابعة*

العهدة العمرية

الأب الدكتور مارون لحام**

السياق التاريخ

أمران مهمان يميزان السياق التاريخي للعهدة العمرية

- حالة حرب بين المسلمين والروم
- طرفان أحدهما غالب والآخر مغلوب

لا شك بأن العهدة العمرية مليئة بالإيجابيات وهي:

الإيجابيات

قديما (نحن في القرن السابع للميلاد) نادرا ما كان الغالب يعطي الأمان للمغلوب ويتعهد بكل ما تتعهد به العهدة العمرية. لذلك تشكل العهدة العمرية حدثاً جديداً في تاريخ العلاقات بين الشعوب لا يمكن تجاهله أو التقليل من أهميته.

بقيت العهدة العمرية في التاريخ الطويل بين المسيحيين العرب والمسلمين العرب مرجعاً لكلا الطرفين ، للمسلمين في الدعوة إلى التسامح وحسن المعاملة، (تشكل ذاكرة تاريخية أو حتى مقياس تاريخي) بسبب المقام الرفيع الذي يتمتع به الخليفة عمر بن الخطاب، كما بقيت مرجعاً للمسيحيين عندما كان بعض الخلفاء:

---

* قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٢٨ شباط ٢٠٠١

** رئيس المعهد الإكليركي- بيت جالا.

نهاية الخلافة العباسية والفاطميون والمماليك والأتراك يضيقون الخناق على المسيحيين.

أية عهدة ؟

يجب المعرفة عن أية عهدة نتكلم، تاريخياً، هناك أكثر من عهدة:-

- اقدم نص للعهدة الأصلية يعود إلى القرن العاشر (٣ قرون بعد كتابتها)، ومع ذلك لم يتغير مضمونها نستطيع القول أن نص العهدة العمرية الأصلي والمذكور في تاريخ الطبري) نص اصلي في مجمله.
- هنالك نص الشروط، وهي الالتزامات التي يقول مسيحيو القدس أنهم اتخذوها على أنفسهم تجاه المسلمين (مذكورة في كتاب عارف العارف). هذا النص ليس من عمر ولا من زمن عمر، فالشروط بمجملها مستحلية تاريخياً (لأنها تتضمن تعابير وإجراءات لم تظهر إلا فيما بعد- الجلوس والسير وطريقة اللبس-) إضافة على أنها لا تذكر الجزية، وهو أمر مهم في الشروط التي كان الإسلام يضعها على الشعوب المغلوبة، ومستحيلة نفسياً، لأن عمر بن الخطاب المعروف بسماحته وسعة قلبه لا يمكن أن يلزم مسيحي القدس بشروط مذلّة إلى هذا الحد.
- ثم هناك نصوص أخرى من العهدة تعود إلى الحقبة التاريخية التي كان فيها الروم واللاتين يتنازعون فيها على ملكية الأماكن المقدسة (القيامة وكنيسة المهد وإلخ) ، لا سيما في العهد التركي، فكان البخشيش هو سيّد الأمر، وظهرت نصوص مختلَقَة عن "العهدة" تذكر أن عمر بن الخطاب عهد إلى "الملة الفلانية من المسيحيين (الروم واللاتين ملكية كنيسة القيامة أو غيرها من الكنائس). هذا أمر مستحيل، لأن لفظ "ملة" أساساً اختراع عثماني.

ما هو موقف مسيحي اليوم من العهدة؟

لا بد أن الموضوع نوقش بين مختلف الكنائس لاتخاذ موقف موحد يشكل مرجعاً، كما حدث مثلاً في موضوع القدس (مذكرة عام ١٩٩٤)٠ ما سأقوله يشكل رأياً خاصاً، أعتقد- لست جازماً- أنه يمثل على الأقل رأي الكنيسة الكاثوليكية التي أنتمي اليها٠

لا شك أن روح العهدة أمر يجب المحافظة عليه، فهو كما ذكرت في البداية ينم عن تسامح كبير وروح منفتحة وقبول بوجود الآخر وحقه في العيش كما يؤمن وكما يريد أن يعيش، حتى لو كان مغلوباً ثم إن مرجعية العهدة العمرية (تاريخياً ومعنوياً وعلاقاتيّاً) يشكّل بالنسبة للمسيحيين والمسلمين على السواء أمراً في غاية الأهمية ويرتاح إليه الطرفان إلى اليوم بشكل عام٠

من ناحية أخرى، لا يمكن القبول بتطبيق العهدة العمرية – التي تعود إلى القرن السابع- حرفياً في القرن الحادي والعشرين٠ لذا نحن نعتقد أنه يجب المحافظة على روح العهدة العمرية وتطبيقها على الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية والدينية الحالية٠ وفيما يلي بعض الظروف التي نرى أنها اختلفت والتي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في موضوع "العهدة العمرية"

- لم تعد المعادلة بين المسلمين والروم، بل بين فلسطينيين (أو عرب بالمعنى الأوسع) مسلمين ومسيحيين٠ نحن إذا في إطار مواطنة وهي حق غير منقوص للمسلم والمسيحي على حد سواء، دون أي اعتبار للدين أو العرق أو المنبت٠ هنا تُطرح أسئلة شائكة حول الدولة الإسلامية ووضع "غير المسلمين" في الدولة الإسلامية ومفهوم الذمة ومرجعية المواطنة وصفات الحاكم الخ....
- لم يعد الظرف التاريخي ظرف غالب ومغلوب، الظرف الحالي هو تحدّ تاريخي للشعب الفلسطيني والعربي بشكل أوسع في العيش معاً كشعب واحد، ينتمي

أفراده إلى اكثر من دين، بغض النظر عن النسبة العددية في سياق تعددية دينية سليمة، لا يضمن فيها أحد حقوق الآخر، ولا يتعهد بشيء ولا يسهر على شيء ولا يعد شيئاً. كما لا يطلب أحد حماية أو امتيازات، لأن الدستور يضمن حقوق الجميع من جهة، ولأن كل ما ذكر يتمتع به كل مواطن بحكم مواطنته من جهة اخرى.

أخيراً

إن كان السؤال هو: هل يقبل مسيحيو اليوم العهدة العمرية؟ الجواب هو: نعم يقبل مسيحيو اليوم روح العهدة العمرية في لباس اليوم.....!

* * * * *

الندوة الخامسة*

العهدة العمرية وبُعدها الحضاري

د. مصطفى أبو صوي**

مقدمه

إن الحديث عن العهدة العمرية لا يعد من باب الترف الفكري، ولا يهدف إلى إعادة بعث الماضي، ولكنه محاولة لفهم خطاب العهدة في إطار سياقها الزماني ولفهم إيحاءاتها السياسية بالنسبة لعلاقات المسلمين بأهل الكتاب عموماً وفي فلسطين على وجه الخصوص.

ويجب أن نذكر في البداية أن هذه الورقة تتعامل مع نص العهدة العمرية المتداول (ملحق ١) وهو رواية (الطبري) دون الولوج في إشكالية تاريخية النص، سواء كان هذا هو النص الذي على وجه الحقيقة كتب في ذلك الزمان أو كانت هناك نسخ أخرى، ليس هو موضوع الورقة، إنما في ذاكرة الفلسطينيين أن هنالك نص متداول وهو الذي أتحدث عنه في هذه الواقعة، ولا أستبعد أن يكون هنالك من يأخذ بها بهذه العهدة من المسلمين على ظاهرها على أن المستقبل يجب أن يعبر عن هذه العهدة كما هي عليه، أما بالنسبة للعلماء والمفكرين المسلمين فإجمالاً ينظرون إلى علاقات المستقبل كنوع امتداد لروح العهدة وليس بحرفيتها، والمسيحيون منا أهل فلسطين على وجه الخصوص وإن كانوا يحتفون بها، إلا أنهم يتطلعون إلى علاقات مستقبلية قائمة على نموذج الفصل – ديني، والذي يسمى عادة بالعلماني، على أساس أن

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٢٨ شباط ٢٠٠١

**مدير مركز الأبحاث الإسلامية – جامعة القدس

الأنموذج الأخير يحقق المساواة المطلقة على الأقل نظرياً، ويشاركهم في ذلك كثير من "المسلمين"، أفراداً أو مؤسسات من أصحاب التوجهات الفصل- دينية الذين انسلخوا عن الأنموذج الإسلامي لعدم إحاطتهم بأصوله وفروعه، والسبب الرئيس في هذا هو الحالة الانهزامية السائدة تجاه الغرب والشعور بالنقص الذي أدى منذ حملة نابليون على مصر إلى ذوبان عجلة الذات وهي تسرع في طريق التغريب مما أدى إلى وجود فجوة كبيرة بين الفصل- ديني من جهة وأصحاب الأسلحة من جهة أخرى، وبالتالي فإن الذي قصر فهمه عن تصور التكامل والترابط العضوي في الأنموذج الإسلامي لن يستوعب إمكانية تنزيله على أرض الواقع، وقد يشتط به الأمر إلى محاربة مثل هذا التنزيل كما تدل الوقائع التاريخية.

وليس العيب في التطلع إلى نظام حياه أمثل يحقق للإنسان العدالة الاجتماعية ويحميه ويحافظ على مقدراته ويكون حراً في ممارسة حقه المشروع في العبادة، وبالتالي يعيش آمناً مطمئناً على نفسه ودينه وعرضه وماله، ولكن العيب يكمن في اختزال دور الدين وتحجيمه حتى يتقوقع في دائرة الحياة الخاصة أو في أفضل الأحوال يحكّم في الأحوال الشخصية، مما يصطدم مباشرة مع شمولية الإسلام وتصوراته الكلية للإنسان والكون والحياة.

وقد جاء الأنموذج الإسلامي المبني على الوحي بمجموعة من القواعد للتعامل مع الغير، وعلى وجه التحديد مع أهل الكتاب، ومن أهم هذه القواعد الحق الراسخ في حياة دينية واجتماعية بحسب شرائعهم ضمن ما أسميه تعددية وجوديه دون المساس بالحياة العامة والفضاء العام الذي يحتكم إلى الشريعة الإسلامية، ودون أن يكون هناك إيحاءات بنسبية الحقيقة.

فالأصل في التعامل مع الغير هو حالة السلم، والحرب تعتبر حالة استثنائية مؤقتة، ففي حالة السلم يحترم حق الكتابي في الحرية الدينية، قال تعالى:"لا إكراه في الدين

قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم"[1].

ولذلك لا يستغرب الوجود المسيحي في فلسطين بعد تعايش دام أكثر من أربعة عشر قرناً مع المسلمين، فلولا الحرية الدينية التي نتحدث عنها لاختفى المسيحيون اختفاء المسلمين من الأندلس جرّاء الاضطهاد الديني، ومن حقوق أهل الكتاب أن يكونوا أهل ذمة وعهد، وهو من الحقوق التي يساء فهمها في الغالب، فمن حق الكتابي أن يكون في ذمة الله، وهنالك بعد ديني واضح يلعب دوراً مهماً في تحقيق معنى الذمية، وهنا يجب أن نوضح بأن تطبيع العهد مع الكتابي هو واجب ديني، ولذلك فإن الخطاب السياسي الفصل- ديني يقصي الشعور الديني وينحيه جانباً، وقد استثمر مثل هذا الخطاب كل أسهمه في مفهوم المجتمع المدني الذي تنظم علاقاته مواد دستوره، ويبقى السؤال: ما الذي سيدفع الإنسان إلى احترام الدستور؟ فإذا كان الجواب يكمن في قوة ردع السلطة فهذا يستدعي إعادة النظر في مثل هذه الفلسفة القانونية!.

إن استبعاد الشعور الديني والخلفية الدينية سيؤدي في المحطة النهائية إلى اختزال مكانة أبناء الأقليات، إن مثل هذا الطرح لا يعني أبداً عدم استحداث قوانين تحمي الجميع، وإن يكون هنالك دستور واضح، ولكن الذي نرمي إليه هو تقنين مبني على التصور الإسلامي ولا أظن أن هذا سيحصل في مشروع الدستور الفلسطيني الذي اختزل مكانة الشريعة الإسلامية إلى مصدر من مصادر التشريع.

ويبقى الرصيد الحقيقي هو الذاكرة الجمعية للمسلمين اللذين يستشعرون المعاني العظيمة لعهد الذمة، وأما فشل الكثيرين من المسلمين والمسيحيين على حد سواء في رؤية أهمية الخطاب الديني الإسلامي وإيجابيته فيعود ذلك كما أسلفنا إلى التغريب

---

[1] سورة البقرة الآية ٢٥٦

على مستوى الأفكار والذي استفحل أمره حتى وصل إلى نوع من الردة الثقافية لا تخلوا منها بقعة في العالم الاسلامي.

العلاقة مع بيت المقدس

لن أفصّل هنا كل ما يتعلق ببيت المقدس، فهذا يحتاج إلى بحث خاص، ولذلك سأكتفي ببعض الإشارات للارتباط العقدي بالأرض المقدسة عموماً وببيت المقدس على وجه الخصوص. لقد ارتبطت الديانات السماوية وأنبياؤها بالأرض المقدسة، فمن الأنبياء من ولد بعيداً عنها ثم آل أمره إليها مثل إبراهيم ولوط عليهما السلام، ومنهم من ولد فيها وانتقل إلى غيرها مثل يعقوب ويوسف عليهما السلام، ومنهم من ولد فيها ورفع منها مثل عيسى بن مريم عليهما السلام.

وهكذا ظل الارتباط بالأرض المقدسة بصورة أو بأخرى، سنة الله سبحانه وتعالى في الأنبياء إلى أن ختمت النبوة بأخيهم رسول الله محمد ﷺ والذي كان من أمره أن أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى، وقد سجلت سورة الإسراء تلك الحادثة في أول آية منها، قال تعالى { سبحن الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير}. صدق الله العظيم

فكان الارتباط بالأرض المقدسة والمسجد الأقصى على مستوى العقيدة وقبل أن يدخلها المسلمون تاريخياً في زمن عمر بن الخطاب الخليفة الثاني ﷺ والذي لم يخرج من أجل أي مدينة أخرى غير بيت المقدس لمكانتها في العقيدة الإسلامية والتي أكد عليها إلى جانب الآيات القرآنية، أحاديث كثيرة تحدثت عن فضائل المسجد الأقصى وبيت المقدس والأرض المقدسة.

العهدة العمرية

وقد كان دخول المسلمين إلى بيت المقدس مثلاً يضرب في الحفاظ على حرمة حياة أهل هذه المدينة من المسيحيين مقارنة بما فعله الفرنجة (الصليبيون) بعد خمسة قرون تقريباً من الفظائع والمذابح، وقد سجل مؤرخوهم قتل عشرات الألوف من المسلمين، وقد ظلت ذكرى تلك المذابح تعود إلى الذهن كلما جاء الحديث عن العلاقة بين الإسلام والغرب، وما ينضوي تحت لواء الغرب من تقسيمات إذ لا يمكن اختزاله إلى كل واحد، ويمكن الحديث هنا عن أعمال عمر بن الخطاب ﷺ في بيت المقدس وعن العهدة العمرية والارتباط بينهما، فقد ورد في العهدة أنه أعطاهم الأمان لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم ولحريتهم الدينية، وعلى صعيد التطبيق العملي فإنه حينما دعي عمر بن الخطاب للصلاة في كنيسة القيامة تنحى جانباً وصلى غير بعيد خارج الكنيسة حفاظاً على خصوصية أماكن العبادة، فاحترام الآخر لا يعبّر عنه بالصلاة في مكان عبادته، سواء كان ذلك كنيس أو كنيسة أو مسجد، بل العكس هو الصحيح، أن يترك كل منا الآخر وشأنه، والأدهى من ذلك استباحة مكان الآخر أو حرمانه من الوصول إليه كما هو الحال مع الاحتلال اليهودي الصهيوني الذي يمنع المسلمين من الضفة الغربية وقطاع غزة، بل وأيضاً من القدس من الوصول إلى المسجد الأقصى كما حصل مؤخراً في انتفاضة الأقصى التي لم تنته بعد بسبب ممارسات الاحتلال والتي منها أيضاً انتهاك حرمة المسجد الأقصى بقتل الأبرياء فيه، وكذلك الأمر بالنسبة للفلسطينيين المسيحيين القاطنين في الضفة الغربية وغزة منهم أيضاً يحرمون من الوصول إلى كنائسهم في القدس وبيت لحم.

وهذا الجزء من العهدة العمرية والذي يتعلق بحرية التدين والحفاظ على كنائسهم وأموالهم وقبل ذلك على أنفسهم يتفق مع القرآن والسنة النبوية.

وهنالك جزء يتعلق بعدم مجاورة اليهود لهم في بيت المقدس: "ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود"

وأما عن مدى انسجام هذا الجزء من العهدة العمرية مع القرآن الكريم والسنة النبوية، فلا يوجد فيها ما يقول بعدم السماح لليهود للسكن في بيت المقدس إذ لا يعتبر هذا مطلباً إسلامياً في حدّ ذاته، وليس الأمر إلا إفرازاً للظروف الموضوعية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

على أن القول بالسماح لهم بالوجود في بيت المقدس لا يعني بأي حال من الأحوال إضفاء الشرعية على اغتصاب اليهود للأرض والمبنى وطرد الساكن الشرعي المسيحي أو المسلم، سواء تم ذلك خلال حرب عام ١٩٤٨، أو حرب ١٩٦٧ .

وأما ما يتعلق بدفع الجزية فهو يتفق مع القرآن الكريم والسنة النبوية، وعمر بن الخطاب ﷺ الذي أخذ من أهل الكتاب المقتدرين رد بعضه على فقرائهم والبقية الباقية لخزينة الدولة ليخدم جميع أبنائها، ومن هذا المنطلق قد يقوم مقامها الخدمة في بعض مؤسسات الدولة للقادر على ذلك، ويعفى منها من لا يستطيعها، متذكرين أن المسلم يدفع الزكاة، زكاة المال وزكاة الفطر...الخ.

وآخر جزء يتعلق بحقيقة العهدة العمرية، وهي وإن كان عمر بن الخطاب ﷺ طرفاً فيها فإنه اعتبر ذلك مجازاً وأنه على وجه الحقيقة هي عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، ولا يخفى إشكالية مصطلح "الذمي" على أهل الكتاب كما يعبّر رجال الدين عندهم ومثقفوهم باستمرار. وهذا المصطلح ينطبق على المسلمين في حالات منها أنه إذا صلى المسلم صلاة الفجر جماعة فهو في ذمة الله، بل إنني اشعر بدفء هذا المفهوم وبالأمان الذي يرتبط بوجودي في ذمة الله.

وأما المقابل لهذا المصطلح فهو أن يكون المرء في ذمة الدولة الفصل- دينية والتي تختزل من ناحية عملية قدرة أبناء دين معين على إيصال مطالبهم إلى مسامع الدولة

والى قدرتهم على تحصيل تلك المطالب إلى عدد أصوات ناخبيهم (هذا إذا كانت لها تأثير مثل الأنظمة النيابية)، وبالتالي يختزلون إلى "أقلية" زادت حقوقها إن زادت ونقصت إذا نقصت.

وختاماً، تظل العهدة العمرية راية خفاقة تعبر عن عدل الإسلام وتسامحه مع الغير، آخذين بعين الاعتبار أن المثل الأعلى والمصدر المطلق هو الوحي المتمثل في القرآن وما لحق به من السنة النبوية الصحيحة، وإنما العهدة العمرية تعبر عما فهمه عمر بن الخطاب ﷺ من هذين المصدرين الأساسيين للتشريع، وقد صح فهمه، وأما الإجماع والقياس فيعتمدان أصلاً عليهما.

وتلك الروح المحافظة والحريصة على النسيج الاجتماعي بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب في حال السلم ستبقى سائدة لأنها تغذى بالقرآن الكريم والسنة النبوية أبداً.

ونختم بذكر احتفاء الكنيسة الأرثوذكسية بالعهدة العمرية، فقد قام مؤخراً الملك عبد الله الثاني ملك الأردن بمنح الجنسية الأردنية للإرشمندريت عطا الله حنا حيث اعتبر أبناء الكنيسة الأرثوذكسية هذا الموقف امتداداً للعهدة العمرية وقد جاء ذلك في خطاب كليل المديح "لسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ"

* * * * *

ملحق رقم ١

العهدة العمرية

هذا ما أعطى عبد الله: عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين

إذا أعطوا ما عليهم من الجزية.

شهد على ذلك

خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان

وكتب وحضر سنة خمسة عشرة.

الندوة السادسة*

العُهدَةُ العُمَريَةُ بَين القبول والرد
دراسة نقدية

د. موسى إسماعيل البسيط**

مدخل

يعود تاريخ القدس الإسلامي إلى فجر دعوة التوحيد التي أتى بها إبراهيم عليه السلام، فكانت فلسطين مُهاجِرَه، ومن ثم توالى الأنبياء على بيت المقدس حتى جاء خاتمهم محمد ﷺ الذي أسرى به ربُه من مكة ليؤكد ارتباط القدس وأرض فلسطين بأرض الإسلام كلّها وبمكة .

ثم كان "الفتحُ العمري" لبيت المقدس صلحاً لتدخل فلسطينُ من جديد في حوزة الإسلام ولتكون القدسُ أمانةً في عنق الأمة الإسلامية .

ولقد وادع الخليفة عمر أهل القدس " **بالعهدة العمرية**" وما فيها من شروط من الفاتحين حَمَلَة الهداية ودعاة الحضارة، وفي المقابل من أهل البلاد وعلى رأسهم صفرونيوس الذي أبى إلا أن يسلّم المدينة لعمر، وعمرُ أعلى مرجعية في الأمة آنذاك، وهذا الموقف الذي سجله التاريخ لصفرونيوس كان شعوراً منه بالمسؤولية تجاه خصوصية المدينة الدينية، فَمَنْ غيرُ عمر يحفظ الأمانة، ويرعى الذمّة ويلتزم بالعهد؟. ومن غيره يضمن الحقوق ويُحق العدل ؟ ولقد تحقق ذلك في أحسن صورة .

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٢٨ شباط ٢٠٠١

**الأستاذ المشارك في كلية الدعوة وأصول الدين/جامعة القدس
عميد كلية الدعوة والعلوم الإسلامية / أم الفحم

إن "**العهدة العمرية**" وهي تُبرز عدالة الإسلام وإشراقه، تعرّضت من بعض الدارسين -عرباً ومستشرقين- لحملة من التشكيك فتعددت حولها الآراء بين مثبت للعهدة وحاكم عليها بالوضع والتزوير .

ومن جانب آخر فقد تعددت روايات العهدة، وزاد في حملة التشكيك مزْجُ المشككين بين "**العهدة العمرية**" وبين تلك "**الشروط**" المنسوبة إلى عمر بما يعرف **(بالشروط العمرية)** في كيفية التعامل مع أهل الذمة. إزاء ذلك كله، وإدراكاً منا لأهمية هذه "العهدة"، وسعيا إلى تجلية الأمر رأيت أن أعرض آراء المشككين وشبهاتهم، وأعرض روايات العهدة والشروط العمرية مبيناً ما يصح نسبته لعمر وما لا يصح.

ومع أننا لا نشترط في رواية موضوعات التاريخ كلها ما نشترطه لرواية الحديث النبوي، إلا أنني أخضعت سندَ "العهدة" ومتنَها وأصولَها وروايتها للدراسة النقدية، لأن موضوع "العهدة" له صلته بالسنّة وبالعصر الراشدي، وأتْبَعْتُ ذلك كله بانعكاسات العهدة العمرية وآثارها الإيجابية على الواقع الاجتماعي والسياسي، الأمر الذي كان له أبعاده الحضارية العظيمة.

ماهية العهدة العمرية

العهدة، مأخوذة من العهد، وهو الأمان، وكذلك الذمة.

والعهدة العمرية أو العهد العمري، أو عهد عمر، منسوباً إلى عمر بن الخطاب، وهو عقد الصلح الذي أبرمه عمر مع سكان بيت المقدس، فدخلت به المدينة المقدسة ضمن السيادة الإسلامية العربية .

المشككون بالعهدة العمرية وشبهاتهم:

تعددت روايات العهدة العمرية، وأثيرت حولها الشبهات والشكوك، وممن وجدناه يشكك بالعهدة العمرية كاتبُ الموسوعة الفلسطينية الذي يرى أن "العهد" تطور تاريخياً من صورة مختصرة إلى نص تكثر فيه الشروط، إلى أن وصل إلى ما يُعرف بالشروط العمرية، وكأن جانباً كبيراً من العهدة قد زِيدَ فيها مع مرور الزمن، أو أضيفت إليها تفصيلات لم تكن في الأصل[١].

ويطعن (عبد العزيز الدُوري) في شروط العهدة العمرية، ويرى أن الروايات المبكرة تشير إلى أن الصلح كان يتوافق مع عقود الصلح مع المدن الأخرى في سوريا، غير أن صلح بيت المقدس تطور في مضمونه، إذ يعطي سيف بن عمر إضافات مهمة، بأن لا تُسكن كنائس بيت المقدس، ولا تُهدم ولا يُنتَقص منها، ولا يُكرهون على دينهم ولا يَسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، ويرى أن هذه التفصيلات لا تنسجم مع اتجاه عقود الصلح في ذلك الوقت، بل هي صدى لنزعات متأخرة، ويرى أن الإشارة إلى اليهود لا تجد لها تأييداً في المصادر العربية، وأن الوحيد الذي يذكرها هو (ميخائيل السرياني) المتوفى سنة ٩٦ [٢]

ويصل الدُوري إلى خلاصة بشأن نص العهدة العمرية هي: "أنّ نصها تطور ليشمل شروطاً لا صلة لها بزمن الفتح العمري، وأن النص تعرض لصياغات شرعية قابلة للتوائم مع متطورات جديدة"[٣]

---

[١] الموسوعة الفلسطينية، الطبعة الأولى، دمشق هيئة الموسوعة الفلسطينية (١٩٨٤) ص٣٣٨ - ص٣٣٩

[٢] Abdul Aziz Duri "Jerusalem In The Early Islamic Period : ٧ TH –١١TH -٢ CEN turies AD in K. J Asali (editor) Jerusalem in History (ESSEX Scorpion Publishing Ltd ١٩٨٦) PP ١٠٥-١٢٥

[٣] المصدر السابق ص ١٠٦

وقد حذت حذو الدوري فيما ذهب إليه علي بن إبراهيم عجين في الخلط بين العهدة العمرية والشروط العمرية وسارع إلى نقد سند العهدة في أول أسطر الدراسة قائلاً: "لقد أوردت كتب التاريخ وكتب الفتوح نص العهدة العمرية دون ذكر إسناد لها، إلا ما كان من تاريخ الطبري حيث أوردها بإسناد منقطع ولا تقوم بها حجة ولا يجوز نسبتها إلى أمير المؤمنين".

ثم عجّل الباحث إلى توجيه النقد لمتن العهدة بهدف نقضها قائلاً :" فشرْطُ عدم سكنى اليهود بيت المقدس دخيل على العهدة، إذ كيف يوافق عليه عمر خاصة وأن هذا الشرط ليس له أصل شرعي، فالنصارى واليهود أهل كتاب لا تمييز بينهم من الناحية الشرعية، ولم يُؤْثر عن عمر أنه أخرجهم من القدس، فيغلب أن يكون هذا الشرط من زيادات النصارى.

ومن ناحية أخرى فثمة تناقض في شرط إخراج الروم، فكيف يَشترِط إخراجهم ثم يخيّرهم بعدُ بين الخروج وبين الإقامة مع دفع الجزية. ثم في قوله: ومن كان فيها – أي في المدينة– من أهل الأرض قبل مقتل فلان دون ذكر الاسم ودون ذكر التاريخ، في ذلك غموض يجعل من العسير تنفيذ الاتفاق، فلا يمكن تحديد من ينطبق عليهم هذا الوصف، ويستحيل أن يكون هذا نصاً في معاهدة ملزمة [٤].

وفي سبيل الوصول إلى نتائج علمية منصفة، **لا بد لنا من دراسة متأنية ودقيقة نتناول فيها مختلف روايات العهدة العمرية**، ولا بدّ لنا من إخضاعها للنقد، ودراستها من حيث الإسناد وثبوت النص وتحليل متن العهدة .

---

[٤] العجين، علي إبراهيم، **العهدة العمرية**، دراسة نقدية، بحث منشور في مجلة الحكمة العدد العاشر ص٦٧– ص٧٥

فما هي روايات العهدة العمرية ؟ ما أصولها ؟ وأي هذه الروايات أكثر ثبوتا ومصداقية ؟ وهل العهدة العمرية والشروط العمرية شيء واحد؟ وهل انسحب قانون التطور على العهدة العمرية حتى دخلها ما دخلها من شروط ليست منها ؟

سنقف للإجابة عن كل هذه الأسئلة بحول الله تعالى

جُمَلٌ من العهدة في كتب التاريخ الأولى

إن نظرة في مصادرنا التاريخية الموثّقة تنبؤنا عن صلح عمر مع أهل إيلياء، وأنه كتب لهم كتاباً أمّنهم فيه وأقرهم على الجزية، ونجد جُمَلاً موجزة أو مطولة من صلح عمر. وقد ذكر خليفة بن خياط (ت ٢٤٠) من رواية سالم بن عبد الله قال: "خرج أهل إيلياء إلى عمر فصالحوه على الجزية وفتحوها"[٥] . وفي رواية الوليد بن مسلم (ت ١٩٥): "أن عمر صالح أهل القدس على أن تسير الرومُ وأجّلهم ثلاثة أيام، فمن قدر عليه بعد ثلاث فقد برئت منه الذمّة، وأمّن من بها ففرض عليهم الجزية "[٦]. وذكر الواقدي (ت ٢٠٧) " أن الخليفة عمر كتب لأهل بيت المقدس كتاباً أي عهداً وأقرهم في بلدهم على الجزية"[٧] .

وتوسع مُطهر بن طاهر (ت ٣٥٥) فذكر: "أن عمر صالح أهل إيلياء على أن لا يهدم كنائسهم ولا يجلي رهبانها". [٨] أما ابن الجوزي فيورد مزيداً من التفصيل ؛ أن عمر كتب لأهل بيت المقدس أنه أمنهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم وصلاتهم وبِيَعهم، لا يكلَفون فوق طاقتهم، وأن من أراد أن يلحق لأمنه فله الأمان، وأن عليهم

---

[٥] خليفة بن خياط العصفري، **كتاب الطبقات**، الطبعة الثانية، تحقيق أكرم العمري ص١٣٥

[٦] المقدسي، أبو محمود ابن تميم، **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام**، تحقيق الخطمي (١٩٩٤) ص ١٣٥ .

[٧] الواقدي، محمد بن عمر، **فتوح الشام**، (بيروت، المكتبة الأهلية ١٩٦٦) الجزء الأول ٢٢٨

[٨] المطهر بن طاهر، **البدء والتاريخ** (بغداد، مكتبة المثنى) الجزء الخامس ص١٨٥

الخراج كما على مدائن فلسطين. [٩]، غير أن ابن الأثير يشير إلى أن الصلح كان على الجزية[١٠] . ومصالحةُ عمر لأهل مدينة القدس نصّ عليها ابن أعثم كذلك[١١].

إن هذه المصادر تُجمع على صلح الخليفة عمر، وتورد صيَغاً تعود في أصلها إلى نص العهدة العمرية، ويعني هذا في ميزان النقد، الإجماعَ على أن أصل العهدة ثابتٌ ثبوتاً متواتراً مقطوعاً به [١٢]

النص الكامل للعهدة

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر، أمير المؤمنين أهل إيلياء[١٣] من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصُلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم ولا يُنتقص منها، ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم ولا يُسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوص[١٤]، فمن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم.

---

[٩] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، **فضائل القدس**، (تحقيق جبرائيل سليمان، بيروت ١٩٧٩) ص١٢٣

[١٠] عز الدين علي بن محمد ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت ١٩٧٩)، المجلد الثاني ص ٥٠١

[١١] أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح (حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية) الجزء الأول ص ٢٩٦

[١٢] يراجع في ذلك (خليفة بن خياط ص ١٣٥، تاريخ اليعقوبي ١٤٧/٢، تاريخ الطبري ٣٠٤/٢)

[١٣] "إيلياء" اسم عُرفت به مدينة القدس منذ عهد الرومان حيث بناها أدريانوس وسماها "إيلياء كابيتولينا" وهي مشتقة من "إيليوس" كلمة يونانية معناها "الشمس"، وكابيتول" معناها "المركز". وظل الاسم معروفاً في أوائل الفتح الإسلامي. حتى ذكر في هذه العهدة .

[١٤] اللصوت مفردها اللصت ، بفتح اللام: أي اللص في لغة طيء، وجمعه لصوت . قال صاحب اللسان : وهم أي طيء - الذين يقولون للطّس : طَست .

ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويُخلي بِيَعهم وصُلُبَهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلُبهم حتى يبلغوا مأمنهم .

ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان [١٥]، فمن شاء منهم قَعَدَ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يُؤخَذُ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمةُ رسوله، وذمةُ الخلفاء وذمةُ المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وحضر سنة خمس عشرة "[١٦].

إن هذا النص الذي أورده الطبري ليس من نتاج الروايات المتأخرة، فقد كان معروفاً في القرن الأول الهجري؛ رواه خالد بن معدان (المتوفى سنة ١٠٤)، وعبادة بن نُسيَ (المتوفى سنة ١١٨)، وهما اللذان تبدأ بهما السلسلة عند الإمام الطبري. وكذلك كان النص معروفاً لدى سيف بن عمر (المتوفى سنة ١٨٠) الذي روى قصة الفتح وهو من أصحاب السير وله كتاب في الفتوح، وقد نقل الطبري النص عنه. وهكذا فإن الروايات المتأخرة [١٧] أخذت بالتأكيد عن هذه الروايات المبكرة واعتمدتها ولم تكن من ابتداعها[١٨].

---

[١٥] في إتحاف الأخصا بفضائل الأقصى للسيوطي (٢٣٣) وفي الأنس الجليل (٢٥٣/١) لا نجد عبارة (. قبل مقتل فلان ..) إنما نصها: (ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد ..) النص كاملاً. وبذلك يستقيم المعنى.

[١٦] محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الأمم والملوك** (بيروت ١٩٨٥) المجلد الثاني ص٣٠٤، وراجع إتحاف **الأخصا بفضائل المسجد الأقصى** للسيوطي، تحقيق أحمد رمضان أحمد (١٩٨٢) ص٢٣٢

[١٧] أي ما في "**إتحاف الأخصّا**" للسيوطي (٢٣٢) و"**مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام** " (ص ١٦١)، و**الأنس الجليل** ٢٥٣-٢٥٤

[١٨] سخنيني، عصام، **العهدة العمرية، حقائق التاريخ ضد الافتراضات والشكوك**، بحث منشور في مجلة البصائر العدد (١) المجلد (٣) .

نص مزور للعهدة

وتجدر الإشارة إلى نص آخر للعهدة العمرية، أذاعته البطريركية الأرثوذكسية في القدس، في اليوم الأول من شهر كانون الثاني (١٩٥٣)، وقالوا إنه نسخة من الأصل المحفوظ في مكتبة الروم بالفنار من أعمال استانبول[١٩]. وإن أدنى نظر يقطع ببطلان نسبة هذا النص إلى عمر رضي الله تعالى عنه .

نص العهدة عند اليعقوبي

وبالبحث عن نص آخر للعهدة العمرية وجدنا اليعقوبي يورد رواية هي: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب عمر بن الخطاب لأهل القدس، إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم، ألا تُسكن ولا تخرّب إلا أن يحدثوا حدثاً عاماً"[٢٠]

وهذا النص للعهدة منتقض من وجوه :

أولها: مخالفته لنص العهدة عند الطبري وهو الأوثق سنداً، ثم إن اليعقوبي لا يحرص على ذكر إسناد رواياته، الأمر الذي يستدعي عدم الثقة بنقله، بل لقد اتّهم اليعقوبي بأنه غير ثقة ويكذب كثيراً.[٢١]

ثانيها: أخلى اليعقوبي روايته من ذكر "الجزية" وهو الشرط الذي اتفقت المصادر على ذكره، ثم إنّ أي عقد أبرمه عمر مع أهل الكتاب لم يَخل من ذكر هذا الشرط.

---

[١٩] عارف العارف، **المفصل في تاريخ القدس**، (القدس مكتبة الأندلس ١٩٦١) الجزء الأول ص٩١-ص٩٢

[٢٠] أحمد بن واضح اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، (بيروت ١٩٨٠) المجلد الثاني ص١٤٧.

[٢١] شراب، محمد محمد حسن، **بيت المقدس دراسة تاريخية موثقة** (دار القلم دمشق) ص٨٨، وانظر أيضا دلائل كذب اليعقوبي في مخالفته إجماع المؤرخين حين نسب بناء قبة الصخرة لعبد الملك وأكاذيبه حول ذلك، انظر الصفحات ٣٢٢-٣٢٦ .

ثالثها: قوله: "إلا أن تحدثوا حدثاً عاماً .. " فيه شبهة، فأماكن العبادة لا تهدم إذا أحدث أهلها المعاهدون حدثاً، ووصية الصحابة للفاتحين ألا يتعرضوا للرهبان في صوامعهم، وقد ذكر اليعقوبي اسم عمر دون لقبه (أمير المؤمنين) لأن اليعقوبي لا يقر لعمر بالإمارة[٢٢]

النقد لمصدر العهدة العمرية

وفي سبيل التوثيق والتأكيد التاريخي للعهدة العمرية، وفي ضوء ما سبق من عرضٍ لروايات ونصوصِ العهدة، فقد وقع الاختيار على نص الطبري -وهو الأشهر والأضبط- لدراسته ونقده سنداً ومتناً وفْق المناهج العلمية في نقد الروايات. وتجدر الإشارة إلى أن المنهج الذي سار عليه المحققون في التاريخ الإسلامي تأثر تأثراً كبيراً بالمنهج النقدي عند المحدثين، الذين نصبوا موازين دقيقة لنقد روايات الحديث والسيرة وتمييز صحيحها من سقيمها. على أننا في تحقيق الروايات التاريخية لا نذهب بعيداً فنطمع بما نطمع به في تحقيق الروايات الحديثية، إذ أن الدارس المحقق لكل رواية حديثية يجد رصيداً ضخماً من جهود العلماء والنقاد بما يُعرف بعلوم الحديث والجرح والتعديل، ما لا يجده في تحقيق الرواية التاريخية.

ولقد وجدنا المؤرخين والإخباريين يتساهلون في قبول الرواية التاريخية على الرغم من أن فيهم من يشتغل بالحديث ويجمع رواياته، أمثال الطبري، وابن كثير، وخليفة بن خياط، وغيرهم .

وعليه، فإنه لا يتأتى لنا أن نذهب في كل قصة تاريخية أو حدث فنحاكمه المحاكمة النقدية الحديثية الصرفة، ونحن نعلم أن من الروايات التاريخية والأحداث ما تُغني

---

[٢٢] شراب، محمد محمد حسن، **بيت المقدس دراسة تاريخية موثقة** (دار القلم دمشق) ص٨٨،

شهرته واستفاضته عن البحث في إسناده. ومع ذلك فإن نص العهدة العمرية استقاه الطبري من مصادر تاريخية موثوقة؛ لقد أسند روايته إلى خالد بن معدان[٢٣] وعبادة بن نُسي[٢٤] ، وهما ثقتان مجمع على توثيقهما، وحمل الرواية عنهما سيف بن عمر، وقد كان إخبارياً عارفاً[٢٥] اعتمده الطبري، وروى له كثيراً من المرويات، واعتمده في أكثر من ثلاثمائة موضع من كتابه[٢٦]، وهذا – لا جرم– ينبئ عن وقوعه عند الطبري موقع الثقة والقبول في رواية أخبار الفتوح .

النقد لمضمون العهدة

إن مضمون العهدة العمرية لا يتنافى مع الأسس والمبادئ الفقهية في معاملة أهل الكتاب، وما اعترض عليها أحد من الفقهاء، وإذا دققنا النظر ألفينا أن مرجعية العهدة كتابُ الله وسنةُ نبيه، فالمضمون يشمل جانبين؛ **الأول**، التزام من أهل ايلياء، **والثاني**، التزام من عمر رضي الله عنه، أما التزامهم فدفعهم الجزية وإخراجهم الروم واللصوص من المدينة. ودفْع الجزية شرطٌ تواترت عليه الروايات في المصادر التاريخية، ولا يكاد يخلو منه عهد عاهده رسولُ الله ﷺ أو خلفاؤه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وإخراج الروم واللصوص شرط آخر يدل وجوده في العهدة على مصداقيتها لانتمائه إلى زمن فتح المدينة المقدسة، فلقد كان في

---

[٢٣] خالد معدان بن أبي كرب الكلاعي، أبو عبد الله الشامي الحمصي، تابعي ثقة من أهل الشام، قال: أدركتُ سبعين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، روى له الجماعة، مات سنة ١٠٣، (راجع طبقات ابن سعد ٤٥٥/٧، تاريخ الإسلام للذهبي ١٠٩/٤،تذكرة الحفاظ للذهبي ٩٣/١،تهذيب الكمال للمزي ٨/ ١٦٧)

[٢٤] عبَادة بن نُسَي الكندي، أبو عمر الشامي الأردني، قاضي طبرية، ذكره ابن سعد في الطبقة الثالثة من تابعي أهل الشام وقال: كان ثقة. وسئل عنه أبو داود فقال: لا يُسأل عنه من النبل، مات سنة (١١٨)، (راجع طبقات ابن سعد ٢٥٦/٧، تاريخ خليفة ٣٢٣-٣٤٩، سير أعلام النبلاء للذهبي ٣٢٣/٥، تهذيب الكمال ١٩٤/١٤، تهذيب التهذيب ١١٣/٥).

[٢٥] الذهبي، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، الجزء (٣) ص٣٥٣ .

[٢٦] سخنيني، عصام، **العهدة العمرية**، حقائق التاريخ ص٤٦.

القدس سكانها الأصليين، ووافدون عليها ليسوا من أهلها بل هم من الروم، وكان فيها أهل الأرض من الفلاحين، فالروم الذين وجدوا في القدس في تلك الأثناء ليسوا سكان القدس الأصليين، وإنما تشكّلوا من الحامية العسكرية الرومية ومَن قدم عليها، فلا يتنافى هذا الشرط مع مبادئ الإسلام أيضاً، إذاً الصلح الذي صنعه عمر كان مع سكان القدس الذين آمنوا بدين المسيح قبل أن يؤمن الروم، وهم أهل فلسطين الذين تمتد جذورهم إلى ما قبل الميلاد.

والنص يفرق بين نوعين من الروم: النوع الأول، جنود الروم، والنوع الثاني، الروم الذين جاءوا للعبادة زواراً أو مجاورين، فأمر بإخراج الصنف الأول وخيّر الصنف الثاني بين البقاء ودفع الجزية أو المغادرة .

ونظرة في الجانب الآخر من الالتزامات والشروط من قِبَل عمر رضي الله عنه والفاتحين، والتي ضمنت حماية الحقوق الإنسانية والدينية لأهل القدس. وهي التزامات وشروط تعطي العهدة تأكيداً ومصداقية، وقد روعيت فيها خصوصية المدينة الدينية . على أن عمر سار في هذه الشروط على هدي رسول الله ﷺ، ففي عهد نجران الذي عاهدهم عليه: "**إن لنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبِيَعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُغَيّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته**"[٢٧]

الشرط المثير للجدل هو "منع سكنى اليهود بيت المقدس"

وفي نص العهدة شرط تدور حوله الاعتراضات والتساؤلات، إنه الشرط المتعلق باليهود "ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود".

---

[٢٧] ابن سعد، **الطبقات الكبرى** (ج١ /٣٥٨) وأبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج (بيروت دار المعرفة ص٧٢) .

ماذا يعني هذا الشرط، وما تفسيره؟، قد يراد به، أن الخليفة ضمن لهم هذا الحق، وربما كان تفسيره أنه شرط على أهل إيلياء ألا يسكن معهم أحد من اليهود .والذي أميل اليه، المعنى الأول، وسوف تأتي مرجحات ذلك.

لقد كان هذا الشرط من أبرز دواعي التشكيك بالعهدة، وثارت حوله علامات استفهام كثيرة.

هل حقاً طرد عمر اليهود من بيت المقدس ؟ ولماذا يطردهم وهم والنصارى سواء، أهل كتاب؟ هل يتفق هذا الشرط مع الشريعة الإسلامية ؟ ولماذا لا يكون شرط عدم سكنى اليهود بيت المقدس من إضافات النصارى ؟ لقد شكك أحد الباحثين في هذا الشرط حتى اعتبره "أمراً منافياً للواقع إذ لم يؤكد أن عمر أخرج اليهود من بيت المقدس أو منعهم من سكناها ولا يمكن أن يكون هذا شرطاً في الصلح ولا ينفذه عمر مع ما هو معلوم من احترام المسلمين للعهود والتزامهم بها بدقة "[٢٨]. ولست أدري – وأيمُ الحقّ – لِمَ تثار الزوبعة حول هذا الشرط، وأي غرابة في اشتراطه في وثيقة صلح بيت المقدس، وعلى أيّة حال، فحريّ أن نكشف خلفية اشتراط عدم سكنى اليهود بيت المقدس، ونبحث عن مسوغات ذلك، ثم نترك للقارئ اللبيب الحكم بنفسه على أصالة هذا الشرط في نص العهدة أو اعتباره دخيلاً عليها .

أداة التنكيل

لقد دارت الحرب الفارسية البيزنطية ما بين (٦١٤-٦٢٧ م)، تغلب فيها هرقل ملك الروم وطرد الفرس من المناطق التي اجتاحوها، وانتهت الحرب بموت (كسرى ابرويز) وهو المعروف (خسرو الثاني)[٢٩]. وساهم اليهود في هذه الحرب أيما

---

[٢٨] الدوري، عبد العزيز، مصدر سابق .

[٢٩] أشار القرآن الكريم إلى هذه الغلبة في قوله تعالى (الم، غلبت الروم .. .. الآية).

مساهمة، حتى يمكن القول إنهم كانوا أداة تنكيل بالسكان الأصليين، وقد أعانوا الفرس على المسيحيين، وتذكر المصادر أنهم ساهموا في مذبحة كبرى وقعت سنة (٦١٥ م) .

كمـــا تذكر المصادر أن اليهود ساعدوا الفرس في استباحة المدينة المقدسة ثلاثة أيام؛ ينهـــبون ويضـــرمون النار في الكنائس حتى أُحرق في المدينة ثلاثمائة دير وكنيسة. "**وقـــد حطم الفرس كنيسة القيامة، ونهبوا كنوزها، وحطموا كنائس أخرى واشترك الـــيهود مـــع الفرس في قتل جميع مسيحيي القدس وتدمير أماكنهم الدينية**"[٣٠] .لقد أحـــدث صـــنيع الـــيهود بـــأهل المدينة جراحاً يصعب تضميدها، فلم يزل صنيعُهم شاخصـــاً فـــي ذاكرة سكان إيلياء الأمر الذي أعطى مبرراً قوياً لاشتراط هذا الشرط .وهذا كان قبيل الفتح الإسلامي للمدينة .

لقـــد ذهب الأستاذ إحسان عباس إلى أن نصارى القدس كانوا يهدفون من هذا الشرط إلى إبقاء الأمور على حالها فيما يتصل بعدم وجود اليهود في القدس. فبعد الانتصار الـــذي أحـــرزه هـــرقل توجه إلى بيت المقدس، فأصدر أمراً يقضي عليهم بمغادرة القدس، وقضى أن يكون قطر المنطقة المحرمة عليهم حولها ثلاثة أميال.[٣١]

إنّ هـــذا الشـــرط وجـــد صـــداه عند الخليفة عمر، ولعُمر من الخبرة الواسعة والعلم الدقـــيق بالـــيهود -تعـــاقداً وتعاملاً- ما يزيد الشرط تأكيداً وتوثيقاً وأصالة ،على أن الخلـــيفة عمر بموافقته على هذا الشرط أقّر أمراً واقعاً، ففي تلك الأثناء لم يكن لليهود وجود في المدينة المقدسة أصلاً .

---

[٣٠] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي** ١٢٢٠ق.م - ١٣٥٩م. (دار النفائس) ص١٣٢-١٣٣، وراجع، سامي سعيد الأحمد، تاريخ فلسطين القديم (بغداد ١٩٧٩) ص٤١٠

[٣١] إحسان عباس، **تاريخ بلاد الشام مما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي** ١٤٠-٢٦٤

البرهان والدليل

وأخشى أن يقول القارئ ما للشيخ أبْعد النُجْعَةَ ولوى أعناقنا صوب التاريخ مستدلاً -من خلاله- على أصالة هذا الشرط المتعلق باليهود، فأين هو من الواقع الصادق الناطق ؟؟

وأقول: لست بغافل عن الواقع، ففيه البرهان الساطع والدليل القاطع على أصالة هذا الشرط. أجل. إن أعظم دليل على أصالة هذا الشرط في العهدة العمرية ما نراه من واقع اليهود اليوم في القدس وفلسطين كلها، ولْنَدَعْ الواقعَ يعبرُ بلسان حاله، حيث يعجز اللسان عن التعبير، فماذا فعل اليهود حين وطئت أقدامهم أرض القدس وفلسطين ؟ وأترك الإجابة لرجل مسيحي عايش القضية وعاصرها هو اميل الغوري حيث يقول :" إن اليهود استولوا على التراث والآثار والمقدسات الإسلامية، وعملوا على طمسها واغتصبوا المساجد التي يذكر فيها اسم الله، فدمروا بعضها، وحوّلوا بعضها إلى كُنُس يهودية، وجعلوا بعضاً آخر مراكز للهو والفسق والفجور، واستباح اليهود أوقاف المسلمين ومعاهدهم ومدافنهم وزواياهم ومؤسساتهم، واستولوا على الحرم الإبراهيمي فدنّسوه، بل واستباحوا فيه الدماء الزكية الطاهرة، واستولوا على حائط البراق في بيت المقدس، وهدّوا عدّة مساجد وأماكن إسلامية وقفية، وطردوا سكانها العرب منها، والآن يسعون ويستعدون بكل قوة وعلى مختلف الصُعُد والمستويات السياسية، أن يقيموا الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، وقد فرغوا من وضع الرسوم والخرائط اللازمة لإعادة بناء هيكلهم بموجبها، وجمعوا الأموال الطائلة في سبيل ذلك."[٣٢].

---

[٣٢] العظم، يوسف، تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء – دار القلم – ص ١٤٥.

ولقد صدق الكاتب فيما قال، ففي إحصائية [٣٣]. أجرتها مؤسسة الأقصى لإعمار المقدسات الإسلامية على (١٠%) من المساجد في فلسطين (١٩٤٨) تبين أن اليهود حوّلوا تسعة عشر مسجداً إلى حظائر ومعارض ومطاعم وخمارات ومقاهي. كما أنهم حوّلوا خمسة عشر مسجداً ومقاماً إلى كُنُس ومعابد يهودية .

العهدة العمرية هي غير الشروط العمرية

حاول غير واحد من الباحثين الخلط بين العهدة العمرية والشروط العمرية واعتبارها شيئاً واحداً، اعتقاداً منه أن الشروط التي يجدها عند ابن عساكر وابن القيم إنما هي العهد العمري، غير أن هذا العهد أُخضع مع مرور الزمن لفكرة التطور، إذ تطور تاريخياً من صورة مختصرة إلى نص تكثر فيه الشروط حتى وصل إلى الصورة الموسعة التي تضمنت شروطاً كثيرة. ولم نجد هذا الرأي المخترع عند واحد من أئمة الإسلام المحققين، ولا وجدنا لأصحابه سلفاً. وهؤلاء القوم أرادوا -من خلال ذلك- الوصول إلى أن نص العهدة شهد إضافات وزيادات، الأمر الذي يتيح الطعن في أصالته وثبوته[٣٤] ، وللوصول إلى تحقيق النسبة لا بد من دراسة إسنادية للشروط العمرية .

فهل حقاً صحت أسانيد الشروط العمرية إلى الخليفة عمر؟، أم هي شروط اجتهد الفقهاء في سنها وخضعت للظروف السياسية أو كانت انعكاساً لها ؟.

لقد ذكر ابن القيم طرفاً من الأسانيد لا يخلو واحد منها من قدْح وطعن، لذا ذهب همام سعيد إلى توهين إسناد هذه الشروط فقال : "ومن خلال النظر في أسانيد هذه المعاهدة "الشروط" تبين لي أنها واهية، فقد رُوِيت من عدة طرق لم تصح، مدارها

---

[٣٣] انظر موقع مؤسسة الأقصى على الإنترنت www.islamic-aqsa.com

[٣٤] انظر **الموسوعة الفلسطينية** ٣٣٨-٣٣٩وهي آراء الأستاذ عبد العزيز الدوري كما سبقت الإشارة

علـــى ضعفاء الرجال، وبعض طرقها لا يخلو من مجهول أو انقطاع"[٣٥]. وقد لاحظ ابـــن القـــيم الضعف في الأسانيد فاستدرك بعبارة فيها الاعتذار عن وهن السند قائلاً :"وشُـــهرة هـــذه الشروط تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتـــبهم واحـــتجوا بها "[٣٦]. ومن ناحية أخرى فإن التباين من حيث الشكل والمضمون بين الشروط العمرية وبين سائر عهود الصلح التي صدرت في عهد الراشدين يشكل أساساً قوياً للحكم على تلك الشروط بأنها لا تنتمي إلى العهد الراشدي.[٣٧]

ولا نكـــاد نجـــد في العقود التي أبرمها رسول الله ﷺ مثيلاً لهذه الشروط . ولك أن تطالع عَهْدَه مع يهود المدينة، وعَهْده مع نصارى نجران وغيرها من العهود .

وعلـــى أيـــة حـــال، فـــالذي نخلص إليه أن العهدة العمرية شيء مختلف تماماً عن الشـــروط العمـــرية، وأن الأخـــيرة ليست تطوراً عن الأولى بل هي مخالفة لها، وقد انـــتهى البحث إلى اعتبارها شروطاً منسوبة إلى عمر ﷺ مجرد نسبة، ولا تصح في الحقيقة نسبتها إليه.[٣٨]

الآثار الإيجابية للعهدة العمرية

إن العهـــدة التي جسّدت سماحة وعظمة الإسلام في حسن تعامله مع الآخر والإقرار بحقـــه، وضـــمان حريـــته الدينية، والدفاع عنه، وصون مقدساته، حتى أن نصارى العـــرب المتمسكين بديـــنهم باتوا يحرصون على صون الإسلام، واعتبر العقلاء منهم "أن الإســـلام هـــو الإطـــار الحضـــاري الأميـــن الذي يعيش نصارى العرب ضمن نطاقه"[٣٩].

---

[٣٥] د. همام سعيد ،الوضع القانوني لأهل الذمة ص١٥٧.

[٣٦] ابن القيم، **أحكام أهل الذمة** ٣٦٦/٢، تحقيق صبحي الصالح .

[٣٧] سخنيني، عصام، **الشروط العمرية**، دراسة نقدية، مجلة البصائر (ص٢٥) مجلد (٣) عدد(٣) .

[٣٨] سخنيني، **الشروط العمرية** .. ص٤١ من مجلة البصائر

[٣٩] من مقال إميل الغوري نشرته صحيفة الدستور الأردنية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨١/١٠/٢٩ .

وفي معرض المقارنة بين صنيع المسلمين بمقدسات المسيحيين، وصنيع الغرب بها، يقول إميل الغوري: "ومن الحق الواجب أن نذكر أن المسلمين من عرب وأتراك وشراكسة وأكراد وغيرهم .. صانوا مقدساتنا المسيحية العظيمة في فلسطين مدة ثلاثة عشر قرناً، وحافظوا على سلامتها، وضمنوا حقوقنا فيها ووفروا حرية العبادة فيها للمسيحيين كافة. أما الغرب المسيحي الذي استولى على وطننا سنة (١٩١٨)، فإنه لم يَصُن تراثه، ولم يحترم قدسيته، بل فرط به وبالمقدسات المسيحية الخالدة، وسلّمها والأرض إلى أعداء النصرانية خلال برهة من الزمن لا تتجاوز الخمسين عاماً."[٤٠] .

إن العهدة العمرية لتؤكد سيادة الإسلام المطلقة على بيت المقدس، باعتبار الإسلام الدين الخاتم للديانات السماوية، وهذا المبدأ خلّدته واقعة الإسراء بالنبي محمد ﷺ من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى .

وقد جاءت العهدة العمرية ثمرةً طيبةً لفتح إسلامي نظيف طيب لمدينة مقدسة طيبة، وإني لأكبر الإنصاف والشجاعة في أحد الشهود المسيحيين العرب إميل الغوري، وهو فلسطيني حين نجده يشبّه الليلة بالبارحة، وينفث زفرات الألم وهو يتكلم عن قضية القدس وفلسطين ويتساءل كيف ننقذ فلسطين؟

ويجيب على هذا السؤال، بعد أن أصبح -كما يقول- لديه عقيدة، توصل إليها عن خبرة طويلة بدقائق قضية فلسطين ومكانتها، وتمحيص أحداثها الخطيرة، إنك لتعجب من جوابه وقد أخذ بعين الاعتبار الفتح العمري والعهدة العمرية، وجوابه عن سؤاله، كيف ننقذ فلسطين؟ هو : "أن نجعل من قضيتها -أي قضية القدس- قضية إسلامية عالمية بشكل صحيح، يتولى أمرها المسلمون قاطبة إلى أن يقول: **"إن الإسلام والمسلمين هم الذين يستطيعون -إذا ما عزموا وعملوا**

---

[٤٠] المصدر السابق

وتوكّلوا- تحرير فلسطين واسترجاع أماكنها المقدسة من مسيحية وإسلامية"[٤١].

إن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في هذه المدينة والتي اتسمت بالتسامح، لها مرجعيتها وضابطها الذي تردّ إليه وتتقيّد به،هذه المرجعية المعتبرة الأصيلة إنما هي العهدة العمرية، ولا ينبغي العدول عنها بحال، إذ هي صمام الأمان، وهي الكفيلة بالحفاظ على أجواء من التعايش السلمي بين سكان المدينة إذا تم الالتزام بها وصدقت النوايا، وليكن معلوماً، أن العهد الذي أعطاه عمر لنصارى بيت المقدس ليس موقوفاً على شخص عمر أو مرتبطاً به وإنما هو الإسلام، وهديُ عمر كهدي أبي بكر نلتزم به امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي)، ثم إن عمر ما أبرم هذا العهد إلا على هدي رسول الله ﷺ .

* * * * *

[٤١] راجع آراءه عند، العظم، يوسف، **تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء** (١٩٩٨) ص١٢٨-ص١٤٦.

الخاتمة

- إن تـــاريخ الإسلام في بيت المقدس جذوره ضاربةٌ في أعماق التاريخ البشري، وتـــأكد بقـــرار ربانـــي فـــي الآية الأولى من سورة الإسراء. ثم جاءت "العهدة العمرية" لتؤكد فعالية السيادة الإسلامية العربية على المدينة.
- "العهـــدة العمرية" ثابتة صحيحة النسبة للخليفة عمر من حيث السند والمضمون، وفـــي إثـــبات الـــروايات التاريخـــية لا نطمع بما نطمع به في روايات الحديث والســـيرة . وقـــد أجمـــع المؤرخون الأوائل على صحة نسبة "العهدة" إلى أمير المؤمنين عمر وحسبنا ذلك .
- "العهدة العمرية" ليست هي "الشروط العمرية" إذ بينهما تباين واختلاف، فالأولى صحت نسبتها إلى عمر، أما الثانية ففي نسبتها إلى عمر وجهات نظر.
- مضـــمون "العهـــدة العمرية" موافق لمبادئ الإسلام، لم ينكره واحد من الفقهاء، وهو مستقى من هدي رسول الله ﷺ .
- إن الشـــرط الذي استهجن البعض وجوده في العهدة، المتعلق بعدم سكنى اليهود بيـــت المقـــدس، شرط أصيل في العهدة ليس بطارئ عليها ولا مستحدث. ولهذا الشرط ما يبرره قديماً، كما يؤكده الواقع ويشهد لمصداقيته.
- صنيع عمر في "العهدة" باق ومعتبر، لأن عمر من الخلفاء الذين يُقْتدى بسنَنهم.
- تعتـــبر "العهدة العمرية" مرجعية تضبط العلاقة بين المسلمين والمسيحيين وهي صمام الأمان وتضمن تعايشاً حضارياً في أرقى صوره .

* * * * *

الندوة السابعة*

السيد المسيح في القرآن الكريم

د. احمد مصطفى فواقه**

الحمد لله رب العالمين الواحد الأحد، لا شريك معه في الألوهية ولا مثيل له في الربوبية، المعبود الذي ليس فوقه أحد، الكامل في جميع صفاته وأفعاله، يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء، لا معقب لأمره ولا رادّ لقضائه ومشيئته ولا نقض لحكمه.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وإمام المرسلين الذي أرسله الله رحمة للعالمين، وهدى للناس أجمعين، الداعي إلى الحق المبعوث لسائر الخلق

وبعد:

فالإسلام بوصفه دينا استقى عقيدته وشريعته من معين السماء، كما استقت سابقا يهودية موسى ثم نصرانية المسيح عليهما السلام. قال الله تعالى: " شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه"[1].

والمسلمون في قرارة أنفسهم يؤمنون ويعتقدون بأن الأنبياء أخوة ولا تفاضل بينهم من حيث الرسالة ، وأن عليهم أن يؤمنوا بهم جميعا، إيمانهم بمحمد ﷺ، قال تعالى: " قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربهم، لا نفرق بين أحد

---

* قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ١٩ اذار ٢٠٠١

** محاضر في كلية الدعوة وأصول الدين/ جامعة القدس

[1] سورة الشورى ايه ١٣

منهم ونحن له مسلمون"[٢]، وقال جل شأنه: "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله **لا نفرق بين أحد من رسله** وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير[٣]"

ولقد مثل القرآن الكريم فطرة الخلق السليمة في معرفة الله وثبوت وحدانيته وربوبيته، وأنه لا إله إلا هو بقوله سبحانه: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون، وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون"[٤]. وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ، حتى تجد الله وتؤمن به وتتوجه إليه، فتحس بالهداية بعد الحيرة والاستقرار بعد التخبط والاطمئنان بعد القلق. وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم " في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار إليه". [٥]

وفي نهاية ندوة عرضت بتلفزيون (إس، ايه، بي، سي) علق رئيس الندوة (بيل تشالمرز) قائلا: " أعتقد أنه يمكن القول من هذه المناقشة، أن هناك في الوقت الحالي قدرا اكبر من الاتفاق بالنسبة لمؤسس المسيحية في الجانب الإسلامي مما هو عليه بالنسبة لمؤسس الإسلام في الجانب المسيحي".

---

[٢] سورة البقرة ايه ١٣٦

[٣] سورة للبقرة ايه ٢٨٥.

[٤] سورة الأعراف الايات ١٧٢-١٧٤

[٥] الميزان في مقارنة الأديان / المستشار محمد عزت طهطاوي، ص ١٥.

إن الصورة التي يرسمها القرآن الكريم للمسيحي الذي لا يستكبر فجاء نصها. " ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون". [٦]

بداية أقول أن المسلمين ليس لهم خيار فيما يقولون، لأن الذي يوضحونه يستند إلى كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. نحن المسلمون نعتقد أن عيسى كان واحدا من أعظم رسل الله **وأنه هو المسيح، وأن ميلاده كان بمعجزة دون أن يكون ثمرة لزواج، وأنه أحيا الموتى بإذن الله وأنه أبرأ الأكمة والأبرص بإذن الله.**

والحقيقة أن المسلم لا يكون مسلما إذا لم يؤمن بالمسيح. وأن الجوهر الحقيقي للمحبة التي يبديها المسلم دائما نحو المسيح وأمه العذراء مريم، إنما ينبثق من المصدر الأساسي لإيمانه، وهذا المصدر هو القرآن الكريم. والمسلم لا يتفوه باسم عيسى دون أن يقرنه بالإجلال. فهو عندما ينطق الاسم يقول: عيسى عليه السلام. والمسلم إذا ذكر اسم المسيح عليه السلام بدون ألفاظ الإجلال هذه فسوف يعتبر فظّا. وقد ورد ذكر المسيح في القرآن الكريم أكثر من خمس مرات من عدد المرات التي ذكر فيها نبي الإسلام في كتاب الله. ونقصد بذلك اسم كل منهما تحديدا. أما إذا كان الذكر للاسم بالإشارة فان اسم النبي محمد ﷺ يعتبر أكثر أسماء الأنبياء ذكرا في القرآن الكريم في هذا المقام لأن الرسالة رسالته، والكتاب وحي أنزل عليه.

وعلى سبيل المثال المسيح ذكر في القرآن باسمه وعلى وجه التحديد خمس وعشرين مرة:-

"وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس" [٧]

---

[٦] المسيح في الإسلام/ أحمد ديدات، ص ٢٧.

[٧] سورة البقرة آيه ٨٧

"يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم" [٨].

"إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله "[٩]

"وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم" [١٠]

"وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين " [١١]

إن القرآن الكريم يكرم هذا الرسول العظيم من رسل الله ولم يقصر المسلمون عبر الأربعة عشر قرنا الماضية في الإقتداء بهذا النهج، وليست هناك إشارة واحدة في القرآن أو كلمة تحمل نوعا من الانتقاص يمكن أن يعترض عليها أشد المعاندين من المسيحيين. [١٢] ويوجد العديد من المسلمين الذين لا يترددون في إطلاق اسم عيسى على ابنه لأنه اسم شريف، اسم نبي الله المكرم، وكذلك أمه مريم.

في سياق قصة السيدة مريم ومنزلتها من الإجلال التي تشغلها في الإسلام قبل أن تأتيها البشارة بمولد المسيح: يقول تعالى "وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين"[١٣]. مثل هذا التشريف لا نجده أعطي للسيدة مريم حتى في الكتاب المقدس. وتستمر الآية الكريمة "يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين"[١٤].

ما مصدر هذا التكريم ؟

إن الآية القرآنية تجيب وتوضح لنا، يقول تعالى "ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وما كنت لديهم إذ يختصمون"[١٥].

---

[٨] سورة آل عمران آيه ٤٥
[٩] سورة النساء آيه ١٧١
[١٠] سورة المائدة آيه ٤٦
[١١] سورة الأنعام آيه ٨٥
[١٢] المسيح في الإسلام / أحمد ديدات، ص ٢٧.
[١٣] سورة آل عمران آيه ٤٢
[١٤] سورة آل عمران آيه ٤٣
[١٥] سورة آل عمران آيه ٤٤

إنه الوحي، إنه المصدر الأعلى الذي خضعت له رقاب الإنس والجن وجميع الخلق. إن السيدة مريم أم المسيح قد اصطفاها الله على نساء العالمين، ليست أم محمد، ولا زوجته، ولا ابنته، ولا أي امرأة أخرى من العرب، لكنها امرأة يهودية. هل يستطيع أحد أن يشرح معنى هذا ؟؟

بالنسبة لأي إنسان فان أمه أو زوجته أو ابنته سوف تكون مقدمة عنده على أي امرأة أخرى، لماذا يكرم نبي الإسلام امرأة من قوم أعدائه ويهودية تنتمي إلى جماعة تنظر إلى قومه باستعلاء تماما كما لا يزالون إلى اليوم يتعالون على العرب، فهل يتفضل أحد بشرح هذا البعد الخارج عن القياس وهو: لماذا يختار محمد عليه الصلاة والسلام إذا كان هو مؤلف القرآن – لماذا يختار هذه اليهودية لهذا الشرف الرفيع؟. الجواب ببساطة : "إن هو إلا وحي يوحى".

هناك سورة في القرآن الكريم تسمى سورة مريم، السورة رقم ١٩، وسميت بهذا الاسم تكريماً للسيدة مريم أم المسيح (عليه السلام)، ومرة أخرى لا نجد مثل هذا التشريف أعطي للسيدة مريم في الكتاب المقدس. ومن بين الأسفار ال ٦٦ حسب تقويم البروتستانت وال ٧٣ حسب تقويم الروم الكاثوليك، لا يوجد واحد منها يسمى باسم السيدة مريم أو باسم ابنها. ولو كان محمد ﷺ هو الذي ألف القرآن لكان بمقدوره أن يتضمنه اسم مريم أم المسيح أو اسم أمه آمنه، أو زوجته خديجة، أو ابنته المحبوبة السيدة فاطمة، لكن ذلك لم يكن، فالقرآن ليس هو من وضعه. [١٦]

---

[١٦] المسيح في الاسلام / أحمد ديدات، ص ٣٥.

مريم والمسيح في القرآن الكريم[١٧]

يذكر القرآن الكريم مريم أم عيسى عليه السلام، فيقص خبر الحمل بها وولادتها وتربيتها في القرآن الكريم، فيقول تعالى "إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم". إلى قوله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب"[١٨].

ويلاحظ القارئ أن العبادة والنسك أظلّاها وهي جنين في بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء. فأمها وهي حامل بها نذرت أن يكون ما في بطنها محررا خالصا لخدمة بيت الله وسدانته، والقيام لشئونه ، فلما وضعت، وكان نذرها على فرض الذكورة جددت العزم على الوفاء بالنذر، وقد وجدت ما تسوغه النفس للتحلل من النذر، فكان ذلك الإصرار عبادة أخرى. ثم انصرفت الفتاة الناشئة منذ طراوة الصبا إلى النسك والعبادة. وقام على تنشئتها وهدايتها وتعليمها نبي من أنبياء الله فكفلها زكريا.

وكان الله سبحانه وتعالى يُدرُّ عليها أصناف الرزق من حيث لا تقدّر ولا تحتسب، حتى أثار ذلك عجب نبي الله كافلها " كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا..."، ولقد كانت تلك التنشئة الطاهرة تمهيداً لأمر جليل قد اصطفاها الله تعالى له ولذا خاطبتها الملائكة باجتباء الله لها "إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين". ولقد كان ذلك الاصطفاء هو اختيار الله لها لأن تكون أمّا لمن يولد من غير نطفة آدمية. فهذه التنشئة لا تجعل شيئا يقف أمام مريد الهداية من تظنن بالأم أو ريبة فيها، فحياتها كلها من قبل ومن بعد تنفي هذه الريبة، وتبعدها عن موطن الشبهة.

---

[١٧] أنظر هذا الموضوع في كتاب " محاضرات في النصرانية" / محمد أبو زهرة.
[١٨] سورة آل عمران الآيات ٣٥-٣٧

حملت العذراء البتول مريم بالسيد المسيح عليه السلام، ولقد فوجئت به إذ لم تكن به عليمة، فبينما هي قد انتبذت من أهلها مكانا شرقيا أرسل الله إليها ملكا تمثل لها بشرا سويا "قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا....."[١٩]، ولما ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم سواء في ذلك منهم من يعرف نسكها وعبادتها ومن لا يعرف. ولكن الله تعالى رحمها من هذه المفاجأة فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله، ولذلك نطق الغلام وهو قريب عهد بالولادة: "فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا"[٢٠]. ولا بد أن نشير هنا قبل أن ننتقل إلى بعثة المسيح عليه السلام إلى السبب الذي من أجله ولد من غير أب، فإنه لا بد أن يكون ذلك لحكمة يعلمها الله جلت قدرته وقد أشار إليها سبحانه "ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا".

فنجد أنه يبدو أمام أنظارنا أمران جليان :

الأمر الأول: إن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه الفاعل المختار المريد. وأنه سبحانه لا يتقيد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نرى العالم يسير عليها في نظامه، فكان هذا الخلق بين قوم غلبت عليهم الأسباب المادية وفي عصر ساده نوع من الفلسفة أساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول كالعلة من معلولها، فكان عيسى آية الله على أنه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية.

الأمر الثاني: إن ولادة المسيح عليه السلام من غير أب هو إعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها، حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم لا روح فيه، فلقد قيل عن

---

[١٩] سورة مريم الآيات ١٨-١٩

[٢٠] سورة مريم الآيات ٢٩-٣٠

اليهود أنهم كانوا لا يعرفون الإنسان إلا جسما عضويا ولا يقرون أنه جسم وروح. قال تعالى: "والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين". بعث عيسى عليه السلام يبشر بالروح وهجر الملاذ التي استغرقت فيه النفوس في تلك الأيام واستولت عليها، وبشر بعالم الآخرة.

ولقد أيده الله بمعجزات لخصها القرآن الكريم في خمسة أمور أربعة منها في سورة المائدة :

"إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا، وإذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني، وتبرئ الأكمة والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني. .. إلى قوله تعالى " إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين، قال عيسى بن مريم اللهم ربّنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين، قال الله إني منزّلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين" [٢١]

فهذه أربع معجزات

الأولى: أنه يصور من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فيكون طيراً بإذن الله.

---

[٢١] سورة المائدة الآيات ١١٠-١١٥

الثانية: إحياؤه عليه السلام الموتى بإذن الله جلّت قدرته والمحيي في الحقيقة هو الله، ولكن أجرى الإحياء على يد المسيح عليه السلام ليكون ذلك برهان نبوته ودليل رسالته.

الثالثة: إبراؤه عليه السلام الأكمة والأبرص وهما مرضان تعذّر على الطب قديمه وحديثه العثور على دواء لهما، ولكن عيسى بقدرة الله شفاهما.

الرابعة: إنزال المائدة من السماء بطلب من الحواريين.

الخامسة: ذكرت في سورة آل عمران وهي إنباؤه عليه السلام بأمور غائبة عن حسه ولم يعاينها، فقد كان ينبئ صحابته وتلاميذه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم. "وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين".

- بعث عيسى عليه السلام بتلك البينات وأيد رسالته بتلك المعجزات وإنها باهرة تخرس الألسن وتقطع الطريق على منكري رسالته، لو كان الدليل وحده هو الذي يهدي النفوس الضالة والقلوب الشاردة، ولكن القوم الذين بعث فيهم كانوا غلاظ الرقاب قساة القلوب فكانت مهمته شاقة إذ حاول هدايتهم، ولكنهم تقدموا لمناوأته وقليل منهم من اعتنق دينه وآمن به.
- ولما ضاقت بهم الحيلة كذبوا عليه، وانتهى الأمر إلى أن تمكنوا من حمل الحاكم الروماني على أن يصدر الأمر بالقبض عليه والحكم عليه بالإعدام صلبا.
- وهنا نجد القرآن الكريم يقر أن الله لم يمكّنهم من رقبته بل نجاه الله من أيديهم. "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم". وقال تعالى "وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه"

"ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له لن فيكون".

أسس دعوة المسيح[٢٢]

عند استعراضنا لما ورد في القرآن الكريم عن دعوة المسيح عليه السلام نجد أن هذه الدعوة قد قامت على خمسة أسس هي:

١- **الدعوة إلى التوحيد الكامل:** والتوحيد هو دعوة الرسل جميعا (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[٢٣] ولم يكن عيسى بدعا من الرسل.

في سورة المائدة نقف أمام مشهد من مشاهد يوم القيامة فنسمع استجوابا مباشرا في مسألة الألوهية المدعاة لعيسى بن مريم وأمه : (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد)[٢٤].

وفي سورة مريم ينطق عيسى بهذه الحقيقة وهو طفل في مهده: (قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا)[٢٥]

---

[٢٢] أنظر هذا الموضوع في كتاب النصرانية من التوحيد إلى التثليث / د. محمد الحاج

[٢٣] سورة الأنبياء ايه ٢٥

[٢٤] سورة المائدة الآيات ١١٦-١١٧.

[٢٥] سورة مريم الآيات ٣٠-٣٢

وفي سورة المائدة يكشف القرآن الكريم ذلك الانحراف الذي طرأ على النصرانية ويبين ما قاله المسيح عليه السلام لبني إسرائيل:"لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم" [٢٦].

وفي سورة الزخرف يأتي النص القرآني بشرح موجز عن عيسى عليه السلام يلخص فيه مهمته لقومه "ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبيّن لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم، فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم" [٢٧].

وهكذا فان القرآن الكريم يعرض لنا دعوة عيسى عليه السلام ناصعة نقية من كل شائبة يعرضه وهو مع إخوانه المرسلين في نفس الصف وعلى نفس المنهج والطريق يدعو إلى عبادة الله وحده.

٢- دعوة روحية دعت إلى التسامح والتقشف والزهد في الدنيا وبشرت باليوم الآخر.

جاء عيسى عليه السلام على اليهود الذين انحرفوا مع المادة وأفرطوا في تهالكهم عليها، وتركوا تعاليم موسى عليه السلام، فكان لا بد أن تركز رسالته على الناحية الروحية.

---

[٢٦] سورة المائدة الآيات ٧٢-٧٣

[٢٧] سورة الزخرف الايات٦٣- ٦٥

٣- **لا توسط بين المخلوق والخالق في دعوته :**

كان المسيح يدعو إلى الاتصال بالله دون وساطة أحد من الكهنة، فالعبادة ما دامت لله وحده فلا توسط بين العابد والمعبود، ولذلك قال القرآن:" اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون"[٢٨].

٤- **التبشير بنبوة محمد ﷺ:**

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في كثير من آياته ومنها "الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحل لهم الطيبات ويُحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم"[٢٩].

وتأتي البشارة صريحة في سورة الصف:

"وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين"[٣٠].

٥- **دعوة خاصة لبني إسرائيل :**

وهذه من أهم خصائص دعوة المسيح عليه السلام، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بعدة آيات، فلقد حدد القرآن الكريم مهمة رسالة عيسى عليه السلام بأنها مكملة لما جاء به موسى والأنبياء من قبله "وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم

---

[٢٨] سورة التوبة آية ٣١

[٢٩] سورة الأعراف آية ١٥٧

[٣٠] سورة الصف آية ٦

مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين"[٣١].

وقد حدد القرآن الكريم رسالة عيسى عليه السلام بأنها خاصة لبني إسرائيل بقوله: "ورسولاً إلى بني إسرائيل"[٣٢].

كتاب المسيح

كان كتاب عيسى عليه السلام هو الإنجيل نزل إليه من عند الله وهو مصدق للتوراة كتاب موسى عليه السلام، وإذا قلنا التوراة فإننا نعني التوراة المنزلة من عند الله قال تعالى "وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين".[٣٣].

الروح القدس في عقيدة الإسلام

هو الملك المقرب جبريل عليه السلام، اصطفاه الله لينزلَ بالوحي على رسله وأنبيائه، وإطلاق روح القدس عليه لأنه ينزل بالقدس أي الطهر من الله، والمراد به الوحي الذي يطهر نفوس البشر من الجهل والإثم أو لطهره من الأدناس البشرية.

وهو الذي نزل بالقرآن الكريم على رسول الله ﷺ، قال تعالى :"قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين" [٣٤]

---

[٣١] سورة المائدة آية ٤٦.
[٣٢] سورة آل عمران آية ٤٩
[٣٣] الميزان في مقارنة الأديان / طهطاوي، ص ١٢٦. سورة المائدة آية ٤٦
[٣٤] نفس المرجع، ص ١٦٩، سورة النحل آيه ١٠٢

البشارة الطيبة

(إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين)[٣٥]، (ومن المقربين) ليس جسديا ولا جغرافيا لكن بالروح. قارن هذا النص بالنص الوارد في الكتاب المقدس (وجلس – أي المسيح – عن يمين الله) [٣٦]

وقد أساء غالبية المسيحيين فهم هذا النص، علاوة على نصوص أخرى كثيرة في الكتاب المقدس، فهم يتصورون الأب (الإله) جالساً على العرش العظيم وابنه المسيح جالسا عن جانبه الأيمن.

هل تستطيع استحضار هذه الصورة في مخيلتك؟ إن تفعل فقد ضللت الحقيقة، فهو ليس أبا مسيحياً شيخا، بل سبحانه منزّه عن تصور العقل البشري، إنه حي قيوم إنه الحق، وهو ليس كمثله شيء."ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين".

وهذه النبوءة قد تحققت خلال وقت قصير جدا (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريّا، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمّك بغيّا، فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبيا، قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّا، وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّا، وبرّا بوالدتي ولم يجعلني جبّارا شقيا، والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا).[٣٧] وبذلك برّأ المسيح عليه السلام أمه من الإفتراء الظالم. وهذه أول معجزة منسوبة للمسيح عليه السلام في القرآن الكريم، أنه تكلم وهو طفل بين ذراعي أمه، قارن ذلك بين معجزته الأولى في الكتاب المقدس والتي حدثت عندما

---

[٣٥] سورة آل عمران آيه ٤٥

[٣٦] إنجيل مرقص ١٦-١٩

[٣٧] سورة مريم الآيات ٢٧-٣٣.

جاوز الثلاثين من عمره والواردة في إنجيل يوحنا ٢/١-١٠ وهي(تحويل الماء إلى خمر).

ومنذ تلك اللحظة أصبحت الخمر مثل الماء في العالم المسيحي، ففي أمريكا عشرة ملايين مدمن خمر، ويسمونهم (متجرعي المشاكل) وفي جنوب أفريقيا (الكحوليين) و(كينث كاوندا) رئيس وزراء زامبيا يقول: (إنني لست مستعدا لقيادة شعب من المدمنين) يقصد شعبه.

الدفاع عن المسيح

طبقا لإنجيل القديس يوحنا يصف عيد الزواج في (قانا) تصرف المسيح نحو أمه بغطرسة فهو يدعوها بقوله (يا امرأة) ويقول (ما لي ولك) أي رابطة بيني وبينك. وجاء النبي محمد ﷺ ليبريء المسيح عليه السلام من الاتهامات والافتراءات الكاذبة. وأوحي إليه أن المسيح وضع أمه العذراء في المكانة اللائقة بها كما بين أنه عليه السلام كان بعيدا عن التجبر والتكبر (وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا)[٣٨]. وهكذا دافع القرآن عن خلق الابن والأم الذي شوهه الآخرون.[٣٩]

الإسلام هو الخلاص

الحق أن الخلاص كل الخلاص هو الخلاص من دعاوي الشرك بالله وتصحيح الاعتقاد، ولا يكون ذلك إلا بالاتجاه إلى عقيدة التوحيد في الإسلام، الواضحة التي لا لبس فيها ولا التواء. وهو أن الله واحد لا شريك له وأن المسيح ابن مريم هو عبد الله ورسوله، دعا إلى التوحيد الخالص كما حكى إنجيل يوحنا (وهذه هي الحياة

---

[٣٨] سورة مريم الآية ٣٢

[٣٩] المسيح في الإسلام / أحمد ديدات، ص ٤٤.

الأبدية، إن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) [٤٠]، كما أنه لا يتحقق الخلاص إلا بالإيمان برسالة النبي محمد ﷺ، الذي بشر به المسيح عليه السلام: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون)[٤١]، وقال سبحان (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حَرّم الله عليه الجنة، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار).[٤٢]

وقال جل شأنه عن تبشير المسيح بنبي الإسلام: (وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد)[٤٣].

ويقول الكاتب الغربي (سانت هلر): (إن الإسلام قد احدث رقيا عظيما فقد أطلق العقل الإنساني من قيوده التي كانت تأسره حول المعابد وبين أيدي الكهنة من ذوي الأديان المختلفة، فارتفع إلى مستوى الاعتقاد بحياة وراء هذه الحياة، وأن محمدا بتحريمه الصور في المساجد وكل ما يمثل الله قد خلص الفكر الإنساني من وثنية القرون الأولى واضطر العالم أن يرجع إلى نفسه وأن يبحث عن الله خالقه).

والقرآن الكريم يقرر بمحكم آياته بطلان فكرة الصلب والقتل للمسيح عليه السلام، وبالتالي يقضي على فكرة الفداء النصرانية. قال تعالى "وقولهم إنا قتلنا المسيح

---

[٤٠] إنجيل يوحنا الإصحاح ١٧

[٤١] سورة آل عمران الآيات ٧٩-٨٠.

[٤٢] سورة المائدة آيه ٧٢

[٤٣] سورة الصف آيه ٦

عيسى ابن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا)[٤٤].

ولقد ورد في تاريخ (موسهيم) الشهير الذي يدرس في مدارس اللاهوت الإنجيلية أن كثيرا من فرق النصرانية قديما كانت ترفض قبول فكرة الصلب على المسيح رفضا كليا. [٤٥]

القرآن الكريم ينعى على النصارى ابتعادهم عن التوحيد

قال تعالى: (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد فإياي فارهبون)[٤٦].

وقال سبحانه: (بديع السموات والأرض، أنىّ يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء) [٤٧]وقال: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال سبحانك، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق)[٤٨]. وقال تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار)[٤٩]. وقال سبحانه: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم). [٥٠]

---

[٤٤] سورة النساء آيه ١٥٧

[٤٥] الميزان في مقارنة الأديان / محمد عزت طهطاوي، ص ١٦٠.

[٤٦] سورة النحل آيه ٥١

[٤٧] سورة الأنعام آيه ١٠١

[٤٨] سورة المائدة ١١٦

[٤٩] سورة المائدة ٧٢

[٥٠] نفس المرجع، ص ١٠٨. سورة المائدة آيه ٧٣.

الإسلام يصحح مفهوم الألوهية

رسم الإسلام مفهوم الألوهية بالصورة الصادقة التي أنزلها الله تعالى على رسوله محمد ﷺ، بعيدا كل البعد عن ألفاظ الأبوّة والبنوّة التي التبس أمر الحق فيها على أهل الكتاب قال الله تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله)[٥١] وقال جلّ شأنه: (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد)[٥٢]. أما عن المسيح عليه السلام فقد تحدث القرآن عنه باسم الواقع التاريخي الصادق كما تحدث عنه باسم المنطق، فباسم الواقع التاريخي، يقول الله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون)، [٥٣]وقوله: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [٥٤]وقوله: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، سبحانه بل عباد مكرمون) [٥٥].

وقوله: (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، لقد جئتم شيئا إدّا، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا، أن دعوا للرحمن ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا، إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا).[٥٦]

أما من وجهة النظر المنطقية: يقول الله تعالى: (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا، أتقولون على الله ما لا تعلمون، قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، متاع في الدنيا ثم إلينا

---

[٥١] سورة محمد آيه ١٩
[٥٢] سورة الإخلاص
[٥٣] سورة آل عمران آيه ٦٤
[٥٤] سورة الأنبياء آيه ٢٥
[٥٥] سورة الأنبياء آيه ٢٦
[٥٦] سورة مريم الآيات ٨٨- ٩٣

مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون"، [٥٧] ويقول جل جلاله: " ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون"[٥٨].

فالله سبحانه غنيٌّ غنىً مطلق عن الولد، لأن من يسعى وراء الولد أو يتبناه هو الفقير وهو المحتاج في العواطف وفي الأعمال وفي التصريف ولكن الله يتنزّه عن ذلك، فهو إذا أراد أمرا كان ما أراد، ولا يعدو المسيح أن يكون عبدا لله تعالى، كرمه الله بالرسالة التي كلفه بتبليغها إلى قومه من بني إسرائيل، شأنه شأن باقي المرسلين من قبله إلى أقوامهم. وهكذا صحح الإسلام صورة الإله، "قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل" [٥٩]

أسـماء مخصصة

هناك أسماء مشرفة يمكن أن يوصف بها أكثر من نبي واحد، إلا أنها تقتصر في استعمالها على واحد فقط مثل (رسول الله)، وهذا الوصف وصف به كل من موسى والمسيح في القرآن الكريم، إلا أن (رسول الله) قد أصبح وصفاً مرادفاً لنبي الإسلام فقط عند المسلمين. وكل نبي يعتبر (خليلا لله) لكن يقتصر استعمال (خليل الله) على إبراهيم عليه السلام. وهذا لا يعني أن غيره من الأنبياء ليسوا أخلاء لله و(كليم الله) لم تستعمل لنبي مثلما استعملت مع موسى، إلا أننا نعتقد أن الله قد خاطب جميع أنبيائه ومن بينهم عيسى ومحمد.

---

[٥٧] سورة يونس الآيات ٦٨-٧٠
[٥٨] سورة مريم اية ٣٥
[٥٩] سورة المائدة ايه ٧٧

إن تخصيص أوصاف معينة لأشخاص محدودين بعينهم لا يجعلهم مستثنين أو منفردين بحال، ونحن نكرم الجميع، فالمسيح إذا كان ممسحا من الله فان كل نبي يعتبر بهذا المعنى (ممسحا). [٦٠]

الولادة المعجزة

يقول تعالى: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون" [٦١].

بعد التعرض للمنزلة السامية التي يشغلها المسيح باعتباره نبيا مرسلاً في الآيات السابقة، فإن لدينا اعتراضا على الاعتقاد بأنه إله أو ابن الله أو أي صفة أخرى غير كونه إنسانا، فإذا قيل أنه ولد بدون أب، فإن آدم قد ولد كذلك بدون أب. إن المنطق القائل بأن ميلاده بدون أب – يؤهل المسيح عليه السلام أن يكون نداً لله، وإذ ذاك سيكون لآدم حق أكبر لمثل هذا التشريف. [٦٢]

من مشاهد القيامة

الآيات من ١١٦-١١٨ من سورة المائدة تصور مشهدا من مشاهد القيامة، عندما يسأل الله المسيح عن أتباعه المتحمسين، الذين وجهوا توجيها خاطئا في تقديسه هو وأمه فتكون الإجابة، " وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا، ما دمت فيهم

---

[٦٠] المسيح في الإسلام / أحمد ديدات، ص ٣٩.
[٦١] سورة ال عمران آيه ٥٩
[٦٢] المسيح في الإسلام / أحمد ديدات، ص ٥١

فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد، إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم".[٦٣]

شهـــــادات

كتبت مجلة التايم الأمريكية عام ١٩٧٨: (الخلاف يحتدم من جديد حول الاعتقاد بألوهية المسيح) الصفحتين ٣٦، ٣٧. وفي الولايات المتحدة نقل عالم اللاهوت رئيس قسم العقيدة بجامعة ريتشموند فجأة إلى قسم آخر بعد ما قال في اجتماع: (أن المسيح لم يدع قط في حقيقة الأمر أنه إله ولم يدع كذلك أنه ينتمي إليه بالبنوة).

وذكر عالم اللاهوت الكندي (برنارد، ج، ف ،لونرجان) أن كتاب (شوننبرج) الذي كتبه بعنوان (المسيح) ونشر عام ١٩٧١ يمكن أن يؤدي إلى النتيجة المنطقية أن المسيح كان إنسانا وإنسانا فقط.

ويقول (جاك بوهير) الدومنيكاني في المعهد الكاثوليكي بباريس: (وعند هذا الحد فإنه من الحماقة القول بأن الله قد حل بذاته في إنسان، إن الله لا يمكن أن يكون شيئا غير كونه إلها). وفي إسبانيا صرح (جوزيه رامون جيريرد) مؤلف كتاب (المسيح الآخر) عام ١٩٧٦ لمجلة (التايم): "إن المسيح إنسان اصطفاه الله وأرسله وجعله الله ابنا له".

ويقول (سوبرينو)، وهو أستاذ في جامعة (جوزيه سيموين كاناس) في (سلفادور)، أن المسيح يكشف الطريق إلى الأب، ولا يكشف الأب نفسه وذلك من خلال قدوته في طاعة الله في رسالته. وصرح(مجمع الفاتيكان الثاني ١٩٦٢-١٩٦٥): إن أسفار العهد القديم تحتوي على شوائب وأباطيل. ونشرت صحيفة (ديلي نيوز) ١٩٨٤/٦/٢٥، أن اقتراعا جرى في أساقفة الكنيسة الإنجليكانية في

---

[٦٣] نفس المرجع السابق، ص ٦١ ، سورة المائدة الآيات ١١٦-١١٨

بريطانيا اتجه فيه رأي الغالبية البالغة ٣١ من ٣٩ إلى أنهم يعتقدون أن معجزات المسيح، " **حمل العذراء وإحياء الموتى ربما لا تكون قد حدثت بالضبط كما وردت في الكتاب المقدس**، وقد أنكرت هذه الغالبية الاعتقاد بألوهية المسيح مع أمور اعتقاديه أخرى.

وفي الإقتراع وافق ١٩ من الأساقفة أل ٣٩ على انه يكفي اعتبار المسيح (مندوب سام من الله)، وهذا يعني أنه رسول الله.

وقد احتوت إحدى طبعات الكتاب المقدس العالمية (الترجمة الفرنسية المسكونية)، على مقدمات لأسفار الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد تؤكد هذا الإقرار بوجود أخطاء، ويزيد من أهمية هذا الإقرار أن تُعَنْوَنْ الطبعات الحديثة منه بعنوان (الكتاب)Bibl فقط دون (المقدس). Holy[٦٤]

مخطوطات كهف قمران

قام القس المسيحي (بايك)، نتيجة اكتشاف تلك الوثائق بإجراء بحث طويل نشرته مجلة التايم الأمريكية، أعلن ذلك القس في بحثه عن المسيح: "أن المسيح نبي فقط وليس إلها ولا ابناً للإله". [٦٥]

الدكتور شارك جينيبير،أستاذ ورئيس قسم الأديان بجامعة باريس،أصدر كتابا ضخما يقرب من ٦٠٠ صفحة توصل في نهاية دراساته التي استغرقت نصف قرن: أن النصرانية التي بشر بها المسيح عليه السلام كانت في غاية البساطة.

١- أن السيد المسيح عليه السلام كان يعلن التوحيد ويؤكد أنه عبد الله ورسوله.

٢- أنه بعث لخراف بني إسرائيل الضالة.

---

[٦٤] المسيح في الإسلام/ أحمد ديدات، ص ١٣، ١٤.

[٦٥] الميزان في مقارنة الأديان / محمد عزت طهطاوي، ص ٤٠٢.

٣- كان هم المسيح أن يدعو إلى الخلق الكريم، يدعو إلى الرحمة والمحبة والتعاطف. [٦٦]

نصوص الإنجيل

هناك نصوص في الإنجيل يصف فيها المسيح نفسه بأنه بشر ابن إنسان :

- إنجيل متى الإصحاح الثامن عدد ١٨-٢٠
- إنجيل مرقص الإصحاح الثامن عدد ٣١
- إنجيل لوقا الإصحاح التاسع عدد ٥٦
- إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن عدد ٤٠

وقد اعترف كبار علماء اللاهوت النصارى في قاموس الكتاب المقدس، أن عقيدة التثليث لم ترد في الكتاب المقدس.

يقول الكاتب المسيحي (الفريد آي)، أن تعاليم المسيح تجمعها العناصر التالية فقط :

أ- التبشير بقيام مملكة الله حيث المساواة والعدالة.

ب- الله هو الأمل الذي تهفو نحوه أرواح العباد جميعا.

ت- الكمال التام والحب الشامل وليس شيئا غير ذلك.

*ولقد كتبت دائرة معارف لاروس الفرنسية في القرن التاسع عشر في موضوع عقيدة التوحيد والتثليث ما يلي:

(عقيدة التثليث وإن لم تكن موجودة في كتب العهد الجديد (الإنجيل) ولا في أعمال الآباء الرسوليين ولا عند تلاميذهم الأقربين، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستانتي التقليدي يدّعيان أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين في كل زمان، مع أن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصه

---

[٦٦] المرجع السابق، ص ٢٦٥.

وسمعوا قوله، كانوا أبعد الناس في الإعتقاد بأنه أحد الأقانيم الثلاثة المكونة لذات الخالق وما كان بطرس تلميذ المسيح يعتبر المسيح أكثر من رجل يوحى إليه من عند الله).

- إن المؤرخ الشهير (ويلز) يستنكر كل هذه المبادئ والشعائر ويرى أنها جميعها موضوعة ولا سند لها من الأناجيل.
- يقول الأستاذ عوض سمعان الباحث القبطي :

إن المتفحص لعلاقة الرسل والحواريين بالمسيح يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على انه إنسان ولم يتصوروا على الإطلاق أنه إله. [٦٧]

وفد نجران النصراني وحواره مع الرسول ﷺ

أوردت كتب السيرة النبوية أن وفدا من نجران قدموا إلى مدينة رسول الله ﷺ، وكانوا ستين راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة أنفار يؤول إليهم أمرهم، وهم: (العاقب) وهو أمير القوم وصاحب مشورتهم ولا يصدرون إلا عن رأيه واسمه عبد المسيح، و(السيد) إمامهم وصاحب رحلهم واسمه الأيهم، وأسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم أبو حارثة بن علقمة، قدموا على رسول الله ﷺ ودخلوا مسجده حين صلى العصر وعليهم ثياب الحبرات، جبات وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب، يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله ﷺ: ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم فصلوا إلى الشرق، فكلّم السيد والعاقب رسول الله ﷺ فقال لهما رسول الله ﷺ: أسلما: فقالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، قد منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير. قالا:

---

[٦٧] الميزان في مقارنة الأديان / محمد عزت طهطاوي، ص ٢٦٥.

إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعا في عيسى، فقال لهم النبي ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟ قالوا بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ؟ وأن عيسى أتى عليه الفناء؟ قالوا بلى، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا: لا، قال فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث، قالوا: بلى قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعت كما تضع المرأة ولدها؟ ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم ويشرب ويُحدث؟ قالوا بلى: قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا.

فأنزل الله عز وجل فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها.

قال المفسرون: إن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا : تقول عنه أنه عبد، قال أجل إنه عبد لله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانا قط من غير أب؟ فان كنت صادقا فأرنا مثله، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون). [٦٨]

الموحدون في النصارى

الشعوب النصرانية لم تخل في تاريخها الطويل من قيام موحدين لله رفضوا أن يشركوا بالله أحدا:

- فهذا (أريوس) المصري في الربع الأول من القرن الرابع الميلادي.
- وهذا (أوريجانوس)
- والأسقف (نسطورا)

---

[٦٨] أسباب النزول / النيسابوري.

- وفي أسبانيا (ميشيل سرفيتوس)
- وفي بولونيا العلامة (سوسيتس)
- **وانتعشت عقيدة التوحيد في بلاد المجريين.**
- وفي هولندا المفكر (توماس اكمبس) في كتابه (على خطى المسيح)
- وفي إنجلترا أعلن المفكر الإنجليزي (جون بيدل) الشك في عقيدة التثليث.
- وصموئيل كلارك يعلن أن الأب وحده هو الإله الأسمى.
- وجون بريستلي: يعرف الإله الذي أنزل الوحي بأنه هو السبب الوحيد لكل الظواهر.
- والمفكر الإنجليزي (جيمس مارتينو) يعلن أن المسيح ليس أكثر من إنسان.
- وفي الولايات المتحدة الأمريكية كان الدكتور (تشارلز شاونسي) راعي كنيسة (بوسطن) يمثل مذهب دعاة التوحيد وكذلك القس (يوناثان ميهو).
- وفي بلجيكا والدانمارك وفرنسا وسويسرا وايسلندا وتشيكوسلوفاكيا هناك كثيرون موحدون لله. [٦٩]

وتقول دائرة المعارف الأمريكية (لقد بدأت عقيدة التوحيد كحركة لاهوتية بداية مبكرة جدا في التاريخ، وفي حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير من عشرات السنين).

- وممن عرف الإسلام وعقيدته النقية الواضحة الأستاذ إبراهيم خليل فيليبس وكان من رجال الدين الإنجيليين وتسمى باسم إبراهيم خليل احمد. ومنهم: زكي النجار والذي تسمى محمد زكي الدين النجار والأستاذ مجدي مرجان والذي تسمى محمد مجدي مرجان، وكذلك الأستاذ: محمد فؤاد الهاشمي. ولقد

[٦٩] الميزان في مقارنة الأديان / محمد عزت طهطاوي، ص ٨٢.

وضعوا العديد من المؤلفات شرحوا فيها رحلتهم العقدية حتى وصلوا إلى الإسلام.

القرآن الكريم يشير إلى معتنقي التوحيد ويبشرهم

لعل الفرق النصرانية التي حافظت على التوحيد النقي وانقرضت قبل ظهور الإسلام هي التي أشار إليها القرآن الكريم وأثنى عليها. أما من أدرك الإسلام وسمع به وبرسالة النبي ﷺ، ولم يؤمن بها فإن هذه الأحكام لا تصدق عليه.

قال تعالى: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين). [٧٠] وقال تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون). [٧١]

وقال تعالى: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا اولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب). [٧٢].

وقال تعالى: (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما). [٧٣]

---

[٧٠] سورة آل عمران الآيات ١١٣- ١١٤

[٧١] سورة البقرة ايه ٦٢.

[٧٢] سورة آل عمران ايه ١٩٩

[٧٣] سورة النساء ايه ١٦٢

وقال تعالى: (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون).[٧٤].

وقال تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[٧٥].

خاتمة

(ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون، وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) [٧٦].

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) [٧٧].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء اخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد) رواه أحمد والبيهقي وأبو داود .

* * * * *

---

[٧٤] سورة المائدة ٦٦

[٧٥] الميزان في مقارنة الأديان / محمد عزت طهطاوي، ص ١٢٣، سورة المائدة آيه ٦٩

[٧٦] سورة مريم الآيات ٣٤-٣٦

[٧٧] سورة آل عمران آيه ٦٤

الندوة الثامنة*

أتباع المسيح في مصادر الوحي الإنجيلي

مسيحيون ونصارى

في مواجهة الرأي: الضعيف يرتجف منه، والجاهل يخالفه والحكيم يدرسه والقوي يقرره، إذا شاطرتني عقيدتي فرافقني، وإذا شاطرتني شكوكي فابحث معي، وإذا وجدت نفسك على خطأ فارجع عنه معي، وإذا وجدتني أنا على خطأ فأرجعني عنه معك (قول للقديس أغسطينوس).

الأب إبراهيم بطارسه**

مقدمه

وهمٌ شائع أن النصارى هم المسيحيون، وأن النصرانية هي المسيحية، زاد هذا الوهم الشائع ترسيخاً في الأذهان أن المستشرقين يترجمون كلمة نصارى بمسيحيين. لكننا إذا ما تدبرنا' الإنجيل وسائر مصادر الوحي الإنجيلي وما تثبته المصادر التاريخية رأينا بوضوح أن المسيحيين غير النصارى عقيدة وإنجيلا، فمن هم النصارى في العهد الجديد؟.

يسوع الناصري ويسوع المسيح

عادة شرقية مألوفة تسمية المعلم والزعيم بالنسبة إلى بلدته أو مسقط رأسه، فلما ظهر يسوع يدعو بين اليهود بدعوته، لقبه أتباعه الأولون والشعب والسلطات اليهودية والرومانية، يسوع الناصري، نسبة إلى بلدته الناصرة التي نشأ فيها، وهذا

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٢٣ نيسان ٢٠٠١

**كاهن رعية اللاتين في ماركا - عمان

اللقب الناصري لا إحراج فيه لمن لا يؤمن بدعوة يسوع أنه المسيح الموعود، وصحابة يسوع الناصري كانوا يؤمنون أنه المسيح ويرادفون بين اللقبين، فيدلون بالأول يسوع الناصري على قوميته، وبالثاني المسيح على عقيدتهم.

الإنجيل بحسب (متى)، الذي دون في البيئة الإسرائيلية، ولها قبل غيرها ينقل في مطلعه اللقب الذي اشتهر به يسوع، فيقول: "وجاء مدينة يقال لها الناصرة فسكن فيها، ليتم ما قيل على لسان الأنبياء: إنه يدعى ناصرياً" (متى ٢: ٢٣)، فيسوع يعرف بالناصري حتى عند الذين يؤمنون أنه المسيح.

وباسم الناصري عرف المسيح يسوع في سيرته ورسالته في البيئة الإسرائيلية، فتلاميذه الأوائل يعرفونه ويعرّفون به بنسبته إلى الناصرة: "ولقي فيليبس نتنائيل فقال له: الذي كتب في شأنه موسى في الشريعة وذكره الأنبياء قد وجدناه، وهو يسوع ابن يوسف من الناصرة" (يو ١: ٤٥)، يسميه ابن يوسف لأنه لا يعرف شيئاً عن أصله وعن مولده المعجز من أم بتول.

وفي ختام دعوته عند دخول يسوع إلى أورشليم عاصمة الدين والدولة حيث يجتمع اليهود لعيد الفصح من أطراف بلدهم ومن أقطار المسكونة، دخول المسيح الموعود، الفاتح الوديع، كما وصفه الأنبياء (زكريا ٩ :٩) تساءل الناس من الغرباء الذين لم يعرفوه: [من هذا؟. فكانت الجموع تقول: هذا هو النبي، يسوع الذي من ناصرة الجليل] (متى ٢٠ : ١٠-١١). ولما قرر السنهيدرين، مجلس اليهود الأعلى، إعدام يسوع لدعواه أنه المسيح ابن البشر النازل من السماء، أرسلوا جنودهم لتوقيفه في بستان الزيتون، في ضيعة جتسماني، قرب أورشليم، [ومعهم المصابيح والمشاعل والأسلحة، وكان يسوع يعلم جميع ما سيحدث له، فخرج وقال لهم، من تطلبون؟ قالوا: يسوع الناصري، قال لهم: أنا هو، وكان يهوذا الذي أسلمه واقفاً معهم، فلما قال لهم، أنا هو رجعوا إلى الوراء ووقعوا على الأرض، فسألهم يسوع

ثانية: من تطلبون؟ قالوا يسوع الناصري (يو ١٨ :٣-٨)٠ وفي محاكم يسوع الدينية كان الخدم في بلاط الحبر الأعظم يلقبون يسوع: الجليلي أو الناصري:] وكان بطرس جالساً خارج الدار في ساحتها، فدنت إليه جارية وقالت: وأنت أيضاً كنت مع يسوع الجليلي، فأنكر أمام جميع الحاضرين وقال: لا أدري ما تقولين، ثم مضى إلى الباب الكبير فرأته جارية أخرى فقالت لمن كانوا هناك: هذا الرجل كان مع يسوع الناصري" (متى ٢٦ :٦٩-٧١)، ففي الأوساط الشعبية والرسمية كان اسمه يسوع الناصري٠ وفي الأوساط الحاكمة كان يعرف كذلك ، وبهذا اللقب كتب الوالي الروماني سبب إعدام المسيح:" وكتب بيلاطس رقعة وجعلها على الصليب وكان مكتوباً فيها: يسوع الناصري ملك اليهود"(يو ١٩:١٩)٠

ففي نظر أتباعه وأنصاره ورسله وفي نظر الشعب كله وفي نظر السلطات الدينية والمدنية، كان يسوع يعرف باسم يسوع الناصري بحسب العوائد الشرقية٠ وليس في هذا اللقب عن المؤمنين من تنكر لدعوة يسوع أنه المسيح، وقد اعترفوا بذلك صريحاً، عندما سألهم: "ومن أنا في قولكم أنتم؟ فأجاب بطرس: أنت المسيح" (مرقس ٨ :٢٩)٠ فبحسب الوطن والقومية هو يسوع الناصري، كما تشهد دعوة الرسل (انظر أعمال ٢ :٢٢، ٣: ٦، ٤ :١٠)، وبحسب الدعوة والرسالة: هو يسوع المسيح، فلا غرابة أن يسمى أتباع يسوع في البيئة الإسرائيلية نصارى أو نصرانيين، وفي البيئة الهلينستية الأممية حيث تعنيهم دعوته أكثر من قوميته المسيحيين، كما سنرى٠ واليهود الذين لم يؤمنوا بيسوع أنه المسيح فضلوا في أوساطهم لقب يسوع الناصري، واسم نصارى لأتباعه منهم، لأنه لا يدل على اعتراف بعقيدة٠ ولم يتحرج اليهود المتنصرون من اسم نصارى لأنه من عوائد بيئتهم، ولأن ليس فيه استثارة لبغض اليهود ليسوع ولهم، ويسمون يسوع على السواء: يسوع الناصري ويسوع المسيح٠

انقسام أهل الإنجيل في الاسم

بعد ارتفاع المسيح حياً إلى السماء ونزول الروح القدس على رسله وصحابته اندفعوا بالدعوة للإنجيل، وطالما بقيت الدعوة محصورة في فلسطين، كانوا يسمون نصارى، فلما انتشرت الدعوة المسيحية في سوريا أخذ الناس يسمونهم المسيحيين.

في الدعوة ليسوع المسيح في أورشليم، قال بطرس زعيم الرسل في خطابه الأول لبني إسرائيل: " يا بني إسرائيل اسمعوا هذا الكلام: إن يسوع الناصري، ذاك الرجل الذي أيده الله لديكم بما أجرى عن يده بينكم من المعجزات والأعاجيب والآيات، كما أنتم تعلمون، ذلك الرجل الذي أسلم بقضاء الله وعلمه السابق فقتلتموه إذ علقتموه على خشبة بأيدي الكافرين، قد أقامه الله وأنقذه من أهوال الموت، فما كان ليبقى رهيناً. فليعلم يقيناً بيت إسرائيل أجمع أن الله أن يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم قد جعله الله رباً ومسيحاً" (أعمال ٢ :٢٢-٣٦).

فيسوع الناصري هو في دعوة الرسل المسيح الرب، ثم جرت معجزة عظيمة على يد بطرس زعيم الدعوة بشفاء مقعد مشهور كان يجلس عند باب الهيكل يستعطي شفاه بطرس باسم يسوع الناصري (أعمال ٣ :٦) فأوقفه السنهيدرين، مجلس اليهود الأعلى، مع يوحنا الرسول رفيقه لاستجوابهما في دعوتهما وفي المعجزة التي سببت إيمان المئات من اليهود بيسوع المسيح. " فقال لهم بطرس وقد امتلأ من الروح القدس: "يا رؤساء الشعب ويا أيها الشيوخ، إذا كنا نستجوب اليوم عن الإحسان إلى عليل ليعرف بماذا نال الخلاص، فاعلموا جميعاً، وليعلم شعب إسرائيل كله أنه باسم يسوع الناصري الذي صلبتموه أنتم فأقامه الله من بين الأموات، بهذا الاسم يقف أمامكم ذلك الرجل معافى. هذا هو الحجر الذي رذلتموه أنتم البناءين، فصار رأس الزاوية، فلا خلاص بأحد غيره. لأنه ما من اسم آخر تحت السماء أطلق على أحد الناس ننال به الخلاص" (أعمال ٤ :١-١٢)

فصحابة المسيح ورسله في بيئتهم اليهودية يجمعون في ألقاب يسوع اللقب النبوي الذي به يؤمنون، المسيح، واللقب القومي الذي به يعرفون، الناصري، فلا بد إذن من أن يسمى اليهود الكافرين بمسيحية يسوع أتباعه: ناصريين أو نصارى بحسب صيغة الجمع الآرامية.

نرى ذلك لما قبض اليهود على بولس الرسول في أورشليم لتقديمه للمحاكمة المدنية لدى الوالي الروماني فيليكس، فرفع الدعوى عليه باسم المجلس اليهودي الأعلى المحامي طرطلس الشهير عندهم، قال: " يا فيليكس المكرم، لا أريد أن أزعجك بكثير الكلام، فأرجو أن تصغي إلينا قليلاً بما أنت عليه من اللطف. وجدنا هذا الرجل آفة من الآفات، يثير الفتن بين اليهود كافة في العالم أجمع، وهو أحد أئمة شيعة النصارى، وقد حاول أن يدنس الهيكل فقبضنا عليه، فتستطيع إذا استجوبته عن هذه الأمور كلها أن تتبين ما نتهمه به، فساند اليهود زاعمين أن الأمور على ذلك". (أعمال ٢٤ :١-١٠)

ففي البيئة اليهودية اسم أتباع المسيح هو: النصارى وهم من بني إسرائيل، ثم انتشرت الدعوة المسيحية خارج فلسطين. وقام بها كطلائع للرسل صحابة المسيح اليهود الهلينيون الذين ولدوا في المهاجر ونشأوا على الثقافة اليونانية، ثم آمنوا بالمسيح، وبسبب ثقافتهم والحرية الدينية التي تعودوا عليها في مهاجرهم، كانوا أجرأ الناس دعوة للمسيحية، حتى في أورشليم، فثارت عليهم السلطات اليهودية وقتلت زعيمهم اسطفان (آمال ٧ :٥٤-٦٠)، وشتتوهم خارج فلسطين، "فاجتازوا حتى فينيقية وقبرص وأنطاكية، وهم لا يدعون بكلام الله إلا اليهود فقط، بيد أن بعضاً منهم كانوا قبرصيين وقيروانيين، فهؤلاء لما دخلوا أنطاكية طفقوا يكلمون الهلينيين أيضاً مبشرين بالرب يسوع، وكانت يد الله معهم، فآمن عدد كبير ورجعوا إلى الرب(أعمال ١١ :١٩-٢١).

وهنا يذكر سفر أعمال الرسل، وهو تاريخ تأسيس المسيحية:" وفي أنطاكية سمي التلاميذ أول مرة مسيحيين"(أعمال ١١ :٢٧) ومنذئذ شاع هذا الاسم مع الدعوة في أقطار الدولة الرومانية، ثم في أقطار الأرض كلها، فالمسيحيون هم من الأميين أي الوثنيين. وهكذا صار اسم تلاميذ المسيح من بني إسرائيل نصارى، وصار اسمهم من الأميين مسيحيين. وهذا الانقسام في الاسم بسبب البيئة المختلفة سيجر إلى انقسام في العقيدة.

انقسام أهل الإنجيل في العقيدة

اختلاف الأمة الواحدة في البيئة والثقافة قد يجر إلى اختلاف في العقيدة، وهذا ما جرى للمسيحية منذ تأسيسها، كما جرى لغيرها، كان أتباع المسيح في أورشليم وفلسطين كلهم من اليهود في بدء الدعوة. وكما كان المسيح مع دعوته بالإنجيل يمارس الشريعة الموسوية كان الرسل صحابته في دعوتهم للمسيحية يمارسون الشريعة الموسوية، فيترددون على الهيكل، ويحفظون الأعياد اليهودية ويحافظون على الختان والسبت والصوم والوضوء قبل الصلاة وسائر أحكام التوراة، لأنها أمست جزءاً من قوميتهم، فكانوا كل يوم يلازمون الهيكل بنفس واحدة (أعمال ٢ : ٤٦) ويصعدون إلى الهيكل للصلاة في أوقاتها (أعمال ٣ :١)، وخارج أورشليم يقيمون الصلاة الإسرائيلية في أوقاتها (أعمال ١٠ :٩) وكان المتحررون منهم كبولس يحافظون على عوائدهم كالنذر التوراتي (أعمال ١٨:١٨). وكانوا يعيدون مع اليهود أعياد الفصح (أعمال ٢٠ :٦) والعنصرة (أعمال ٢ :١، ٢٠: ١٦). وهذه صورة كاملة للحياة النصرانية اليهودية القائمة في حوار يعقوب أسقف أورشليم مع بولس الرسول الذي كان يدعو إلى التحرير من الشريعة الموسوية. قال يعقوب زعيم النصرانية لبولس زعيم المسيحية:

" ترى، أيها الأخ، كم ألف من اليهود قد آمنوا وكلهم ذوو غيرة على الشريعة، وقد بلغهم ما يشاع عنك من أنك تعلّم جميع اليهود المنتشرين بين الوثنيين أن يتخلوا عن موسى، وتوصيهم بألا يختنوا أولادهم ولا يتبعوا السنة، فما العمل؟ لا شك أنهم سيسمعون بقدومك. فاعمل بما نقوله لك: فينا أربعة رجال عليهم نذر، فسر بهم واطهّر (توضأ) معهم، وانفق عليهم ليحلقوا رؤوسهم، فيعرف جميع الناس أن ما يشاع عنك باطل، في حين أنك سالك مثلهم طريق الحفاظ على الشريعة، أما الذين آمنوا من الوثنيين، فقد كتبنا إليهم ما قررناه: بأن يجتنبوا ذبائح الأصنام والدم والميتة والزنى. فسار بولس بأولئك الرجال في غده، فاطّهر معهم ودخل الهيكل وأعلن الموعد الذي تنقضي فيه أيام الاطهار لكي يقرّب فيه القربان عن كل منهم" (أعمال ٢١: ١٧-٢٧).

هذه الصورة تظهر لنا أن أتباع المسيح من اليهود وعلى رأسهم آل بيت المسيح كانوا يقيمون التوراة والإنجيل معا. ويرفعون شعار العماد والختان معاً. هذا محور عقيدتهم الذي يظهر تشيعهم النصراني لموسى والتوراة على حساب المسيح والإنجيل.

مع ذلك فقد كان اتباع المسيح في أورشليم من الفريقين أمة مستقلة في الأمة اليهودية: فهم يتميزون بإيمانهم بيسوع أنه المسيح (أعمال ٢: ٤٢، ٤: ٢، ٥: ٤٢). ويختصون بالعماد لتكريس إيمانهم بالمسيح ونيل الروح القدس الموعود للمعمود " توبوا وليعتمد كل منكم باسم يسوع المسيح لغفران خطاياكم فتنالوا موهبة الروح القدس" (أعمال ٢: ٣٨). وكانت لهم خلواتهم للتعليم وإقامة القربان: " وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والمشاركة وكسر الخبز (القربان) والصلوات" المسيحية الخاصة (أعمال ٢: ٤٢). ويخرجون من خلواتهم وصلواتهم ممتلئين غيرة على الدعوة الإنجيلية (آمال ٤: ٣١)، " وكان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع

تصحبها بقوة عظيمة (أعمال ٤: ٣٣)، " وكانوا لا ينفكون كل يوم في الهيكل وفي البيوت يعلمون ويبشرون بأن يسوع هو المسيح " (أعمال ٥: ٤٢).

لكن بدأت المشاكل تظهر عندما آمن بعضهم من الأميين المشركين، وعلامة شركهم أنهم غير مختونين، فهل يحق التخالط بين النصراني من أصل يهودي والمسيحي من أصل وثني، وهل يحق له أن يدخل بيته وأن يأكل منه، فاحتاج بطرس إلى رؤيا معجزة وأمر رباني حتى تجرأ على دخول بيت القائد الروماني كورنيليوس في قيصرية لهدايته وتعميده، (أعمال ١٠)٠ مع ذلك فقد خاصمه نصارى أورشليم قائلين: "فلما صعد بطرس إلى أورشليم أخذ المختونين يخاصمونه، قالوا: لقد دخلت إلى أناس قلف وأكلت معهم" (أعمال ١١: ١-٣) فشرح لهم بطرس أنه فعل ذلك بأمر رباني، وثبته الله بحلول الروح القدس على المهتدين من الأميين، كما حل على الرسل أنفسهم٠ " فلما سمعوا ذلك هدءوا ومجدوا الله وقالوا: قد وهب الله إذن للوثنيين أيضاً التوبة التي تؤدي إلى الحياة" (أعمال :١٨)٠

فالمشكل الأول الذي واجه الجماعة المسيحية هو المؤالفة بين أهل الكتاب والإميين في الإيمان بالمسيح: **هل المهتدي إلى المسيح من الأمم عليه أن يتهود مع إيمانه بالمسيح حتى تصح مسيحيته؟**٠ وانتشرت الدعوة المسيحية بين الأميين٠ وتكاثر عدد المسيحيين من الأمم حتى فاق عدد أهل الكتاب من اليهود المتنصرين٠ واستناداً إلى مثل بطرس مع كرنيليوس كانوا يهتدون دون أن يتهودوا ويخضعوا لشريعة موسى والختان، فظهر بين أتباع المسيح سلوك في الحياة المسيحية متعارض: **النصارى اليهود ظلوا يقيمون شريعة موسى مع العماد والإيمان بالمسيح، والمسيحيون من الأمم يعتنقون المسيحية من دون اليهودية وشريعتها،** وسرعان ما ذر الشقاق قرنه بين الفريقين المؤمنين إيماناً واحداً: ما هو موقف الدعوة المسيحية من الشريعة الموسوية؟ هذا هو السؤال الكبير الذي هز المسيحية

في مطلع دعوتها، على عهد الرسل، والذي يملأ مصادر الوحي الإنجيلي بعد الأناجيل.

وجاء الجواب مختلفاً باختلاف البيئة، فالنصارى اليهود يقولون بإقامة التوراة والإنجيل معاً بلا تفريق، والمسيحيون من الأمميين يقولون بإقامة الإنجيل وحده الشريعة الموسوية والختان. وتزعم مقالة النصارى آل بيت المسيح، وعلى رأسهم أبناء كليوبا، عم المسيح بحسب البشرية، الذين كانوا يسمونهم لهذه القرابة إخوة الرب. وكانت منزلتهم عندهم تضاهي منزلة الرسل، صحابة المسيح، ولذلك أمّروهم أساقفة عليهم في أورشليم من دون الرسل أنفسهم، فكان زعيمهم وزعيم آل بيت المسيح يعقوب [1] أول أسقف على أورشليم، بوجود الرسل أنفسهم، وبدأ يظهر تشيعهم للشريعة ولآل بيت المسيح على حساب المسيحية العامة، عند هداية جماعة الفريسيين (اعمال ١٥: ٥)

وتزعم مقالة المسيحيين من غير أهل الكتاب بولس الرسول، رسول الأمم منذ هدايته وبعثته، فكان في رسالاته ورسالته، إيلافاً للدعوة المسيحية بين الأمم غير الكتابية، يدعو إلى تحرير المسيحية من اليهودية وشريعتها وختانها. وكان اليهود في مهاجرهم، ويسمونهم اليهود الهلينيين، أقرب إلى موقف بولس، لتعودهم على الحياة بين المشركين من الأمميين، وعلى التسامح الديني معهم، وكانوا عنصراً أساسياً في الكنائس التي أسسها بولس في العالم السوري والإغريقي. وكان الرسل صحابة المسيح، القيمون على دينه يراقبون الصراع الناشب بين فريق النصارى اليهود المحافظين ، بزعامة يعقوب، وفريق المسيحيين من اليهود الهلينيين والأمميين

---

[1] كان يعقوب في نظر النصارى من بني إسرائيل بحسب التقليد الشرقي خليفة المسيح، وعلى هذا الأساس كانت منزلته منزلة أول خلق الله، جاء في إنجيل توما المنحول المؤلف عام ١١٤ قول للمسيح: "قال التلاميذ ليسوع: نعلم أنك ستفارقنا، فمن يكون العظيم علينا من بعدك؟ فقال لهم يسوع: حيثما كنتم فاذهبوا إلى يعقوب، فمن أجل يعقوب خلق السماء والأرض (قول ١٢).

الأحرار بزعامة بولس، وانتظر الرسل المناسبة ليفتوا في المشكل الضخم والصراع المتأزم.

وانفتحت معركة تحرير المسيحية من الموسوية وختانها، وكان لكل فريق حججه في تأييد نظريته. فريق النصارى اليهود المحافظين، يستند إلى عوامل عديدة في فهم المسيحية فهماً إسرائيلياً توراتياً يهوديا.

- إنه يعتمد على وعد الله لإبراهيم أن تتبارك بنسله أمم الأرض كلها. والمسيح نسل إبراهيم الأعظم كان في نظرهم يهودياً، فعلى كل مسيحي، لكي تصح نسبته إلى المسيح نسل إبراهيم أن يتهود.
- وشريعة موسى في عرفهم أزلية لا تنسخ، فلا تصح مسيحية بدونها.
- المسيح عاش كيهودي، والرسل صحابته يسلكون مع إيمانهم بالمسيح والدعوة له كيهود، فعلى كل مسيحي أن يقتدي بهم، ويتهود في سلوكه لتصح مسيحيته.
- وكنيسة المسيح كلها في أورشليم، وعلى رأسها الرسل، كانوا يقيمون أحكام التوراة مع أحكام الإنجيل وأورشليم هي أم الكنائس، فما على سائر الكنائس إلا أن تقتدي بالكنيسة الأم.
- [بولس] نفسه زعيم الدعوة للتحرير من الموسوية، كان يمارس شريعة موسى بين اليهود، خصوصاً في أورشليم (أعمال ٢١: ١٧-٢٧) فليست دعوته للتحرير من شريعة موسى في نظرهم سوى تملق للأميين لإيلافهم.

وكان الرسول [متى] في هذه الأثناء يدون الإنجيل في البيئة الإسرائيلية الفلسطينية، ونقل في خطاب المسيح التأسيسي مبدأه: " لا تظنوا أني جئت لأنسخ

الشريعة أو الأنبياء، ما جئت لأنسخ بل لأكمل"(متى ٥: ١٧)٠ ففهم النصارى اليهود من هذا المبدأ أن الموسوية وشريعتها أساس، والإنجيل تكميل٠ ولا يقوم تكميل بدون أساس: فلا تصح مسيحية بدون شريعة موسى٠ فماذا يزعم بعد هذا دعاة التحرير المسيحي مثل بولس؟!

وكان فريق المسيحيين الأحرار بزعامة بولس رسول الأمم ينادون بنسخ الشريعة بالإنجيل، فالخلاص المسيحي هو بالإيمان، لا بأعمال الشريعة: "نحن يهود بالولادة ولسنا من الوثنيين الخاطئين، ومع ذلك فنحن نعلم أن الإنسان لا يبرر بالعمل بأحكام الشريعة، بل بالإيمان بيسوع المسيح، ونحن أيضا آمنا بالمسيح يسوع لكي نبرّر بالإيمان بالمسيح، لا بالعمل بأحكام الشريعة فإنه لا يبرر أحد من البشر بالعمل بأحكام الشريعة"(غلاطية ٢: ١٥-١٦)٠

أجل، شرع المسيح في الإنجيل: "ما جئت لأنسخ الشريعة والنبيين، بل لأكمل"٠ ولكن تكميل الشريعة بالإنجيل كان في الواقع نسخاً لها، لأننا بدعوة الإنجيل دخلنا في العهد التجديد الذي فتحه بالعشاء الوداعي قبل استشهاده (متى ٢٦: ٢٨)، فالمسيح ما نسخ الشريعة على حياته، لكنه نسخها بدمه على الصليب: فالخلاص بدم المسيح لا بشريعة موسى، ومبدأ المسيح أن الإنجيل تصديق وتفصيل للتوراة لا ينطبق إلا على الكلمات العشر، كما نرى المسيح نفسه يطبق المبدأ عليها، (متى ٥-٦)، ونراه ينسخ تشريع الطلاق (متى ١٩) والتحريم في الأطعمة (مرقس ٧)٠

فالشريعة كانت المربي الهادي إلى المسيح المصطفى، فلما جاء المسيح تم ملء الزمان، وتمت كلمة الله صدقاً وعدلاً، فما من حاجة بعد إلى مربّ يقودنا إلى المسيح (غلاطيه ٣: ٢٣-٢٩)٠ لقد استنفدت الشريعة أغراضها، وحل عهد

النعمة محل عهد الشريعة: "لأن الشريعة أعطيت عن يد موسى، وأما النعمة والحق فقد أتيا عن يد يسوع المسيح"(يوحنا ١:١٧)٠

والعهد القديم في سيناء كان أمانة بيد آل موسى، فلربما جاء العهد الجديد بالمسيح بلغ العهد كماله، وانتقلت أمانته إلى المؤمنين من العالمين: فلا حاجة بعد إلى أحكام العهد العتيق: "فإنه إذ يقول "عهد جديد" فقد جعل العهد الأول قديماً، وكل شيء قدم وشاخ يصبح قريباً من الفناء" (عبرانيين ٨: ١٣)٠ والوعد بالنسل المبارك المصطفى على العالمين ليس لليهود وحدهم، بل للعالمين، بينما الشريعة كانت لليهود وحدهم، بل للعالمين، بينما الشريعة كانت لليهود وحدهم، فلما تحقق الوعد بمجيء المسيح للعالمين تخطى الوعد الشريعة، والوعد كان قبل الشريعة، فلما تحقق أغلق عليها ونسخها(غلاطية ٣: ١٥٦-١٨)٠وقبل ارتفاع المسيح إلى السماء أمر صحابته بالدعوة بالإنجيل إلى الخلق أجمعين (خاتمة مرقسي)، لكي يجعلوا جميع الأمم تلاميذ للمسيح (خاتمة متى) في كل مكان(خاتمة لوقا)٠ فالمهتدون بالإنجيل من الأمم هم تلاميذ عيسى، لا تلاميذ موسى، لذلك فحصر المسيحية في الموسوية يجعلها ديناً قومياً كغيرها، ويحد من فعالية الإنجيل في العالمين٠ فالمسيحية دين عالمين لا يتقيد بشريعة قومية كشريعة موسى٠

واحتدم الجدال والصراع بين النصارى اليهود بزعامة يعقوب، زعيم آل بيت المسيح وأسقف أورشليم، وبين المسيحيين من الأميين بزعامة بولس وبرنابا، وكان مركز نشاط النصارى في أورشليم، ومركز نشاط المسيحيين في أنطاكية٠ "ونزل أناس من اليهودية وأخذوا يلقنون الأخوة فيقولون: إذا لم تختتنوا على سنة موسى لا تستطيعون أن تنالوا الخلاص، فوقع بينهم وبين بولس وبرنابا خلاف وجدال شديد، فعزموا أن يصعد بولس وبرنابا، وأناس منهم آخرون إلى أورشليم حيث الرسل والشيوخ للنظر في هذا الخلاف"٠(أعمال ٥: ١-٢) وكانت المناسبة

التي ينتظرها الرسل للبت في الجدال القائم بين المسيحيين والنصارى. فانعقد في أورشليم مجمع الرسل بحضور يعقوب وسائر آل بيت المسيح من الأساقفة وحضور الوفدين المتنازعين، فكان المجمع المسكوني الأول في تاريخ الكنيسة وذلك عام ٤٩ ميلادية، "فاجتمع الرسل والشيوخ لينظروا في هذه المسألة" (أعمال ١٥: ٦) وفي مطلع الجلسة الأولى: "قام أناس من الذين كانوا على مذهب الفريسيين ثم آمنوا فقالوا: يجب ختن الوثنيين(إذا آمنوا بالمسيح) وتوصيتهم بالحفاظ على شريعة موسى"(أعمال ١٥: ٥)، فتهويد المسيحية بدأ بدس الفريسيين المتضررين، فجرت مباحثة عظيمة (أعمال ١٥: ٦-٧)، فحسم بطرس زعيم الرسل الجدال وأفتى بتحرير المسيحيين من غير اليهود من شريعة موسى، "فسكت الجماعة كلهم ". وانتصرت نظرية بولس (أعمال ١٥:٦-١٢)، وتحررت المسيحية من الموسوية.

لكن جماعة المحافظين حرضوا [يعقوب] على التوسط في الأمر للتعايش السلمي بين أهل الختان من النصارى اليهود وبين المسيحيين من الأميين، لأن اليهود، وإن آمنوا بالمسيح، فقد ظلوا بسبب رواسب قوميتهم التوراتية يأنفون من مخالطة غير المختونين، وإن كانوا معهم على إيمان واحد بالمسيح والإنجيل. فتوسط يعقوب أسقف أورشليم وزعيم آل بيت المسيح: "أيها الاخوة اسمعوا لي، روي لكم بطرس كيف عني الله أول الأمر بأن يتخذ شعباً لاسمه من بين الوثنيين، وهذا يوافق كلام الأنبياء، لذلك فإني أرى ألا يضيق على الذين يهتدون إلى الله من الوثنيين، بل يكتب إليهم أن يجتنبوا نجاسة الأصنام والزنى والميتة والدم، فإن لموسى منذ الأجيال القديمة دعاة في كل مدينة، فهو يقرأ كل سبت في المجامع"(أعمال ١٥: ١٣-١٥، ١٩-٢١). فوافق المجمع على هذا الحل العملي الوسط الذي ينظم التعايش بين الفريقين، وكتبوا بذلك إلى أنطاكيه:

"لقد حسن لى الروح القدس ولدينا ألا يلقى عليكم من الأعباء سوى ما لا بد منه، وهو اجتناب ذبائح الأصنام والدم والميتة والزنى، فإذا احترستم منها تحسنون عملاً، والسلام عليكم" (أعمال ١٥: ٢٨-٢٩).

فمجمع الرسل والأساقفة يشرع باسم الله وبسلطان الروح القدس فيهم، وكانت شرعته الأولى تحرير المسيحيين من الأميين من الشريعة الموسوية، إلا في أكل الدم والمخنوق، ولا مكان للتعايش السلمي بين النصارى والمسيحيين. ومما يجدر الإشارة إليه أن المجمع لم يتطرق إلى بحث قضية ضرورة الشريعة الموسوية للمتنصرين من اليهود أو عدمها. فظل النصارى اليهود يقيمون التوراة والإنجيل معاً، وتحرر المسيحيون من الأميين من التوراة وأحكام الشريعة، واكتفوا بإيمان بالمسيح وإقامة الإنجيل من دون التوراة.

وهذا السلوك المختلف في الجماعة الواحدة شق المسيحية منذ تأسيسها إلى سنة وشيعة: سنة المسيحيين الذين يتبعون شرعة الرسل في مجمع أورشليم؛ وشيعة النصارى اليهود الذين ظلوا يقيمون التوراة والإنجيل معاً بزعامة آل بيت المسيح ويعقوب أسقف أورشليم، الذين أمروهم أساقفة عليهم منذ تأسيس الكنيسة في أورشليم حتى طرد اليهود وكل مختون نصراني منها [١٣٥]، في الحرب الرومانية اليهودية الثانية.

وتظهر ذيول هذا الانقسام إلى سنة وشيعة في تمرد غلاة النصارى اليهود على شرعة مجمع الرسل ومحاولتهم فرض الشريعة الموسوية على المسيحيين في العالم السوري والإغريقي والروماني وملاحقة بولس في كنائسه من أنطاكية إلى فيليبي إلى كورنتوس إلى روما، والانتقاص من حقه في الرسالة المسيحية وتشويه سمعته، واعتباره مرتداً، فكانوا بذلك الأخوة الكذبة (غلا ٢: ٤) الذين يعملون عمل اليهود لخنق المسيحية في مهدها. بعد مجمع الرسل تجول [بطرس] الزعيم

يتفقد الكنائس حتى وصل إلى أنطاكية، وكان يخالط المسيحيين من الأمميين غير المختونين، ويصلي معهم، ويأكل معهم، ويدخل بيوتهم ويدخلون بيته، فبلغ ذلك إلى مسامع المتطرفين من أورشليم، فأوفدوا إلى انطاكيه مراقبين من عند [يعقوب]، فلاموا بطرس على مخالطة غير المختونين، وإن كانوا مسيحيين، فامتثل لهم حسماً للنزاع، "لما قدم صخر [بطرس] إلى انطاكيه قاومته وجها لوجه، لأنه يستحق اللوم: ذلك أنه قبل أن يحضر قوم من عند [يعقوب] كان يؤاكل الوثنيين، فلما قدموا أخذ يتوارى ويتنحى خوفاً من أهل الختان، فجاراه سائر اليهود في ريائه، حتى إن برنابا انقاد هو أيضاً إلى ريائهم، فلما رأيت أنهم لا يسيرون سيرة قويمة كما تقضي حقيقة البشارة قلت لصخر أمام جميع الإخوة: إذا كنت أنت اليهودي تعيش عيشة الوثنيين لا عيشة اليهود فكيف تلزم الوثنيين أن يسيروا سيرة اليهود" ؟ (غلاطيه ٢: ١١-١٤).

وكاد سلوك [بطرس] المتردد يجر إلى القطيعة بين النصارى والمسيحيين، لأن سلوك زعيم المسيحية شرع يثبت النصارى في تشيعهم لشريعة موسى، ويوهم المسيحيين أن الإيمان بالمسيح لا يكفي وحده للخلاص بدون الشريعة، وقد قرر مجمع الرسل تحرير المسيحية من اليهودية. وفي خطاب ناري في الكنيسة أعلن [بولس] حقيقة الإنجيل أن الخلاص بالإيمان بيسوع المسيح لا بأحكام الشريعة الموسوية(غلا ٢: ١٥-٢١)، فكسب [بولس] الجولة وانصاع [بطرس] للوم [بولس]، ثم أكمل سفره إلى روما يرأس الدعوة فيها ولحقه في ما بعد [بولس] أسيراً، واستشهدا معاً في سبيل المسيحية المتحررة المحررة.

لكن صراع غلاة النصارى مع [بولس] لم يتوقف، فاندس قوم منهم في كنيسة غلاطية، وكادوا يردّون المسيحيين فيها إلى إنجيل غير إنجيل المسيح الذي دعاهم إليه [بولس]، وكان بولس منهمكاً في تدريس المسيحية في مدرسة افسس،

عاصمة آسيا الرومانية، فكتب رسالته النارية إلى أهل غلاطية، يحذرهم من تحريف النصارى اليهود لإنجيل المسيح مبشرين بإنجيل آخر يقول بضرورة الشريعة للخلاص بالمسيح. "عجبت لسرعة ارتدادكم هذا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى بشارة أخرى، وما من بشارة أخرى، بل هناك قوم يلقون البلبلة بينكم، وبغيتهم أن يبدلوا بشارة المسيح، فلو بشرناكم نحن أو بشركم ملاك من السماء بخلاف ما بشرناكم به فليكن ملعوناً (غلاطية ١: ٦-١٠)، وأعلن لهم نسخ الإنجيل للشريعة، وفضل الإيمان على أحكام الشريعة، لأن النبوة لله هي في الإيمان بالمسيح لا في شريعة موسى (غلا ١: ٤-٨)، وقال: " فما الختان بشيء ولا القلف بشيء، بل الشيء هو الخلق الجديد" في الإيمان بالمسيح (غلا ٦: ١٥) ثم يدعوهم إلى مقاطعة النصارى اليهود الذين يحرفون إنجيل المسيح: "فأنتم، أيها الأخوة، أولاد الموعد على مثال إسحق، وكما كان المولود بحكم الجسد يضطهد المولود بحكم الروح في ذلك الحين، فمثل هذا يجري اليوم[٢] ، ولكن ماذا يقول الكتاب؟ يقول: اطرد الأمَة وابنها، فإن ابن الأمَة لن يرث مع ابن الحرُة، فلسنا نحن إذن، أيها الأخوة، أولاد الأمَة، بل أولاد الحرُة، إن المسيح قد حررنا تحريراً، فاثبتوا إذن ولا تدعوا أحداً يعود بكم إلى نير العبودية" (غلاطية ٤: ٢٨-٥: ١)، فربح [بولس] الجولة الثانية في تحرير المسيحية.

وبلغ غلاة النصارى إلى بلاد اليونان وبلبلوا كنيسة كورنتوس وشقوها ثلاثة أحزاب: حزب [بولس] وحزب [ابولس] وحزب [كيفا]، أي [بطرس] في غير مكان تستروا باسم [يعقوب]، وفي كورنتوس يتسترون باسم [بطرس] ويعلون فصاحة [ابولس] على بساطة [بولس]، وكان البلبال عظيماً في كورنتوس، فأوفد

[٢] جاء في بعض كتب التفسير اليهودية أن إسماعيل كان يضطهد اسحق، فإسماعيل يمثل الذين يضطهدون المسيحيين ويريدون إخضاعهم للختان، فلا بد من طردهم كما طرد اسماعيل.

[بولس] إليهم مبعوثية ومعهم رسائل منه، وما هدأت الأحوال حتى حضر [بولس] بنفسه إليهم وردهم إلى انجيل المسيح الصحيح، فربح الجولة الثالثة في تحرير المسيحية من اليهودية. فانتقل غلاة النصارى إلى مكدونية، وفتنوا كنيسة فيليبي، حينئذ طفح الكيل مع [بولس] فكتب إلى أهل فيليبي: "احذروا الكلاب (أي اليهود والنصارى الذين يتعاونونهم عليه) احذروا العملة الأشرار، احذروا ذوي الجب، (أي الختان تهكماً بأنصاره)، فإنما نحن ذوو الختان الذين يؤدون العبادة بروح الله ويفتخرون بالمسيح يسوع" (فيليبي ٣: ٢-٣)، فربح [بولس] الجولة الرابعة في تحرير المسيحية من اليهودية.

وبعدما انتهى [بولس] من الدعوة في الشرق أراد حمل الرسالة إلى الغرب، فكتب رسالته العظيمة إلى أهل روما يهيئ بها قدومه إلى عاصمة المسكونة ويعرض فيها فضل الإنجيل على التوراة، وموقف المسيحية من الشريعة الموسوية: إن الخلاص بالإيمان بيسوع المسيح لا بشريعة موسى، وربح بولس الجولة الخامسة في تحرير المسيحية في روما عاصمة المسكونة.

لكن النصارى من بني إسرائيل وغلاتهم من الفريسيين المتنصرين (أعمال ١٥: ٥) جمدوا على تشيعهم لشريعة موسى ولإمامة آل بيت المسيح حتى النهاية، هذا ما نراه في حديث [يعقوب] زعيم النصرانية [لبولس] زعيم المسيحية لما حمل إلى فقراء أورشليم تبرعات المسيحيين من الأميين، وفيه يحمل على ممارسة شعائر الموسوية في أورشليم على ما نقلناه.(اعمال ٢١:١٧-٢٧). وهكذا على عهد الرسل صحابة المسيح أنفسهم انقسم أهل الإنجيل إلى سنة تقيم الانجيل من دون التوراة، وشيعة تقيم التوراة والإنجيل:سنة المسيحيين "وفي انطاكيه سمي التلاميذ أول مرة مسيحيين" (أعمال ١١: ٢٦) "وشيعة النصارى من بني إسرائيل" (أعمال ٢٤: ٥). فالمسيحيون من الأميين يسلكون بحسب سنة الرسل في مجمع

أورشليم، فيقيمون الإنجيل من دون التوراة والنصارى من بني إسرائيل يقيمون الإنجيل والتوراة معاً، فيتشيعون لشريعة موسى ولإمامة آل بيت المسيح الذين أمروهم أساقفة عليهم من دون الرسل وبحضورهم وعلى حياتهم، وهذا الفصل الأول كان الصراع على الشريعة الموسوية، وقد وقعت أحداثه قبل اسر [بولس] في فلسطين ثم في روما.

والفصل الثاني الصراع على العقيدة في المسيح مدة أسر [بولس] حتى استشهاده عام (٥٧-٦٧)، ولما اسر [بولس] ظن الفريسيون المتنصرون أن الفرصة واتتهم للجهر بعقيدتهم في المسيح. فاعتمدوا الغنوص، أي العلم الهلنستيه واليهودية في الكلام النصراني لتفصيل الإنجيل وأخذوا يدعون أن المسيح هو ابن الله على المجاز لا على الحقيقة، فهو مخلوق لا رب معبود. ومنذئذ اتصف الكلام النصراني بأسلوب الغنوص.

وبلبلوا كنائس [بولس] في آسيا الرومانية ومكدونيه، فرد عليهم [بولس] في رسائله الغنوصية الثلاث: سر المسيح في ذاته إلى أهل فليبي، سر المسيح في الكون إلى أهل كولوسي، سر المسيح في الكنيسة لأهل افسس، فانتصرت المسيحية على النصرانية. لكن البدعة استمرت في النصرانية وظهرت فيها طلائع الردة، فهرع أئمة النصارى من آل بيت المسيح يدافعون عن عقيدتهم في المسيح، وهرع أئمة المسيحية يحذرون النصارى من البدعة والردة في تشيعهم للتوراة والتوحيد الكتابي على حساب الإنجيل والإيمان الصحيح بيسوع المسيح.

موجز تاريخ النصارى

لقد ثبت لنا من مصادر الوحي الإنجيل أن اسم النصارى محصور باتباع المسيح من بني إسرائيل، بخلاف اتباع المسيح من الأمم الذين عرفوا منذ تأسيس المسيحية باسم

مسيحيين (اع ١١: ٢٦، قابل اع ٢٦: ٢٨، ١ بطر ٤: ١٦)٠ وثبت لنا أيضاً خصوصاً من سفر أعمال الرسل ورسائل بولس، أن النصارى من بني إسرائيل كانوا شيعة بالنسبة للسنة المسيحية، وذلك بسبب تشيعهم لشريعة موسى ولإمامة آل بيت المسيح عليهم، ولإظهار حق آل بيت المسيح بالإمامة على الرسل صحابة المسيح كانوا يسمون أبناء عم المسيح اخوة الرب أو السياد، وكانوا يعتبرون يعقوب زعيم آل بيت المسيح، وأول أسقف على أورشليم، خليفة المسيح بحسب التقاليد الشرقية٠

وثبت لنا أخيراً من الرسائل الكاثوليكية أن تشيعهم أدى بهم في آخر العهد الرسولي إلى البدعة والردة والانحراف.والآن نرى أن تاريخ النصارى يؤكد كيف جرهم تشيعهم إلى البدعة والردة في العقيدة المسيحية، لتاريخ النصارى ثلاث مراحل:

١- من ارتفاع المسيح إلى الحرب السبعينية
٢- ما بين النكبتين عام ٧٠-١٣٥
٣- تشتتهم في الإمبراطورية الرومانية حتى إعلان المسيحية دينا للدولة عام ٤٢٥

من ارتفاع المسيح إلى النكبة الأولى عام ٧٠

تلك الفترة تسمى العهد الرسولي، وهو عهد دعوة الرسل، صحابة المسيح، وتأسيس المسيحية في الإمبراطورية الرومانية، في هذا العهد الرسولي، ظل النصارى على الصراط المستقيم في العقيدة الإنجيلية، مع تشيعهم بإقامة الإنجيل والتوراة معاً، طالما بقي يعقوب على رأسهم٠

حادثان خلفا النزاع الأول في المسيحية، فشقاها إلى شيعة وسنه: إلى نصرانية ومسيحية٠

الحادث الأول: دعوة [بولس] للمسيح بين الأمميّين، وكان يبنى دعوته على استقلال المسيحية عن الموسوية.

الحادث الثاني: دخول الفريسيين في الدعوة الإنجيلية، ومحاولتهم تهويدها، وفرض الشريعة الموسوية على المهتدين من الأمميين: "إن قوماً من الذين آمنوا من مذهب الفريسيين نهضوا وقالوا: أنه يجب أن يختتنوا ويؤمروا بإقامة شريعة موسى" (اع ١٥: ٥)، ويرى [بولس] في هداية هؤلاء الفريسيين حركة مشبوهة: ففي مؤتمر الرسل والكهنة بأورشليم (عام ٤٩)، "أن تيطس الذي كان معي، هو هليني، لم يضطر إلى الختان، رغماً عن الدخلاء، الأخوة الكذبة، الذين اندسوا خلسة في ما بيننا، ليتجسسوا حريتنا، تلك التي لنا في المسيح يسوع بقصد أن يستعبدونا، غير أن لم ننقد لهم في شيء ولا لحظة، لتدوم لكم حقيقة الإنجيل" (غلا ٢: ٣-٥).

وبما أن مركز الدعوة الإنجيلية بين الأميين كان في أنطاكية، فقد حضر وفد من الفريسيين المتنصرين إليها وأثار النزاع في ضرورة شريعة موسى للمهتدين إلى المسيحية من الأمميين: "وانحدر من اليهودية قوم يعلمون الأخوة قائلين: إنكم إن لم تختتنوا بحسب شريعة موسى فلا تستطيعون أن تخلصوا. وإذ جرت بينهم وبين [بولس وبرنابا] منازعة حادة في المباحثة، جزموا أن يصعد [بولس وبرنابا] ونفر آخرون منهم إلى أورشليم إلى الرسل والكهنة، للنظر في هذه المسألة" (أعمال ١٥: ١-٢).

فانعقد المؤتمر الأول في المسيحية من الرسل وآل بيت المسيح والكهنة والشيوخ، وجرت مباحثة في المسألة فحسم القضية [بطرس] زعيم الرسل بتحرير الأميين المهتدين إلى المسيح من شريعة موسى والختان، وأيده زعيم آل بيت المسيح [يعقوب] " فسكت الجمهور كله" (اع ١٥:٢-١٨).

وترك المؤتمر أهل الكتاب المتنصرين أحراراً في إقامة الإنجيل والتوراة معاً، فأقاموا على إقامة التوراة مع الإنجيل، على مثال يعقوب وآل بيت المسيح. نزاع عظيم في سبيل الشريعة والإنجيل! ونرى عقيدة النصارى في رسالة يعقوب إلى الأسباط الاثني عشر في الشتات: إنها الإنجيل بلغة توراتية. وكان يعقوب في نظرهم خليفة المسيح بينهم، وكان من أولياء الله بالزهد والقداسة والمواظبة على شعائر الهيكل الإسرائيلي مع تكميل الإنجيل، فكان بهذا السلوك المزدوج المثال الأكبر للنصارى من بني إسرائيل، حتى كانوا يسمونه سور الشعب(اوسابيوس، تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٥ ع ٣). ومع ذلك لم يسلم يعقوب، زعيم آل بيت المسيح من اضطهاد اليهود، في عام ٥٩ كان بولس أسيراً في قيصرية فلسطين، فاستأنف دعواه، كمواطن روماني إلى محكمة قيصر بروما، ولما افلت بولس من يد اليهود وبدأت تردهم الأخبار من روما بتبرئتة ودعوته الكاسحة، ارتد غضبهم على يعقوب أسقف أورشليم، لأنه ربما ساعد على نجاة بولس من قبضتهم، وأخذوا يتربصون به الدوائر، حتى خلت فلسطين من وال روماني ما بين موت الوالي فستس، الذي أرسل بولس إلى محكمة قيصر في روما، مع توصية حسنة به ومجيء الوالي البينوس خلفاً له. فجمع الحبر الأعظم حنان الثاني السنهدرين مجلس اليهود الأعلى، واستصدر فتوى بقتل يعقوب لإيمانه بيسوع انه المسيح، فحملوه إلى قمة سور الهيكل وطرحوه إلى الوادي، حيث أجهزوا عليه بالرجم(اوسابيوس، تاريخ الكنيسة، ك٢ ف ٢٣ ع ٧، وكذلك يوسيف الآثار اليهودية ك ١٨ ف ٣ ع ٣)

وباستشهاد يعقوب (عام ٦٢)، وفي اسر بولس بروما، انتقل الحزب الفريسي النصراني إلى الفصل الثاني من تشيعه: يجعل المسيح من منزلة موسى، النبي الموعود"مثله". وقد رأينا الرد عليهم في رسائل بولس وفي الرسائل الكاثوليكية مع الرسالة إلى العبرانيين. ولما قامت ثورة اليهود على الاستعمار الروماني (عام ٦٦

-٧٠)، كانت المسيحية قد انشقت إلى سنة وشيعة: سنة المسيحيين من الاميين، وشيعة النصارى من بني إسرائيل.

النصارى ما بين النكبتين ٧٠-١٣٥

اندلعت الثورة اليهودية على الدولة الرومانية (عام ٦٦)، فجاء الجيش الروماني بقيادة فسبسيانس وابنه تيطس لتأديب اليهود، وحاصروا أورشليم، وقبل الحصار قام أحد الأنبياء وحذر النصارى من الحصار المقترب، وذكرهم بكلمة المسيح ووصيته بالهرب من أورشليم واليهودية إلى شرق الأردن، وأقاموا في بلّة وفي كوخبه، فسلموا من الحصار والدمار. وكان الحصار وحشياً، وأكل الناس فيه بعضهم بعضاً، على ما ذكر اوسابيوس في كتابة تاريخ الكنيسة، ك٣ف٥و٦) نقلاً عن المؤرخ اليهودي يوسيف في الحرب اليهودية ك ٥و ٦ .

فمحى الرومان أورشليم محواً، ولم يتركوا فيها حجراً على حجر، فتمت بذلك نبوءة المسيح فيها. وكان ذلك (عام ٧٠) أي نحو أربعين سنة من نبوءة المسيح.

وبعد سحق الثورة، وخراب المدينة المقدسة وهيكلها العظيم، واستتاب الأمر للرومان، سمحوا بإعادة بناء الهيكل الذي تحول إلى حصن أخيراً أثناء الحصار. بل بنى الرومان على أنقاضه معبدا لجوبيتر. فسقطت ممارسة الديانة عندهم، كما سقطت دولتهم.

وفي هذه الحرب اليهودية دمر الرومان أيضا أديرة قمران للرهبان الاسينيين من اليهود. فخبأوا كتبهم في أكناف مغاور الدير، فجاء الحريق عليها، وسلم منها ما سلم حتى اكتشفوه حديثا. وفي (عام ٧٦) رجع معظم نصارى أورشليم إليها، والى اليهودية، مع سمعان أخي يعقوب على رأسهم. وكانوا قد اتعظوا بما جرى للمدينة المقدسة، وللهيكل عنوان فخرها. ولكنهم ازدادوا انعزالا بإقامة التوراة مع الإنجيل،

عن سائر العالم المسيحي، بالرغم من الرسالة إلى العبرانيين، التي جاءتهم مدة الهجرة والحصار، تحذرهم من البدعة والردة.

وكانت العبرة أكبر عند رهبان قمران الذين صعقهم تتميم نبوة المسيح بأمتهم ودولتهم وهيكلهم. سارع الكثير منهم ومن جماعاتهم العلمانية، إلى الدخول في النصرانية لكنهم دخلوها بروحهم التوراتية وتزمتهم الرهباني. فزادوا النصرانية تشيعا للتوراة وانحرافا عن حقيقة الإنجيل. وتسمت حركتهم النصرانية الاسينية القمرانية بالابيونية، من قول المسيح الذي اتخذوه شعارا لهم: " طوبى للفقراء، بلغتهم طوبى للأبيونيين، فإن لهم ملكوت السموات".

وشيئا فشيئا صبغت حركتهم النصرانية كلها، على درجات متفاوتة، وبحسب التيارات المتعارضة فيها من علم الكلام. قال عالم في تاريخ الكنيسة الحديث في فليش ومارتن ك ١ ص. ٣٩٤: " ان اسم ابيونيين قام مقام نصارى أو صار صفة لاسم نصارى الذي تسمى به من قبل اتباع المسيح من اليهود".

ويصف اوسابيوس اسقف قيصرية فلسطين الذي كانت مكتبته الاسقفية تحوي على مر الزمان مؤلفات الأولين كلها، التأثير الابيوني على النصرانية الإسرائيلية. قال في تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٢٧ : "منذ البدء سموهم بحق أبيونيين (أي فقراء) لأنه كان لهم في المسيح أراء فقيرة حقيرة. فكانوا يعتبرونه بشرا سويا، بشرا لا غير، تقدس بممارسة الفضيلة. وقد ولد من رجل ومريم، وكانوا يتمسكون بإقامة الشريعة، لأنه على زعمهم لا خلاص بالإيمان بالمسيح وحده، بل بإقامة الشريعة أيضا.

" لكن إلى جانب هؤلاء كان آخرون يحملون اسمهم من دون حماقتهم. فهؤلاء لا ينكرون مثلهم مولد المسيح من بتول بمعجزة من الروح القدس. لكنهم مثلهم لا يعترفون بأزليته ، مع أنه الرب والكلمة والحكمة. وهكذا يرجعون إلى كفر الأولين. وكانوا مثلهم يغارون على إقامة أحكام الشريعة الجسدية (أي الموسوية). وكانوا

يقولون برفض رسائل بولس، ويسمونه المرتد. ولا يقبلون إلا الإنجيل بحسب العبرانيين، أي إنجيل النصارى.

وقد لا يكترثون بغيره. كانوا يحفظون السبت، ويسلكون بحسب اليهودية، مع أنهم يقيمون الأحد مثلنا، ذكرى لقيامة المسيح المخلص." لذلك استحقوا اسم ابيونيين الذي يظهر فقر ذهنهم. فإن هذا معنى الفقراء عند العبرانيين. وهذا هو التعريف الوافي "بالنصرانية". وهذه أصح فذلكة تاريخية لتطور العقيدة النصرانية حتى القرن الرابع الذي فيه وضعها مؤرخ الكنيسة اوسابيوس، الذي عرفهم عن كثب وكان بين ظهرانيهم. وقوله شهادة الشاهد العيان.

فبتأثير الاسينيين المتنصرين الذين نصروا رهبانيتهم القمرانية معهم فتسموا ابيونيين، سيطرت الروح التوراتية على النصرانية وانحرفت بها عن حقيقة الإنجيل، كما لاحظ بولس منذ تنصر الفريسيين (غلا ٢:٥). فعند عامتهم ان السيد المسح ولد من بتول لم يمسسها بشر، لكنه ليس بإله، وان سموه على المجاز والاصطفاء ابن الله. فإن تعابير ابن الله وكلمة الله وحكمة الله تعني في كلامهم الغنوصي الناشئ أوصاف الروح زعيم الملائكة. وهذا التيار الابيوني في النصرانية هو ما يثور عليه نداء يهوذا اخي يعقوب وسمعان، من مجلس أساقفتهم، في رسالة يهوذا.

ونحو العام الثمانين حرم السنهدرين النصارى من مخالطة اليهود في صلاتهم، بتأثير رابي جمالئيل الثاني. فصار النصارى، ومعهم بطبيعة الحال المسيحيون، بدعة كافرة، بنظر اليهود، يجب لعنهم مع "المينيم" المشركين كل يوم في صلاة شمونة عسره. فالبركة الثانية عشرة تقول: "لا يكن للمرتدين رجاء! ولتستأصل دولة الظلم سريعا، وعلى أيامنا! وليضمحل في لحظة النصارى والمشركون! وليمحوا من سفر الحياة! ولا يكن لهم حظ مع الصالحين. الحمد لك أدوناي، مذل المتجبرين"!

هذا الحرم اليهودي، من جهة، واستقلال النصارى عن المسيحيين في إقامة أحكام التوراة مع الإنجيل، جعلا النصرانية، كيانا وعقيدة، أمة وسطا بين اليهودية والمسيحية، منذ أواخر القرن الأول.

وعبثا حاولت رسالة بطرس الأولى، وخصوصا الثانية التي جمعت من بعده مع إدماج رسالة يهوذا فيها، جلبهم إلى الصراط المستقيم في المسيحية. فأصروا أنهم في نصرانيتهم على الصراط المستقيم، وعلى دين الحق.

وفي أواخر القرن الأول ميلادي، ومطلع الثاني، في عهد الإمبراطور ترايانس، نجم في النصرانية، بتأثير علم الكلام الطالع المبني على الغنوص، التفسير العلمي للعقيدة الإنجيلية، وعلى أسلوب الرؤيا، حركتان على طرفي نقيض: الكيرنثية الموغلة الغنوص، والتي تقول بجنة حسية عند رجوع المسيح (اوسابيوسس، تاريخ الكنيسة، ك ٣ ف ٢٨). ثم الكسائية الموغلة في التهويد (ابيفانيوس، الشامل في التاريخ، ك ١٩ ف ١ ع ٥). وكان الكسائي يأمر بالقبلة إلى أورشليم في الصلاة (ابيفانيوس، الشامل في التاريخ، ك ١٩ ف ٣ ع ٦-٧) على خلاف المسيحيين الذين يصلون إلى الشرق.

حينئذ كتب يوحنا الرسول، آخر صحابة المسيح على قيد الحياة، في ختام القرن الأول، رسالته الأولى إلى المسيحيين ينعت فيها أولئك المتكلمين من النصارى بالخوارج.

في هذه الأثناء كان سمعان رئيس أساقفة النصارى في أورشليم يقود الكنيسة النصرانية على هدى أخيه وسلفه يعقوب، بإقامة الإنجيل والتوراة معا. وعاش سمعان حتى عهد القيصر ترايانس. وفي ولاية اتكس وشي به فحكم عليه بالموت صلبا. وقاسى في استشهاده عذابات طويلة وكثيرة أثارت إعجاب الوالي حتى كان يقول: كيف يستطيع ابن مائة وعشرين سنة أن يتحمل كل هذه الآلام المبرحة!

(اوسابيوس، تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ١١، ٢٠و ٣٢). فخلفه على إمامة النصارى يستس، وربما هو يوسى أخو يعقوب وسمعان، يعاونه مجلس أساقفة يعدهم اوسابيوس خمسة عشر (تاريخ الكنيسة ك ٣ ف ٣٢)

وفي أيام القيصر ترايانس وشي بالسياد من آل بيت المسيح، كمطالبين بالعرش الإسرائيلي، فاقتيد أحفاد يهوذا إلى روما. فلما رآهم القيصر من عامة الناس تركهم وشأنهم، فاعتبروا مجاهدين، وحكموا كنائسهم تاريخ الكنيسة، (ك ٣ ف ١٩-٢٠).

وتعاقب السياد من آل بيت المسيح على إمامة النصارى حتى اندلعت الثورة اليهودية الثانية على الدولة الرومانية عام ١٣٢، على أيام هدريانس قيصر.

قام بالثورة رجل من كوزبه سماه الربان عَقِبَه: "ابن كوكب"، بركوكبا، فادعى أنه المسيح الموعود الذي أتى لتحرير إسرائيل من الاممين. فلم يشترك النصارى معه بالثورة، بسبب هذا الادعاء وبسبب ولائهم للدولة، مما أثار حفيظة اليهود عليهم وجعلهم عرضة للاضطهاد اليهودي على الصعيدين القومي والديني، فعلموا في النصارى ذبحا وتقتيلا (تاريخ الكنيسة ك ٤ ف ٦).

فكانت ضربة روما هذه المرة الضربة القاضية على الأمة والدولة والمدينة المقدسة. وفي عام ١٣٥ محى الرومان حتى اسم أورشليم. وسموا المدينة الجديدة التي قامت على أنقاض أورشليم ايلياء من اسم قيصر ايليوس هدريانس.

وحرّموا دخولها على كل يهودي، فطال المنع النصارى من بني إسرائيل. فقامت كنيسة مسيحية من الاممين في أورشليم بدل كنيسة النصارى، وتزعم بطريرك من الروم حتى أيامنا.

في هذه النكبة الثانية القاضية، تشتت النصارى من بنى إسرائيل في سوريا الكبرى وفي مصر، جماعات جماعات يعيشون مستقلين على هامش الكنائس المسيحية.

النصارى من تأسيس ايلياء حتى قيام المسيحية ديناً للدولة (١٣٥-٤٢٥)

كانت هجرة النصارى عن أورشليم عام ١٣٥، وتشتتهم في الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، حتى هداية الدولة الرومانية إلى المسيحية عام ٣١٣، وقيام المسيحية فيها دينا للدولة على أيام ثاوضوسيوس الكبير وأبنائه عام ٤٢٥، ليس لدينا في المصادر التاريخية الباقية سوى شذرات تذكر وجودهم وعقيدتهم وإنجيلهم.

فهذا [يستين]، الفيلسوف النصراني الكاثوليكي، من نابلس، وصاحب مدرسة في روما، يكتب في مطلع هجرة النصارى إلى الإمبراطور ومجلس الشيوخ دفاعين عن المسيحية. وفي الحوار مع [تريفون]، متكلم يهودي يقاوم الدين المسيحي، يعتبر النصارى المحافظين، وهو أصلا منهم، على الصراط المستقيم في نصرانيتهم بإقامة التوراة والانجيل معا، شريطة أن لا يفرضوا طريقتهم على غيرهم ويلزموا المسيحيين بالتهويد.

وفي أواخر القرن الثاني، يشهد فيهم الاسقف العلامة [ايرناوس] الشهادة عينها (الرد على الهرطقات ك ١ ف ٢٦ ع ٢). وفي القرن الثالث نرى عند العلامة [اوريجين] إن النزعة الابيونية قد سيطرت على النصرانية حتى صار اسم ابيوبيين مرادفا لاسم نصارى. في الرد على كلسس يقول اوريجين (مجموعة الآباء اليونان ك ١١ ص ٧٩٣: الرد على كلسس ١:٢): "يظهر أن كلسس لا يعرف أن الذين آمنوا بالمسيح من اليهود لم يتركوا شريعة آبائهم، بل هم يسلكون بموجب أحكامها حتى اليوم. واسمهم الابيونيون مشتق من فقر تلك الشريعة: فالفقير يقال له في لغة اليهود ابيون، واليهود الذين يؤمنون أن يسوع هو المسيح قد اتخذوا اسم ابيونيين.

ولنا عند اوريجن شهادة قيمة على تضاؤل عدد النصارى في القرن الثالث. فهو يقول في تفسير الآية (٤:٧) من سفر الرؤيا: "إن عدد ١٢٤٠٠٠ لا ينطبق على النصارى لانهم لا يبلغون هذا العدد، بل علينا نحن المسيحين" (مجموعة الآباء اليونان ك ٢١ ص ١٢٧٨: الرد على كلسس ٦١:٥). فهكذا نرى ان عدد النصارى اخذ يتضاءل لانكماشهم على أنفسهم، وسط بغض اليهود، ونفور المسيحيين منهم، "وبقي حتى القرن الثالث في الأوساط النصرانية من أولئك (السيّاد) من آل المسيح الذين ظلت لهم حرمة كبرى" [٣]. والعلامة اوريحين يميز بين النصارى المحافظين والأبيونيين المنحرفين:"النصارى بعضهم على رأي الأرثذوكسيين، وبعضهم يعلم أن يسوع ولد كسائر الناس" مجموع الآباء اليونان ك١١ ص١٢٧٧:الرد على كلسس، ويقول أيضاً: "أن النصارى الأبيونيين فئتان: فئة تقول بمولد المسيح المعجز، وفئة تقول بمولده الطبيعي، ولكن الفئتين تنكران أزليته، وبالتالي الهيته".

هذا تطور النصرانية في العقيدة.

وفي القرن الرابع لدينا أولاً الشاهدة القيمه للعلامة جيروم الذي اعتنى بالنصارى وترجم إنجيلهم إلى اليونانية واللاتينية، فقد كتب إلى القديس العلامة اغسطين في رسالة:" وماذا أقول في الأبيونيين؟ أنهم هم الذين تسميهم العامة النصارى" الرسالة ٨٩: ١٣، مجموعة الآباء الاتين ك ٢٢٧ ص ٩٢٤). يظهر من هذه الشهادة أن اسمهم الشعبي نصارى واسمهم العلمي أبيونيون٠ ويكتب اليه في عقيدتهم:"ويؤمنون بالمسيح أنه ابن الله المولود من العذراء مريم، ويقولون فيه انه استشهد على عهد بنطيوس بيلاطس وقام ونحن أيضاً نؤمن بذلك، ولكن بما أنهم يريدون أن يكونوا يهوداً ومسيحيين، فهم ليسوا يهوداً وليسوا مسيحيين"، انهم أمة وسط بين اليهود والمسيحيين٠ وبمقارنة شهادة اوريجين بشهادة جيروم، يتضح أن تسمية النصارى

---

[٣] فليش ومارتن، تاريخ الكنيسة النصرانية ص ٣٩٤

للمسيح ابن الله هي على المجاز، وهذا التعبير المجازي سيذوب هو نفسه. ويقول جيروم أيضاً في تفسيره لإنجيل متى (ك ١٢ف ١٣:" أن الإنجيل الذي يقبله النصارى والابيونيون واحداً: "هذا موجود في الإنجيل الذي يقبله النصارى والابيونيون". ومن القرن الرابع عندنا شهادة المطران ابيفان، وهو يذكر في فصل من كتابة الشامل في الهرطقات (ك ٢٩ ف. ٧) النصارى وفي التالي الأبيونيين، يقول في النصارى:"ان النصارى من اليهود، ونزعتهم التهويد، قضية واحدة تميزهم عن المسيحيين وعن اليهود على السواء: يتميزون عن اليهود بإيمانهم بالمسيح، ويتميزون عن المسيحيين بإقامة الشريعة والختان والسبت وسائر الأحكام التوراتية، فهم ليسوا مسيحيين! إنما هم يهود، لا أكثر من ذلك". ويضيف: إن لغة الصلاة عندهم لا تزال العبرانية أي الأرامية السورية، ذاك التعريف المتواتر يجعل منهم أمة مقتصدة في العقيدة بين اليهودية والمسيحية.

نختم أخيراً بشهادة جامعة التاريخ المسيحي العلامة اوسابيوس (تاريخ الكنيسة ك٣ ف٢٧ع ١-٦)، وقد نقلناها سابقاً: إن النصارى يقيمون التوراة والإنجيل، ويؤمنون بمولد المسيح المعجز من بتول، ويقول بأنه ابن الله، وكلمه الله، وحكمة الله، لكن لا يعترفون بأزليته أي بالهيته: فهو إذن عندهم ابن الله على المجاز، ونعرف أن الأبيونية الطاغية على النصرانية تنكر عليه حتى هذا اللقب المجازي، وسنرى أن تفسيرهم الملائكي لعقيدة التثليث هو الذي حملهم على إنكار أزلية وإلهية المسيح، كلمه الله.

فما كان في مصادر الوحي الإنجيلي تحذيراً من البدعة والردة، نراه في أطوار تاريخهم حقيقة واقعة تشهد بها كل المصادر المعروفة، وسيطرت المسيحية على الدولة الرومانية مع قسطنطين الكبير، ومن المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥ إلى الثالث عام ٤٣١ والرابع ٤٥١ وقع النصارى بين نارين: نار بني قومهم اليهود،

ونار بني دينهم المسيحيين، وكان عددهم يتضاءل بانكماشهم على انفسهم. وفي منتصف القرن الرابع صدر الدستور التيوضوسي يفرض المسيحية ديناً للدولة، وجرى الضغط لفرض الإيمان المسيحي على الكافرين، فهاجر اليهود إلى دولة الفرس، فكانوا عيونا لهم وطابورهم الخامس بين العرب وبين الروم، وانطفىء خبر النصارى في المصادر المسيحية.

ماذا حل بالنصارى؟ هذا هو السؤال الذي حار فيه المؤرخون حتى اليوم، هل زالوا بقدرة قادر؟ هل ذابوا في المسيحية التي اعتنقوها؟ هل في اليهودية التي عادوا إليها؟ لا يرى المؤرخون سوى هذا الواقع المشبوه، فالعالم (زيلر) في تاريخ الكنيسة الكبير (ص.٣٩٥) ، يعتمد على العلامة دوشين في تاريخ الكنيسة القديم (ص.١٢٧-١٢٨) ليقول: " يظهر أن تقارباً حصل بين النصارى وبين الكنيسة العظمى، على نطاق افرادي، فليس من اتحاد جماعي، ويجوز أيضا أن قسماً منهم عاد إلى اليهودية، وهكذا تنتهي النصرانية اليهودية في الظل والحقارة، فالكنيسة المسيحية كلما ازدهرت في العالم الإغريقي الروماني، كانت تبتعد عن مهدها بتحررها من النصرانية اليهودية كتحررها من اليهودية نفسها".

* * * * *

المراجـــع

- الكتاب المقدس، العهد الجديد
- اوسابيوس، تاريخ الكنيسة
- يوسيفوس ، الحرب اليهودي
- يوسيفوس الآثار اليهودية
- فليش ومارتن، تاريخ الكنيسة الحديث
- ابيفانيوسن الشامل في الهرطقات
- ابيفانيوس، الشامل في التاريخ
- مجموعة الآباء اليونان
- مجموعة الآباء اللاتين
- ايريناوس، الرد على الهرطقات
- اوريجينوس، الرد على كلسس
- القديس ايرونيموس، مجموعة الآباء اللاتين، ك ٢٢ ص. ٩٢٤ الرسالة إلى القديس اغسطينوس، ٨٩: ١٣
- القديس ايرونيموس، تفسير انجيل متى، ك ١٢ ف ١٣
- جاك زايلر، تاريخ الكنيسه
- دوشين، تاريخ الكنيسه القديمه

الندوة التاسعة*

النبي محمد في الكتاب المقدس
العهد القديم والعهد الجديد

القس د. نعيم عتيق**

المقدمة

إن الأساس السليم للتداول والحوار يجب أن يكون الاحترام المتبادل والصداقة، عندئذ يتم اللقاء وقد نتفق أو نختلف ولكننا نبقى أصدقاء ويبقى الاحترام المتبادل بيننا. من المهم جداً أن نتذكر دائماً أننا عندما نتحاور بالأمور الدينية، هناك احتمال قائم أننا سنختلف، لأننا ننتمي إلى دينين عريقين أصيلين، نبعا من منطقة واحدة هي الشرق الأوسط، وضمن بيئة شرقية ساميّة تعدّدت فيها الأفكار والعقائد الدينية، وإن شئنا أم أبينا هناك تشابك وتشابه كما أن هنالك اختلاف وتناقض بين هذه المعتقدات.

من المهم جداً أن نتذكر أيضاً أننا إذا اختلفنا دينياً في بعض الأمور سنكتشف أن بيننا تَوافُق في بعض الأمور الأخرى. والجدير بنا عندئذٍ أن نتقبّل نقاط الاختلاف ونركّز على تلك الأمور المشتركة بيننا دينياً وإيمانياً، كإيماننا بالله الخالق الواحد العادل الرحيم، وبمركزيَّة الصلاة في حياة المؤمن وأهميَّة عبادة الله وأمور أخرى كثيرة. وكذلك العمل معاً في مجالات اجتماعية وتربويةً وسياسية، كحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية ومكافحة الفقر والأمية والبطالة وغيرها.

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٣٠ نيسان ٢٠٠١

**رئيس مركز السبيل المسكوني للاهوت التحرر – القدس

كذلك من المهم أن نتذكر أننا أبناء شعب واحد. ولو تنوّعنا دينياً فنحن مرتبطون معاً في هذا الوطن الواحد؟، نحن مرتبطون بوحدة النضال ووحدة الهدف والمصير. وهذا بحد ذاته يفرض علينا الارتفاع فوق كل الأمور التي تفصلنا وتفرقنا إلى العمل المشترك لتحرير الوطن وازدهاره وبناء مجتمع متحضر وديمقراطي.

لقد قَبِلْتُ هذه الدعوة للمشاركة في هذا الجهد على أمل أن تكون فاتحة للقاءات أخرى تقودنا لإزالة الجهل وزيادة التفاهم والاحترام والتعاون، لأني أعتقد أن السلام بين الأديان يسبق أحياناً السلام بين الشعوب. والتفاهم بين الدينين الإسلامي والمسيحي يكوّن قاعدة قوية لوحدة الصف والتلاحم وتسبيح اسم الله الذي خلقنا جميعاً بشراً. وبدون هذا التفاهم والانفتاح نحو الآخر نبقى ننهش ببعضنا البعض وننفي الدين الآخر ونذمّه ونعيش بالمرارة والألم. نحن بحاجة إلى الانفتاح نحو الآخر وقبوله كما هو وكما يرى دينه ويفهمه ونحترمُه كما يجب بصفته إنساناً مؤمناً بالله على طريقته الخاصة ولو اختلف ذلك عن طريقتي.

أهمية اللقاء والنقاش

جاءت هذه الدعوة ضمن سلسلة لقاءات قامت بها مؤسسة باسيا في القدس حول القرآن والمسيحية واليهودية. ليس من السهل التحدث عن العقيدة في دين آخر. لأني أنظر إلى العقيدة في الإسلام (أو في أي دين آخر) من منظار إيماني وعقيدتي المسيحية ومن مفهومي لكتابي المقدس. والعكس كذلك في نظرة المسلم لعقيدتي المسيحية، واختلاف المنظار ما يجعل الأمر صعباً وعسيراً. لأن كل طرف يتشدّد في تمسكه بعقيدته المستندة على فهمه لدينه وكتابه المقدس. لذا لا يجوز التطرق إلى نقاش العقيدة إلا إذا نمت المحبة والصداقة بين الطرفين.

إن العقيدة المبدئية التي ينطلق منها المسلم لها نتائجها. فالمسلم يؤمن أن نبيّه محمد هو خاتم الأنبياء والمرسلين. فإذا كان هو آخر الأنبياء وأعظمهم فمن الطبيعي الاستنتاج أن الأنبياء الذين سبقوه قد أشاروا إليه وتنبئوا عنه. وهذا بالفعل ما فعله علماء المسلمين ليس في الكتاب المقدس بجزأيه العهد القديم والجديد فحسب بل أيضاً في الهندوسية وغيرها من الأديان. إن هذا التوجه يبدو شرعياً لأنه ينطلق من نقطة إيمانية إسلامية قوية وثابتة.

هذا لا يعني أن الدين الآخر المُستهدَف قد يقبل الاستنتاجات الإسلامية. وعلى الأرجح فإنه يرفضها. ولكن من حق الإسلام والمسلمين أن يعتقدوا بما يشاءون بحسب عقيدتهم النابعة من كتابهم المقدس "القرآن".

فإذا جاء المسلم وسأل المسيحي هل يتنبأ كتابكم المقدس عن نبي الإسلام محمد، لأجابه المسيحي بالنفي. ولكن إذا توجّه المسلم إلى الكتاب المقدس من منطلق عقيدته الثابتة بأن نبيَّه محمد مشار إليه ومتنبأٌ عنه قد يجد العديد من الآيات والنبوات التي بإمكانه أن يفسرها بأنها إشارة لمجيء محمد. باستطاعة الإيمان أن يفعل ذلك. الأصعب هو البرهان العلمي أن هذه الآية أو تلك هي بكل تأكيد نبوءة واضحة عن محمد.

سأبرز هنا ثلاثة أمثلة:

١. النبي كموسى

سفر التثنية ١٨: ١٥-١٨

يُقيمُ لَكُم الربُّ إلهُكُم نبيّاً من بَينِكُم، من إخوَتِكُم بَني قومِكُم مِثلي، فاسمَعوا لَهُ. طَلَبتُم مِنَ الربِّ إلهِكُم في حوريبَ يومَ اجتماعِكُم هُناكَ أنْ لا يعودَ يُسمِعُكُم صوتَهُ ويُريكُم تِلكَ النّارَ العظيمةَ ثانيةً لِئلا تموتوا. فقالَ لي

الربُّ: "أحسَنوا في ما قالوا. سأُقيمُ لهُم نبيّاً مِنْ بَينِ إخوتِهِم مِثلَكَ وأُلقي كلامي في فمِهِ، فيَنقُلُ إليهِم جميعَ ما أكلِّمُهُ به.

التفسير الإسلامي

هناك شروحات دقيقة من بعض المفسرين المسلمين، مثلاً ما كتبه أحمد ديدات في كتيّب صغير: "What the Bible Says about Muhammad" يمكن تلخيصها بما يلي:

يعتقد السيد ديدات أن كلمات النبي موسى عن "النبي" الذي سيقيمه الله من بعده تنطبق على النبي محمد أكثر بكثير من انطباقها على المسيح. ويقدم التفاسير التالية:

- يؤمن المسيحيون أن المسيح هو الله. موسى لم يكن إلهاً. إذاً المسيح ليس مثل موسى.
- يؤمن المسيحيون أن المسيح مات عن خطايا العالم. موسى لم يفعل هذا. إذاً المسيح ليس مثل موسى.
- يؤمن المسيحيون أن المسيح نزل إلى الهاوية. موسى لم يفعل هذا. إذاً المسيح ليس مثل موسى.
- كان لموسى أب وأم. لم يكن للمسيح أباً. إذاً المسيح ليس مثل موسى.
- موسى ومحمد ولدا ولادة طبيعية. ولد المسيح من عذراء. إذاً المسيح ليس مثل موسى.
- موسى ومحمد أنجبا أولاداً. المسيح لم يتزوج. إذاً المسيح ليس مثل موسى.
- موسى ومحمد اعتُرف بأنهما نبيّان من الشعب أثناء حياتهما. هذا لم يحدث للمسيح.

- موسى ومحمد أعطيا للشعب شريعة جديدة. أما المسيح فلم يترك شريعة للمسيحيين.
- موسى ومحمد ماتا موتاً طبيعياً. أما المسيح بحسب عقيدة المسيحيين فقد مات صلباً.
- وأمور كثيرة أخرى.

الخلاصة: يستنتج السيد ديدات بأن النبي محمد يشبه النبي موسى أكثر من المسيح. إذن فهذه النبوة هي إشارة لمجيء نبي الإسلام محمد وليس لمجيء المسيح.

التفسير المسيحي

يستند التفسير المسيحي في أساسه على ما جاء في سفر أعمال الرسل ٣: ٢٢-٢٦ من العهد الجديد. يقول [بطرس الرسول] وهو أحد الحواريين من تلاميذ المسيح ما يلي:

فإن موسى قال: سيُقيم الرب إلهكم من بيْنِ اخوتكم نبيّاً مثلي. فاسمَعوا له في كلِّ ما يقوله لكم، ومَن لا يَسمع لهذا النبي، يُقتلع من بين الشعب. والأنبياءُ كلُّهم، من صموئيل إلى الذين جاءوا بعدَه تَكلّموا فأنبئوا هم أيضاً بمجيءِ هذه الأيام. فأنتم أبناءُ الأنبياء والعهد الذي عَقَده الله لآبائكم، حين قال لإبراهيم: بنَسلِك أبارِكُ كلَ شعوبِ الأرض. فلكم أولاً أقامَ الله فتاهُ وأرسلَهُ بركَةً لكم تردُّ كلَّ واحدٍ منكُم عن شُرورِهِ.

لقد اعتمد المسيحيون على كلمات [الرسول بطرس] الذي ذكر بأن نبوءة موسى تمّت بمجيء المسيح. وجدير بالذكر أن هذا التفسير وارد في صُلب فحوى العهد الجديد نفسه ومصدره أحد أقرب التلاميذ على المسيح – الرسول بطرس. وقد

أعطى المسيحيون نفس التفسير لما وَرَد في سِفْرِ أعمالِ الرسل ٣٧:٧ حيث ذَكر الشهيد استفانوس عن النبي القادم كموسى.

التفسير اليهودي

إن [موسى] لم يكن يتحدث عن مجيء [المسيح]. كان يتحدث عن [يشوع بن نون] الذي أصبح خليفته.

٢. يوحنا المعمدان (يحيا) والنبي

إنجيل يوحنا ١: ١٩-٢٨

هذه شَهادةُ يوحنَّا، حينَ أرسَلَ إليه اليَهودُ مِنْ أورُشليمَ كَهَنَةً ولاويينَ ليسألوهُ: "مَنْ أنتَ؟" فاعترَفَ وما أنكَرَ، اعترَفَ قال: "ما أنا المَسيحُ" فقالوا: "مَنْ أنتَ، إذاً؟ هل أنتَ إيليَّا؟" قالَ: "ولا إيليَّا". قالوا: " هل أنتَ النَّبيُّ؟ أجابَ "لا" فقالوا لَه: "مَنْ أنتَ فَنحملَ الجَوابَ إلى الذينَ أرسَلونا. ماذا تقولُ عَنْ نَفسكَ؟" قال: "أنا، كما قالَ النبيُّ إشَعيا: "صوتُ صارخٍ في البرية: قوِّموا طريقَ الرَّبِّ".

وكانَ بَينَهُم فَرّيسيُّونَ، فقالوا ليوحنَّا: "كيفَ تُعَمِّدُ وما أنتَ المسيحُ ولا إيليَّا ولا النَّبيُّ؟" أجابَهُم: "أنا أعمِّدُ بالماء، وبَينَكُم مَنْ لا تعرفونَهُ. هو الذي يَجيءُ بَعدي، ويكونُ أعظَمَ منِّي، وما أنا أهلٌ لأن أحُلَّ رباطَ حذائِه".

جرى هذا كُلُّهُ في بَيت عَنيا، عبرَ نهرِ الأردُنِ، حيثُ كانَ يوحنَّا يُعمِّدُ."

التفسير الإسلامي

كان اليهود ينتظرون مجيء ثلاثة شخصيات بحسب سؤالهم ليوحنا المعمدان: المسيح وإيليا والنبي. الإشارة لكلمة "النبي" ترجع إلى سفر التثنية وكلمات موسى "يقيم لكم الرب إلهكم نبيّاً مثلي." يؤمن المسلمون أن يسوع (عيسى) هو المسيح. لذا "فالنبي" هي إشارة لمجيء محمد.

التفسير المسيحي

من المحتمل أن تكون الإشارة لمجيء النبي كموسى بحسب تثنية ١٨ ولكن لا أدلة بأنها إشارة لمجيء محمد. وُجّه السؤال ليوحنا المعمدان وأجاب بالنفي. هناك أنبياء كثيرون في العهد القديم. ومن الصعب معرفة ما بذهن السائل.

٣. المعزي الروح القدس

إنجيل يوحنا ١٤: ١٥-١٩

"إذا كُنتُم تُحبّوني عَمِلْتُم بوصاياي وسأطلُبُ مِنَ الاب أنْ يُعطيكُم مُعَزّياً آخَرَ يَبقى معَكُم إلى الأبَد.

هوَ رُوحُ الحقِّ الذي لا يَقدِرُ العالَمُ أنْ يَقبَلَهُ، لأنَّهُ لا يَراهُ ولا يَعرِفُهُ. أمّا أنتُم فتَعرِفونَه، لأنَّه يُقيمُ مَعكُم ويكونُ فيكُم.

لن أترُككُم يتامى، بل أرجِعُ إليكُم. بَعدَ قليلٍ لن يَراني العالمُ، أمّا أنتُم فتَرَونَني. ولأنّي أحيا، فأنتُم ستَحيونَ.

إنجيل يوحنا ١٤: ٢٥-٢٦

قُلتُ لكُم هذا كلَّهُ وأنا مَعكُم. ولكنَّ المعزّي، وهوَ الرُّوحُ القُدُسُ الذي يُرسِلُهُ الآبُ باسْمي، سيُعلِّمُكُم كُلَّ شيءٍ ويَجعَلُكُم تتذَكَّرونَ كُلَّ ما قُلتُه لكُم.

إنجيل يوحنا ١٥: ٢٦-٢٧

ومتى جاءَ المُعَزِّي الذي أُرسِلُهُ إليكُم منَ الآبِ، روحُ الحقِّ المُنبَثِقُ منَ الآبِ، فهوَ يَشهَدُ لي. وأنتُم أيضاً ستَشهَدونَ، لأنكُم منَ البَدءِ مَعي.

إنجيل يوحنا ١٦: ٧-١٤

صدِّقوني، منَ الخَيرِ لكُم أن أذهَبَ، فإنْ كُنتُ لا أذهَبُ لا يَجيئُكُمُ المُعزِّي. أمَّا إذا ذَهَبتُ فأُرسِلُهُ إليكُم. ومتى جاءَ وبَّخَ العالَمَ على الخَطيئَةِ والبرِّ والدَّينونَةِ: أمَّا على الخَطيئَةِ فلأنَّهم لا يُؤمِنونَ بي، وأمَّا على البرِّ فلأنِّي ذاهِبٌ إلى الآبِ ولَنْ تَروني، وأمَّا على الدَّينونَةِ فلأنَّ سيِّدَ هذا العالَمِ أُدينَ وحُكِمَ عليهِ. عِندي كلامٌ كثيرٌ أقولُهُ لكُم بَعدُ، ولكنَّكُم لا تَقدِرونَ الآنَ أنْ تَحتَمِلوهُ. فمَتى جاءَ رُوحُ الحقِّ أرشَدَكُم إلى الحَقِّ كُلِّه، لأنَّه لا يتكلَّمُ بشيءٍ منْ عِندِه، بل يتكلَّمُ بِما يَسمَعُ ويُخبِرُكُم بِما سيَحدُثُ. سيُمجِّدُني لأنَّهُ يأخُذُ كلامي ويَقولُهُ لكُم.

أعمال الرسل ١: ٤-٥

وبَينَما هوَ يأكُلُ معَهُم قالَ: "لا تَترُكوا أورُشليمَ، بَلِ انتَظِروا فيها ما وعَدَ بِه الآبُ وسَمِعتُموهُ منِّي: يوحنَّا عَمَّدَ بالماءِ، وأمَّا أنتم فتَتعَمَّدونَ بِالرُّوحِ القُدُسِ بَعدَ أيامٍ قليلةٍ.

أعمال الرسل ٢: ١-٤

ولمَّا جاءَ اليومُ الخَمسونَ، كانوا مُجتَمعينَ كُلُّهُم في مكانٍ واحدٍ، فخَرَجَ منَ السَّماءِ فجأةً دَويٌّ كَريحٍ عاصِفةٍ، فمَلأَ البَيتَ الذي كانوا فيهِ. وظَهرَت لَهُم ألسِنَةٌ كأنَّها منْ نارٍ، فانقَسَمَت ووقَفَ على كُلٍّ واحدٍ مِنهُم لِسانٌ. فامتَلأوا

كُلُّهُم مِنَ الروحِ القُدُسِ، وأخذوا يتكَلَّمونَ بِلُغاتٍ غَيرِ لُغَتِهِم، على قَدْرِ ما مَنَحَهُمُ الرُّوحُ القُدُسُ أن ينطِقُوا."

التفسير الإسلامي

يستند المسلمون على ما ورد في القرآن في سورة الصف:٦. "وإذا قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسولُ الله إليكم مُصَدِّقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمُه أحمد فلما جاءَهم بالبينات قالوا هذا سِحْرٌ مبين".

الكلمة المستعملة في الإنجيل وتعني المعزي (أي الروح القدس) أو من يقف قرب المتهم ليدافع ويحامي عنه هي parakletos باللغة اليونانيه، لأن العهد الجديد بأكمله كتب أولاً باللغة اليونانية.

اكتشف علماء المسلمين كلمة يونانية شبيهة نوعاً ما بالكلمة المستعملة في الإنجيل – parakletos وتعني الشخص الذي يُحْمَد أو يُمدَح أي المحمود أو الممدوح" وهذه الكلمة هي periklutos . فاستنتجوا ما يلي: إن ما وعد المسيح بمجيئه لم يكن ال parakletos بل periklutos – ليس المعزي الروح القدس بل المحمود وهذه إشارة للنبي محمد. لذا يعتقد المسلمون إن المسيحيين حرّفوا الإنجيل ليخفوا هذه الحقيقة وهذه النبوّة.

التفسير المسيحي

١-عندما ولد محمد في نهاية القرن السادس، كان الإنجيل وجميع نصوص العهد الجديد واضحة ومعروفة ومُثبتة. وهي موجودة في شكلها الأصلي ويمكن للعالم أن يتفحصها ويدرسها. فلم يكن فيها أي تغيير أو تبديل. من المنطق القول أن

التحريف (إذا صدر) قد يحدث بعد نزول القرآن لإخفاء الحقيقة ولكن نص الإنجيل كان ثابتاً مئات السنين من قبل ولادة محمد.

٢- دراسة النص الإنجيلي وفحص الآيات التي وردت فيها كلمة المعزي والقرائن والسياق يعطي معنى مغايراً للتفسير الإسلامي. فالتمعن بالنص ينفي التفسير الإسلامي.

- سيبقى المعزي معهم إلى الأبد. هل ينطبق هذا على محمد؟
- لا يقدِر العالم أن يقبَل المعزّي لأنه لا يراه ولا يعرفه لكن سيقيم مع التلاميذ ويكون فيهم. هل ينطبق هذا على محمد؟
- سيعود المسيح للتلاميذ بالروح القدس: "لن أترككم يتامى، بل أرجع إليكم". هل ينطبق هذا على محمد؟
- يوحنا ١٤: ٢٦ واضح جداً لأن المسيح يقول للتلاميذ: "ولكنَّ المعزّي، وهو الروح القدس الذي يُرسله الأب باسمي، سيُعلّمكم كل شيء ويجعلكم تتذكرون كل ما قلته لكُم."
- سيرسل المسيح المعزي من الأب ووجوده شهادة للمسيح. فهل ينطبق هذا على محمد؟
- وكذلك في الآيات الأخرى.(انظر بقية النص الإنجيلي)

الخاتمة

١- من الصعب جدّاً في مثل هذه الأمور أن يدخل الإنسان في جدال. لأن المسألة تتعلّق بالعقيدة الإيمانية للشخص. فإذا جاء إليّ المسلم وقال لي أن هذه الآيات من الكتاب المقدس تتنبأ عن النبي محمد ولم يقبل شرحي أو تفسيري لها فله الحرية في

ذلك لأن هذا يرجع إلى عقيدته الإيمانية. فله الحرية أن يؤمن بما يشاء ما دام يترك لي الحرية أن أتابع في إيماني وعقيدتي.

٢- قَوْلي هذا لا ينطبق على علاقتي بأخي المسلم فقط بل أيضاً باليهودي. فالمسيحي يفسِّر العهد القديم من منظار إيمانه بالمسيح. واليهودي طبعاً يرفض هذا التفسير. فلليهودي الحق والحرية أن يفسر توراته بحسب عقيدته وكذلك الأمر لدى المسيحي ما دمنا نحترم الآخر ونمنحه الحرية الدينية حتى ولو لم نكن نوافق أو نؤمن بعقيدته.

٣- بالنسبة لي، إن كان مهمّاً للمسلم أن يعتقد أن المسيح أو العهد الجديد تنبأ عن مجيء نبي الإسلام محمد وأن هذا يعطي برهاناً أقوى لصدق نبوءته ورسوليته فليكن. وللمسلم الحق من وجهة نظر إيمانه وعقيدته أن يفعل ذلك ما دام ذلك لا يلزمني في قبول تلك العقيدة أو ذلك التفسير.

خلاصة القول في هذا الموضوع المحدد هو: من قراءتي للكتاب المقدس لا أرى فيه أية إشارة أو نبوءة عن النبي محمد. ولكن إذا رأى أخي المسلم ذلك وزاده هذا إيماناً أقوى بالله وجعله إنساناً أفضل في أخلاقه وتصرفاته وفي تسامحه واحترامه للمسيحي فلتكن بركة الله عليه.

* * * * *

الندوة العاشرة*

الإسلام والتعددية الدينية

عزيز أبو راس**

مقدمه

الحديث عن حرية العبادة والتدين والاعتقاد في الدولة الإسلامية ذو أهمية خاصة في هذا الوقت، وتبدوا هذه الأهمية بشكل واضح حينما نلمس ونلاحظ أن التدين أصبح تهمة وخروجاً على القانون في بعض المجتمعات هنا وهناك، فكم من ضجة أثيرت حول قيام إحداهن بارتداء الحجاب في مدرسة أو في مؤسسة، وكم من مسجد وضع تحت رقابة قوى الأمن في هذا البلد أو ذاك لملاحقة ورصد من يلتزم ويحافظ على صلاة الجماعة، فما أحوجنا إلى الحديث العلمي والموضوعي عن "حرية التدين والعبادة" في الدولة الإسلامية، لوضع الأمور في نصابها متمنين أن يصادف هذا الحديث آذاناً صائغة وقلوباً واعية كي يعيش "الإنسان" أي إنسان مهما كانت عقيدته حراً كريماً كما أراد الله تبارك وتعالى، هذا من جهة- ومن جهة ثانية فإن كلمة: حرية ..تحرر... وتحرير من أكثر الكلمات استخداماً في القاموس السياسي العربي في ظل ما تشهده مجتمعاتنا من صراعات هنا وهناك تصل أحياناً حد إراقة الدماء من أجل المطالبة بالحرية بشكل عام وبحرية العبادة بشكل خاص.

ومن جهة ثالثة أنه عندما تتعالى صيحات المفكرين والمصلحين بضرورة تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية السمحة التي توفر وتضمن الحرية الشخصية والدينية لكل

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ١٤ أيار ٢٠٠١

**مدير شؤون الطلبة/ كلية الآداب المختلطة- جامعة القدس

إنسان، يروق للبعض أن يعارض ذلك مبرراً معارضته لتطبيق الشريعة الإسلامية بأن هناك [أقليات] غير إسلامية تعيش بين المسلمين ولا تدين بالإسلام، كأن الرجوع إلى الإسلام والحكم بشريعة القرآن جور على هؤلاء المواطنين من غير المسلمين أو إلغاء لشخصيتهم الدينية والتاريخية، وكأنهم لم يعيشوا قروناً طويلة في ظل حكم الإسلام ناعمين بالأمان وبالعدل الذي ينعم بهما المسلمون أنفسهم.

- فهل حقاً أن الإسلام وتطبيق الشريعة الإسلامية يحرم غير المسلمين (ولا أقول الأقليات) من حريتهم في الاعتقاد وممارسة شعائرهم الدينية؛
- وإذا كان الإسلام يعطي غير المسلمين حرية العبادة والاعتقاد.

فما هو الأصل الشرعي والفكري لهذه الحرية؟ وما هو مفهوم هذه الحرية؟ وما هي حدودها؟ ثم ما هي طبيعتها؟ وهل يلزم أن يشكل غير المسلمين أحزاباً خاصة بهم تناضل وتكافح من أجل الحصول على هذه الحرية؟ وهل تضمن الدولة الإسلامية حرية العبادة لغير المسلمين كي يعيش هذا الإنسان ناعماً بالأمن والعدل؟.

تساؤلات كثيرة وقضايا عديدة بحاجة إلى إجابة وتوضيح، وهذا ما سيحاول الباحث أن يسهم في بيانه وتوضيحه من خلال النصوص الشرعية والمراجع ذات العلاقة، في الصفحات التالية وذلك لتحقيق مطلب هذا البحث لوحدة الدراسات الدينية في الأكاديمية الفلسطينية للشؤون الدولية، والتي لا يسعني إلا شكرها على جهودها البحثية والعلمية الهادفة سيما وأن ديننا الحنيف يأمرنا ويحثنا أن نخاطب الناس ونجادلهم بالتي هي احسن:

﴿ وقولوا للناس حسناً﴾، ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾[1]

---

[1] سورة آل عمران آيه ٦٤

نظرة الإسلام إلى الإنسان

- الإنسان مخلوق مكرّم، قال تعالى ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[٢]، فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكرم بنص القرآن الكريم لكونه إنساناً بغض النظر عن دينه أو جنسه، قال "الألوسي" في تفسير هذه الآية: ﴿أي جعلناهم قاطبة برهم وفاجرهم ذوي كرم أي شرف ومحاسن جمة لا يحيط بها نطاق الحصر﴾[٣]، وعن ابن عباس ﷺ ، "كرمهم سبحانه وتعالى بالعقل"[٤] ، ومن مظاهر التكريم الإلهي للإنسان بأن رزقه قدرة جعله بها يسيطر على ما حوله من الكائنات وسخرها له كي يعيش حراً كريماً ومنعه أن يذل نفسه لشيء منها[٥]
- الإنسان مميز مختار: قال تعالى ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾[٦]، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وجعله قادراً على التمييز بين الخير والشر، فالهم النفس الإنسانية فجورها وتقواها وغرس في جبلتها الاستعداد للخير والشر، وجعل عند الإنسان إرادة يستطيع بها أن يختار بين الطرق المؤدية للخير والسعادة أو الطرق الموصلة إلى الشقاء والتعاسة.
- مسؤولية الإنسان وجزاؤه، ومقابل هذا التكريم والتمييز، فقد حمّل الله عز وجل الإنسان مسؤوليةً عظيمة وكلفه بتكاليف كثيرة ورتب عليها الجزاء، حيث حمله الله تعالى مسؤولية تطبيق شريعة الله وتحقيق عبادته والقيام بمهمة الاستخلاف

---

[٢] سورة الإسراء آيه ٧٠
[٣] الألوس، روح المعاني، المجلد الخامس: الجزء الخامس عشر، ص ١١٧
[٤] المرجع السابق
[٥] النحلاوي: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ٣٢
[٦] سورة الشمس، الآيات ٧-١٠

في الأرض قال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾[٧]، وكما جعل الله للإنسان حرية وإرادة وقدرة على التمييز بين الخير والشر كذلك جعله مجزياً يوم القيامة بما اختار من خير أو شر، قال تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[٨].

- الناس جميعاً في نظر الإسلام أمة واحدة: ينظر الإسلام إلى الناس جميعاً على أنهم أمة واحدة تربطهم وتجمعهم {الإنسانية}، قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[٩]. "فالناس في نظر الإسلام أمة واحدة في الأصل، واختلافهم عارض، وسبب الاختلاف هو الأهواء وأن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل لهداية الناس وإرشادهم من أجل التغلب على الأهواء"[١٠]، قال تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[١١]

• غير المسلمين في المجتمع الإسلامي

من المعروف بداهة أن الإسلام هو خاتم الأديان السماوية، ومن ميزاته أنه رسالة عالمية لجميع البشر، ﴿وما أرسلناك إلا كافة للعالمين﴾، والمجتمع الإسلامي مجتمع يقوم على عقيدة وفكرة [أيديولوجية] خاصة تنبثق منها نظمه وأحكامه

---

[٧] سورة الأحزاب، آيه ٧٢
[٨] سورة الزلزله الآيات ٧-٨
[٩] سورة النساء آيه ١
[١٠] النحلاوي: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص ٣٥
[١١] سورة الحجرات آيه ١٣

وآدابه وأخلاقه، وهو مجتمع اتخذ الإسلام منهاجاً لحياته ودستوراً لحكمه ومصدراً لتشريعه، ولكن ليس معنى هذا أن المجتمع المسلم يرفض العناصر التي تعيش داخله والتي تدين بدين آخر غير الإسلام، كلا ، فإن الدولة الإسلامية دولة عالمية ذات بعد إنساني تتمتع برعايتها لجميع الأجناس وتتسع لجميع العقائد والنحل، وتستوعب غير المسلمين وتعطيهم وضعاً قانونياً تحكمه الآية الكريمة: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي...﴾[١٢]، والآية الكريمة ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن...﴾[١٣]، "وقد أقام الإسلام العلاقة بين أبنائه المسلمين وبين غير المسلمين في المجتمع الإسلامي على أسس وطيدة من التسامح والعدالة والبر والرحمة، وهي أسس لم تعرفها البشرية قبل الإسلام"[١٤]، ومن هذه الأسس:

- **احترام عقائد الآخرين:**

"لقد شرع القرآن الكريم حرية التدين لغير المسلمين سواء أكانوا كتابين أم غير كتابين، يهوداً أو مجوساً وسواء اعترفوا برسالة الإسلام أم لم يعترفوا بذلك"[١٥]، قال تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ فالآية الكريمة تنص على أنه لا جبر ولا إكراه في اعتناق الدين وإنما يجب أن يترك ذلك لعقل الإنسان ليختار ما يريد، فإما أن يشكر أو يكفر، وكل نفس بما كسبت رهينه.

- الناس في المجتمع الإسلامي أمة واحدة بحكم إنسانيتهم تربطهم علاقة راسخة على أسس من البر والإحسان والعدل لقوله تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل

---

[١٢] سورة البقرة آيه ٢٥٦
[١٣] سورة العنكبوت آيه ٤٦
[١٤] يوسف القرضاوي، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص٥
[١٥] محمد علي الحسن، العلاقات الدولية في القرآن الكريم والسنة، ص ٢٦

والإحسان...﴾[16] ، فالعدل هو الهدف الأسمى للأديان السماوية حيث يقول تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[17]، ومن مقتضيات العدل والإحسان أن يكون الجميع أمام القانون والحق سواء، "والمعاملة بالمثل للعدو والصديق وهذا هو العدل المطلق"[18]. وصدق من قال: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك، فالمعاملة يجل أن تتساوى سواء أكان من تعامله مسلماً أم ذمياً، فالكل في نظر الإسلام أمام الحق سواء، والبر والإحسان لكل إنسان مسلماً أو غير مسلم، بل إن الله كتبه في كل شيء حتى شمل الحيوان.

- **احترام العهود:**

احترام وتقدير غير المسلمين والوفاء بعهودهم من الأسس المهمة في بناء العلاقة مع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، أكد عليه الإسلام وأمر به رب العالمين، حيث يقول تعالى ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، إن الله يعلم ما تفعلون﴾[19]، وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[20].

فالإسلام دين السلام والأمن والأمان، وحتى ينعم الناس بذلك ويعيشوا أحراراً أعزاء فقد أوجب الإسلام احترام العهود والوفاء بها، ومن مظاهر وموجبات الوفاء بالعهود، عدم التعرض للذميين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، "فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ أن قال : "احفظوني

---

[16] سورة النحل آيه ٩٠
[17] سورة الحديد آيه ٢٥
[18] العلاقات الدولية في القرآن الكريم والسنة ص ٢٦
[19] سورة النحل آيه ٩١
[20] سورة المائدة آيه ١

في ذمتي"[٢١]، وجاء في الحديث الشريف: "من ظلم معاهدا أو كلفة فوق طاقته فأنا حجيجة"[٢٢]

- **لهم ما لنا وعليهم ما علينا:** "وهذه قاعدة أصيلة وأساس متين تعامل المسلمون من خلاله مع غير المسلمين خصوصا أهل الذمة منذ بداية العصر الإسلامي، ولم يثر حول هذه القاعدة نقاش ولم يضطرب تطبيقها على توالي الأزمنة إلا فلتات شاذة لا ينبغي الاكتراث بها أو الالتفات إليها"[٢٣]
- **إن الإسلام فتح القلوب بالرحمة والألفة ولم يفتحها بالقسوة والوحشة،** لقد تعامل الإسلام مع أهل الكتاب وخاطبهم وحاورهم وناقشهم منذ اللحظة الأولى، ولكن بالحجة والبيان والقول الحسن، قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا". وقال تعالى: ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن﴾، وقال تعالى: ﴿ وقولوا للناس حسنى﴾. "فالإسلام يشترط أن يكون الجدال والحوار بأحسن الأساليب وأفضلها وصولا إلى إقناع القلب وإيقاظ القلب[٢٤]" .

الأصل الشرعي لحرية العبادة

الأصل في الناس انهم أحرار بحكم خلق الله تعالى، وبطبيعة ولادتهم هم أحرارا، لهم حق الحرية وليسوا عبيدا. وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في كلمته المشهورة في ذلك: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"، وقال علي بن أبي طالب ﷺ في وصيته له: " لا تكنّ غيرك ولقد خلقك الله حرا".

---

[٢١] السيد سابق، فقه السنة، ج٢، ص ٦٦٨
[٢٢] المرجع السابق، ص ٦٦٨
[٢٣] محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ص٤٨
[٢٤] يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، ص ١٦٩

- جاء الإسلام فأقر الحرية في زمن كان الناس فيه مستعبدين: فكريا وسياسيا واجتماعيا ودينيا واقتصاديا، جاء فاقر حرية الاعتقاد وحرية الفكر وحرية القول، جاء الإسلام فأقر الحرية الدينية، حرية الاعتقاد وحرية العبادة فلم يبح أبدا أن يكره الناس على اعتناقه أو اعتناق سواه من الأديان، وأعلن في ذلك قول الله عز وجل: ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[٢٥] هذا في العهد المكي، وفي العهد المدني جاء في سورة البقرة:﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[٢٦]، وسبب نزول هذه الآية هو ما رواه ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس ﷺ" قال، نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصيني، كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه: لا إكراه في الدين"[٢٧].

وفي رواية أخرى فقد كان الأوس والخزرج في الجاهلية إذا امتنعت المرأة من الحمل فنذرت إذا ولدت ولداً هودته أي جعلته يهودي، وهكذا نشأ بين الأوس والخزرج القبيلتين العربيتين بعض أبناء يهود، فلما جاء الإسلام وأكرمهم الله بهذا الدين، أراد بعض الآباء أن يعيدوا أبنائهم إلى الإسلام وأن يخرجوهم من اليهودية، ورغم الظروف التي دخلوا فيها اليهودية، ورغم الحرب بين المسلمين واليهود، لم يبح الإسلام إكراه أحد على الخروج من دينه وعلى الدخول في دين آخر، ولو كان هو الإسلام فقال: (لا إكراه في الدين) في وقت كانت الدولة البيزنطية تقول: إما التنصر وأما القتل، وكان المصلحون الدينيون في فارس يتهمون بأشنع التهم.

---

[٢٥] سورة يونس آيه ٩٩
[٢٦] سورة البقرة آيه ٢٥٦
[٢٧] ابن كثير، تفسير ابن كثير ج١ ص ٣١٢

ومن خلال هذه الأصل الشرعي لحرية التدين والاعتقاد في الإسلام، ومن خلال ما جاء في الصفحات السابقة عن نظرة الإسلام إلى الإنسان، وعن وضع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي يتأكد لنا عدة أمور ينبغي ملاحظتها وهي:

- يتبين لنا أولاً إلى أي مدى وصل الإسلام في تقديس حرية التدين والاعتقاد، ولو كان الأمر متعلقاً بإكراه الأب ابنه على الدخول في الإسلام.
- ويتأكد لنا ثانياً أن مبدأ حرية التدين والاعتقاد لم يكن قد جاء نتيجة تطور في المجتمع أو ثورة طالبت به أو نضوج وصل الناس إليه، أقر هذا المبدأ كحق طبيعي لكل إنسان من السماء يرتفع به أهل الأرض وليعيش الناس كل الناس أحرارا.
- وأمر ثالث هو: أن حرية الاعتقاد والتدين في المجتمع الإسلامي ليست شعاراً يرفع وليس مثلاً أعلى فقط، إنما هي حق مقدس أقرته الشريعة الإسلامية واعتبرته من المقاصد الشرعية الضرورية، ذلك أن الحرية هي المدخل المعتبر إلى الإيمان الحق، فلا يكون الإيمان بالعقيدة إيمانا كاملاً في ميزان الدين إلا إذا انبنى على حرية فكرية تتيح التدبر الذاتي في غير توجيه من موروثات الآباء أو توجهات الآخرين، وتثمر اقتناعاً مبنياً على حرية النظر، ولهذا اعتبر بعض علماء العقيدة إيمان المقلد ليس بإيمان، واعتبره كثيرون إيماناً منقوصا"[٢٨].
- وأمر رابع هو أن تقرير مبدأ حرية العبادة والاعتقاد قد كان في الإسلام منذ أربعة عشر قرناً قبل البيانات الأخيرة عن حقوق الإنسان، وفي هذا الصدد يقول الدكتور صبحي الصالح في كتابه معالم الشريعة الإسلامية "وكأني بالمادة الأولى من الإعلان لم تقتبس صياغتها إلا من كلمة الفاروق عمر حين يقول:

---

[٢٨] عبد المجيد النجار، دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، ص ٤٦

"يولد الناس جميعاً أحراراً متساويين في الكرامة وفي الحقوق وهم ذوو عقل وضمير، ويجب أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء"[٢٩].

مجال حرية العبادة وحدودها

عندما اقرّ الإسلام حرية العبادة لغير المسلمين وأكدت عليها نصوصه، بدأ اليهود والنصارى يؤدون عبادتهم ويقيمون شعائرهم في حرية وأمان، وذلك ضمن مجال ما يؤمنون به ويعتقدونه وبما يحقق لهم إنسانيتهم وكرامتهم، ومن غير إكراههم على ما لا يعتقدونه. ومن شدة حرص الإسلام واهتمامه بحرية العبادة لغير المسلمين في الدولة الإسلامية فقد حرص الإسلام على بيان المجال الذي يمارسون خلاله عبادتهم ولذلك فإنه لم يفرض عليهم أي أمر له صبغة دينية، "فلم يفرض عليه الزكاة ولا الجهاد لاعتبارهما من عبادات الإسلام الكبرى مع أن الزكاة ضريبة مالية والجهاد خدمة عسكرية"[٣٠]، وكلفهم مقابل ذلك ضريبة أخرى على الرؤوس وأعفى منها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين، وهي: الجزية مقابل أن تقوم الدولة الإسلامية بحمايتهم والدفاع عنهم.

ولبيان مجال حرية العبادة لغير المسلمين في الدولة الإسلامية بشكل أوضح نقول بأن الإسلام ذو أربع شعب: عقيدة، عباده، أخلاق، شريعة

- بخصوص العقيدة والعبادة فإن الإسلام لا يفرضها على أحد
- وأما بخصوص الأخلاق فهي في أصولها لا تختلف بين الأديان السماوية
- وفيما يتعلق بشعبة الشريعة "بالمعنى الخاص: معنى القانون الذي ينظم علاقة الناس بعضهم ببعض: علاقة الفرد بأمته وعلاقته بالمجتمع وعلاقته بالدولة وعلاقة الدولة بالرعية وبالدول الأخرى، فأما العلاقات الأسرية فيما يتعلق

---

[٢٩] صبحي الصالح، مرجع سابق ، ص ١٩٤
[٣٠] يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية ص ١٦٤

بالزواج والطلاق ونحو ذلك فهم مخيرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى الشريعة الإسلامية ولا يجبرون على شرع الإسلام، وأما ما عدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والإدارية ونحوها فشأنهم في ذلك كشأنهم في أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق وترتضيها الأغلبية"[٣١]، وبناءً على ذلك فإننا نلاحظ أن الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه في دينهم واجباً ولا على فعل أمر يرونه عندهم حراماً.

- الشعائر الدينية: فمن حقهم أن يمارسوا شعائرهم الدينية في حرية كاملة، "فلا تهدم لهم كنيسة، ولا يكسر لهم صليب، يقول الرسول ﷺ" اتركوهم وما يدينون بل من حق زوجة المسلم "اليهودية والنصرانية" أن تذهل إلى الكنيسة أو إلى المعبد ولا حق لزوجها في منعها من ذلك"[٣٢].
- أباح لهم الإسلام ما أباحه لهم دينهم من الطعام وغيره: "فلا يقتل لهم خنزير ولا تراق لهم خمر ما دام ذلك جائزاً عندهم"[٣٣].
- حمى الإسلام كرامتهم وصان حقوقهم وجعل الحرية في الجدل والمناقشة في حدود العقل والمنطق مع التزام الأدب والبعد عن الخشونة والعنف، يقول تعالى: ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذي انزل إلينا وانزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون[٣٤]﴾.
- العقوبات: {سوّى الإسلام بينهم وبين المسلمين في العقوبات، في رأي بعض المذاهب}[٣٥]

---

[٣١] المرجع سابق ص ١٦٥
[٣٢] السيد سابق، فقه السنة، مجلد ٢، ص ٦٠٤
[٣٣] المرجع سابق ص ٦٠٤
[٣٤] سورة العنكبوت آيه ٤٦
[٣٥] السيد سابق: فقه السنه مجلد ٢ ص ٦٠٥

- في الميراث: {سوّى الإسلام في الحرمان بين الذمي والمسلم، فلا يرث الذمي قريبه المسلم، ولا يرث المسلم قريبه الذمي}[٣٦].
- أباح الإسلام وأحل طعامهم والأكل من ذبائحهم والتزوج بنسائهم، يقول سبحانه ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان، ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[٣٧].
- أباح الإسلام زيارتهم وعيادة مرضاهم، وتقديم الهدايا لهم ومبادلتهم البيع والشراء ونحو ذلك من المعاملات، فمن الثابت أن الرسول ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي في دين له عليه، وكان بعض الصحابة إذا ذبح شاه يقول لخادمه إبدا بجارنا اليهودي}[٣٨].

حدود حرية العبادة

بخصوص حدود حرية العبادة لغير المسلمين في الدولة الإسلامية فلا بد من الإشارة بشكل عام إلى أنه: "لا تستقيم حياة أي فرد أو مجموعة يذهب فيها كل فرد إلى الاستمتاع بحريته المطلقة إلى غير حد ولا مدى يغذيها شعوره المطلق من كل ضغط وبالمساواة المطلقة التي لا يحدها قيد ولا شرط، فإن الشعور على هذا النحو كفيل بان يحطم المجتمع كما يحطم الفرد ذاته"[٣٩]، فللمجتمع مصلحته العليا التي لا بد أن تنتهي عندها حرية الأفراد، وللفرد مصلحة خاصة في أن

---

[٣٦] مرجع سابق ص ٦٠٥
[٣٧] سورة المائدة أيه ٥
[٣٨] السيد سابق، فقه السنه مجلد ٢ ص ٦٠٥
[٣٩] سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، ص ٦٦

يقف عند حدود معينة في استمتاعه بحريته لكي لا يذهب مع غرائزه وشهواته ولذائذه إلى الحد المردي، ثم لكي لا تصطدم بحرية الآخرين فتقوم المنازعات التي لا تنتهي وتستحيل الحرية جحيماً ونكالاً، ويقف نمو الحياة وكمالها عند المصالح الفردية القريبة الآماد.

وبالنسبة لحدود حرية العبادة والاعتقاد فهي مقيدة بالقانون والنظام العام، ولا يرضى الإسلام بأي حال من الأحوال أن تكون قضية العبادة والاعتقاد ألعوبة في أيدي الناس لأن "أخطر شيء على حياة الأمم وكيانها هو: الفوضى في الاعتقاد والاضطراب الفكري وعدم الثقة بما يظلها من نظام لأن هذا يؤدي إلى إدخال الخلل في تركيبة المجتمع ووحدته وتفكك جهته الداخلية"[٤٠]، فالإسلام يحترم حرية العبادة وحرية الاعتقاد، ويعمل على صيانة هذه الحرية وضمانتها، ومن جانب آخر لا يسمح للمرتد عن عقيدته أن يمارس حرية الارتداد متى شاء ويكون الدين ألعوبة كما قال اليهود: {آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون}[٤١]، آمنوا الصبح وفي آخر النهار اكفروا وتولوا وقولوا لقد وجدنا دين محمد صفته كذا... وكذا فتركناه ، أو آمنوا اليوم واكفروا غداً وبعد أسبوع شنعوا وشوهوا هذا الدين الجديد، فالله سبحانه وتعالى أراد ألا يكون هذا الدين ألعوبة، فمن دخل في الإسلام بعد اقتناع وبعد وعي وبصيرة فليزمه، وإلا تعرض لعقوبة الردة، ونظراً لحساسية هذه المسألة فقد فصّل الفقهاء القول فيها ووضعوا لها أحكاماً مفصلة تتضمن عقوبة المرتد عن دينه تصل أحيانا إلى حد القتل من ذلك ما روي عن عكرمة قال: "أتي أمير المؤمنين علي ﷺ بزنادقة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس، فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ

---

[٤٠] يوسف حامد العالم، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية ص ٢٦٢

[٤١] سورة ال عمران آيه ٧٢

قال: لا تعذبوا بعذاب الله، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ " من بدّل دينه فاقتلوه" رواه الجماعة إلا مسلماً[٤٢]، هذا بالنسبة للمسلم إذا ارتد وأما بخصوص غير المسلم إذا بدل دينه فهناك تفاصيل لهذه المسألة ليست مجالاً للخوض فيها، فقط أشير إلى مسألة واحدة من ذلك: "إذا انتقل الكتابي إلى غير دين أهل الكتاب أو انتقل المجوسي إلى غير دين أهل الكتاب، لم يقر وأمر أن يسلم فإن أبى قتل"[٤٣]، وهذا للدلالة على خطورة قضية الفوضى في العبادة والاعتقاد، إذن، حرية العبادة والاعتقاد لها حدود ومن هذه الحدود:

المحافظة على الصالح العام، عدم الاعتداء على حرية الآخرين، عدم شيوع الفوضى في مجال الفكر والاعتقاد، "مراعاة مشاعر المسلمين وحرمة دينهم فلا يظهروا شعائرهم وصلبانهم في الأمصار الإسلامية، ولا يحدثوا كنيسة في مدينة إسلامية لم يكن لهم فيها كنيسة من قبل، وذلك لما في الإظهار والإحداث من تحدي الشعور الإسلامي مما قد يؤدي إلى الفتنة والاضطراب"[٤٤]، ومن ذلك أيضاً مراعاة هيبة الدولة الإسلامية التي تظلهم بحمايتها ورعايتها فلا يجوز لهم أن يسبوا الإسلام ورسوله وكتابه، وأن لا يروجوا من العقائد والأفكار ما ينافي عقيدة الدولة ودينها ما لم يكن ذلك جزءاً من عقيدتهم كالتثليث والصلب عند النصارى، وأن لا يتظاهروا بعمل وفعل أي شيء يحرمه الإسلام كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير وتناول الطعام والشراب في رمضان وما شابه.

ومن هنا يتضح لنا أن غير المسلمين يتمتعون بحريتهم الدينية في الدولة الإسلامية شريطة التزامهم بأحكام الإسلام العامة وقوانين الدولة الإسلامية فيما لا يمس عقائدهم وحريتهم الدينية، لأنه بهذا الالتزام وبمقتضى عقد الذمة يعتبرون حاملين

---

[٤٢] الشوكاني: نيل الأوطار ج٧ ص ١٩١

[٤٣] ابن قدامه: المغني والشرح الكبير ج١ ص ٦٢٢

[٤٤] يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ٢٠

لجنسية الدولة الإسلامية، وهم بذلك يعتبرون، وبحكم إنسانيتهم، مواطنين كبقية المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

وهذا برهان ودليل على أن غير المسلمين في الدولة الإسلامية وبتمتعهم بهذا المدى من حرية العبادة والاعتقاد لا يعتبروا أقليات وإنما هم مواطنون كبقية المسلمين ولا أقول من الدرجة الأولى، لأن درجات المواطنة غير موجودة في الدولة الإسلامية.

ضمان وكفالة حرية العبادة

لقد قررت الشريعة الإسلامية لغير المسلمين في الدولة الإسلامية تلك الحرية الدينية في المدى والمجال الذي يحقق لهم إنسانيتهم وكرامتهم وتمتعهم بحقوق المواطنة الكاملة في الدولة الإسلامية، ولكن من يضمن هذه الحرية وما السبل إلى حمايتها وكفالتها خصوصاً ونحن نلاحظ أن بعض القوانين والدساتير في بعض الدول تنص على الخرية والمساواة في الحقوق والواجبات بين المواطنين، لكنها تبقى أحياناً حبراً على ورق وذلك لغلبة الأهواء والعصبيات والمصالح الشخصية وما إلى ذلك، لكن الأمر في الدولة الإسلامية يختلف، فهناك عدة ضمانات تكفل هذه الحرية وتصونها وتحفظها من عبث العابثين.

أولاً: ضمان العقيدة

- إن الشريعة الإسلامية هي شريعة الله وقانون السماء الذي لا تبديل لكلماته ولا جور في أحكامه، ولا يتم الإيمان بالله ولا يتحقق إلا بطاعته ونيل رضوانه، يقول تعالى: ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾[٤٥]، ولهذا يحرص كل مسلم ملتزم بدينه على تنفيذ أحكام

[٤٥] سورة الأحزاب آيه ٣٦

الشريعة الإسلامية ووصاياها ليرضي ربه وينال ثوابه بغض النظر عن عواطف القرابة والأهواء الشخصية، يقول تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنئآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون[٤٦]﴾، وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾[٤٧]

- اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان أياً كان دينه أو جنسه أو لونه قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾[٤٨]
- اعتقاد المسلم وإيمانه بأن الله سبحانه وتعالى هو وحده الذي يحاسب الناس على انحرافهم وكفرهم وضلالهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾[٤٩]. ويقول تعالى مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير﴾[٥٠]

من خلال هذا الاعتقاد الذي يفهم من النصوص القرآنية يتبين لنا أن حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية "ومنها حرية العبادة" هي أمر مقدس عند كل مسلم وقرآن يتلى إلى أن تقوم الساعة وطريق إلى الفوز بمرضاة الله عز وجل.

---

[٤٦] سورة المائدة آيه ٨
[٤٧] سورة النساء آيه ١٣٥
[٤٨] سورة الإسراء آيه ٧٠
[٤٩] سورة الحج الآيات ٦٨-٦٩
[٥٠] سورة الشورى آيه ١٥

ثانياً: ضمان المجتمع الإسلامي

أبناء المجتمع الإسلامي شركاء في المسؤولية عن تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، فإذا قصر بعض الناس في التنفيذ وجد في المجتمع من يذكرّه ويردّه إلى الحق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ويؤكد هذا الضمان المجتمعي الضمير الإسلامي العام الذي صنعته العقيدة الإسلامية والتربية الإسلامية والتقاليد الإسلامية، والتاريخ الإسلامي مليء بالوقائع التي تدل على التزام المجتمع الإسلامي في حماية غير المسلمين وضمان حريتهم وكرامتهم من كل ظلم يمس حقوقهم وحريتهم، فإذا كان الظلم قد وقع من أحد أفراد المسلمين إلى ذمي، فإن المسؤول في ذلك البلد سرعان ما ينصفه ويرفع الظلم عنه بمجرد شكواه من ذلك: "شكا أحد رهبان النصارى في مصر إلى الوالي أحمد بن طولون أحد قواده لأنه ظلمه وأخذ منه مبلغاً من المال بغير حق، فما كان من ابن طولون إلا أن أحضر هذا القائد وأنّبه وعزّره وأخذ منه المال ورده إلى النصراني وقال له: لو ادعيت عليه أضعاف هذا المبلغ لألزمته به"[٥١]. وإذا كان الظلم واقعاً من الوالي نفسه أو من ذويه وحاشيته، فإن إمام المسلمين وخليفتهم هو الذي يتولى ردعه ورد الحق إلى أهله، ومن أشهر الأمثلة على ذلك "قصة القبطي مع عمرو بن العاص والي مصر حيث ضرب ابن عمرو ابن القبطي بالسوط وقال له، أنا ابن الأكرمين فما كان من القبطي إلا أن ذهب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشكا إليه، فاستدعى الخليفة عمرو بن العاص وابنه، وأعطى السوط لابن القبطي وقال له: اضرب ابن الأكرمين، فلما انتهى من ضربه التفت إليه عمر

---

[٥١] يوسف القرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، ص ٢٧

وقال له: أدرها على صلعة عمرو فإنما ضربك بسلطانه، فقال القبطي، إنما ضربت من ضربني ثم التفت عمر إلى عمرو وقال كلمته الشهيرة: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"[٥٢].

وإذا لم يصل الأمر إلى الخليفة نفسه أو كان الخليفة نفسه على طريقة واليه فإن الرأي العام الإسلامي الذي يتمثل في فقهاء المسلمين وعامتهم يقف بجوار المظلوم، فلم يعرف تاريخ المسلمين ظلماً وقع على غير المسلمين في الدولة الإسلامية واستمر طويلاً، حيث كان الرأي العام والفقهاء ضد الظلمة والمنحرفين، وسرعان ما يعود الحق إلى نصابه، فقد حصل أن "أخذ الوليد بن عبد الملك كنيسة يوحنا، من النصارى وأدخلها في المسجد، فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى إليه، ما فعل الوليد بهم في كنيستهم، فكتب إلى عامله يرد ما زاده في المسجد عليهم لولا أنهم تراضوا مع الوالي على أساس أن يعوضوا بما يرضيهم".

ثالثا: نزاهة القضاء واستقلاليته

ومن مفاخر النظام الإسلامي ما منحه من سلطة واستقلال للقضاء، وفي ذلك ضمان للحقوق وللحريات للمسلم وغير المسلم، ففي رحاب القضاء الإسلامي يجد المظلوم والمغبون للحقوق وللحريات للمسلم وغير المسلم، ففي رحاب القضاء الإسلامي يجد المظلوم والمغبون الضمان والأمان مهما كان جنسه ودينه، وفي تاريخ القضاء الإسلامي أمثلة ووقائع كثيرة وقف السلطان أو الخليفة مدعياً أو مدّعى عليه وفي كثير منها كان الحكم على الخليفة أو السلطان لصالح فرد من أفراد الشعب، من ذلك:

---

[٥٢] المرجع السابق ص٢٧

"سقطت درع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فوجدها عند رجل نصراني، فاختصما إلى القاضي شريح، قال علي: الدرع درعي ولم أبع ولم أهب، فسأل القاضي ذلك النصراني في ما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي يسأله: يا أمير المؤمنين هل لك من بينه؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح مالي بينه، وقضى شريح للنصراني بالدرع لأنه صاحب اليد عليها، ولم تقم بينة على خلال ذلك، فأخذها هذا الرجل ومضى ولم يمش خطوات حتى عاد يقول: أما إني أشهد أن هذه أحكام أنبياء، أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمد رسول الله، الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق من صفين، فخرجت من بعيرك الورق، فقال علي رضي الله عنه: أما إذا أسلمت فهي لك"[٥٣] .

رابعاً: المعاهدات والوصايا والعقود

فقد حفظ لنا التاريخ الإسلامي الكثير من العهود التي تنصف غير المسلمين وتضمن لهم حريتهم وسائر حقوقهم، وان الوفاء بهذه العهود يعتبر واجباً شرعياً وأمراً ربانياً لا مناص للمسلم من الالتزام والوفاء به، يقول تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾[٥٤] من ذلك:

- تلك الوثيقة التي كتبها الرسول ﷺ" بين المهاجرين والأنصار والتي وادع فيها اليهود في المدينة وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وجاء فيها "يهود بني

---

[٥٣] المرجع السابق ص ٣٠

[٥٤] سورة المائدة آيه ١

عوف أمة مع المؤمنين لليهود، دينهم، وللمسلمين دينهم..."[٥٥]، وقد أعطت هذه المعاهدة اليهود حرية كبيرة في ديارهم وعبادتهم وتعاملهم مع المسلمين، ومن هذه المعاهدات: معاهدة النبي ﷺ مع نصارى نجران وجاء فيها، أن الرسول ﷺ "قد أعطاهم ذمة الله على مائهم وأموالهم وملتهم وبيعتهم ورهبانهم وأساقفتهم وشاهدهم وغائبهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وعلى أن لا يخسروا أو يعشروا أو يطأ أرضهم جيش...."[٥٦]، وعلى هذا المنوال من التعاقد جرت معظم المعاهدات بين أصحاب النبي ﷺ وبين أهل البلاد المفتوحة حيث أعطت هذه المعاهدات لأهل الكتاب ولغيرهم الحرية الدينية والاجتماعية والاقتصادية، فهذا عمرو بن العاص يكتب بيده عهداً للقبط في مصر يتضمن إعطائهم الحرية الدينية وحماية كنائسهم، وكتب كذلك أماناً للبطريق بنيامين ورده إلى كرسيه بعد أن تغيبت عنه زهاء ثلاثة عشرة سنة وأمر عمرو باستقبال بنيامين عندما قدم الإسكندرية أحسن استقبال.."[٥٧].

وأعطى كذلك عمر بن الخطاب رضي الله أهل إيلياء (القدس) أمانة لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا صليبها ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولما كان عمر رضي الله عنه في كنيسة القيامة بصحبة أسقفها وحان وقت الصلاة طلب منه أن يصلي بالكنيسة فاعتذر خشية أن يجيء المسلمون فيما بعد ويخرجون النصارى من كنيستهم بحجة أن خليفتهم صلى بها يوماً ما"[٥٨]

---

[٥٥] د٠ محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، ص ١٦٠

[٥٦] دراسات في الفكر العربي الإسلامي، مرجع سابق ص ٣٥٩

[٥٧] تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د٠ حسن إبراهيم حسن جزء ١ ص ٢٤٠

[٥٨] الحريات العامة في الإسلام، د٠ محمد سليم غزوني، ص ٧٦

وهكذا تبين لنا أن الإسلام رسالة السماء للناس كافة، اعترف بفضل الأديان السماوية السابقة وحاور معتنقها بالحسنى ودعاهم إلى عقيدة التوحيد. والناس في ظل الدولة الإسلامية أمة واحدة بحكم إنسانيتهم، متساوون في الحقوق والواجبات وان اختلفت عقائدهم، فالإسلام لا يكره أحداً على اعتناق عقيدته، فتح القلوب بالرحمة والألفة ولم يفتحها بالقسوة والوحشة.

والإسلام دين الحرية لا تتفتح أزهاره ولا تتعمق جذوره ولا تمتد فروعه ولا يعطي ثماره إلا في جو من الحرية التي تحفظ للإنسان إنسانيته وكرامته، والإسلام لا ينكر دور الآخرين في الحرص على الحريات والحقوق لكنه أعطاها لغير المسلمين في الدولة الإسلامية دون مطالبة منهم، وإنما بقرار سماوي، وهي بالمقارنة مع الحريات والحقوق التي أقرتها الهيئات الدولي، ارحب مدى وأدق مدلولا، وأوضح معالم واقرب إلى التطبيق، وغير المسلم في الدولة الإسلامية آمن مطمئن لا يخاف سلب حريته وحقه طالما أنه ملتزم بقانون الدولة والتي من جانبها كفلت وضمنت تلك الحقوق والحريات وأكبر ضمان للحرية في الإسلام أنها أعطيت بقرار سماوي من خلال نصوص القرآن الكريم، وهذه النصوص جزء من عقيدة المسلم فهي حق مقدس، وكان آخر كلام للرسول صلى الله: احفظوني في ذمتي ثم وقوله عليه السلام: من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه.

وهذا كلام من نبي الإسلام غنيّ عن التعليق

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * * * *

المراجع

- القرآن الكريم
- ابن كثير: أبي الفداء إسماعيل: (١٩٨٠) تفسير ابن كثير ، الجزء الأول، دار الفكر
- ابن قدامه: موفق الدين ابن محمد عبد الله بن أحمد (١٩٨٤) المجلد العاشر ط١ بيروت، دار الفكر
- البوطي: محمد سعيد رمضان (١٩٧٨) فقه السيرة، ط ٧، دمشق، دار الفكر
- حسن: حسن إبراهيم (١٩٦٤)، تاريخ الإسلام، ط٧ بيروت، دار الأندلس
- الحسن، محمد علي (١٩٨٠) العلاقات الدولية في القرآن الكريم والسنه، ط١ عمان ، مكتبة النهضة الإسلامية
- سابق: السيد سابق (١٩٧٧)، فقه السنه، مجلد ٢ ط٣، بيروت ، دار الكتاب العربي
- الشرقاوي: محمود الشرقاوي(١٩٦٩)، التطور روح الشريعة الإسلامية، بيروت، المكتبة العصرية
- الشوكاني: محمد بن علي بن محمد(ت١٢٥٥) نيل الأوطار، ج٨، القاهرة، دار الحديث
- الصالح: صبحي الصالح (١٩٨٠)، معالم الشريعة الإسلامية ط٣ بيروت، دار العلم للملايين
- العالم: يوسف حامد (١٩٩١) المقاصد العامة للشريعة الإسلامية ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية
- الغزالي: محمد الغزالي (١٩٨٩) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، ط١، القاهرة، دار لتوزيع والنشر الإسلامية

- غزوي، محمد سليم محمد، الحريات العامة في الإسلام، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة
- القرضاوي: يوسف، (١٩٩٠) أولويات الحركة الاسلامية في المرحلة القادمة، ط١، الدوحه، مؤسسة الرسالة
- القرضاوي: يوسف، (١٩٨٣)، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ط٢، بيروت، مؤسسة الرسالة
- قطب: سيد قطب (١٩٥٤)، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق
- الكيلاني: إبراهيم زيد (وآخرون)(١٩٨٨) ، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، عمان، دار الفكر
- الألوسي: أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود، روح المعاني، مجلد ٥ ج ١٥، بيروت، دار الفكر
- النجار، عبد المجيد (١٩٨١)، دور حرية الرأي في الوحدة الفكرية بين المسلمين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي
- النحلاوي: عبد الرحمن(١٩٧٩)، أصول التربية وأساليبها، ط١، دار الفكر
- وافي: علي عبد الواحد (١٩٧٩)، حقوق الإنسان في الإسلام، ط٥، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

الندوة الحادية عشر*

محمد ﷺ في الكتاب المقدس

الشيخ يعقوب قرش**

مقدمه

الحمد لله تعزز بالأحديّة وتفرّد بالوحدانية، الغني عن المحل، المخالف للحوادث، واحد لا يتجزأ، وأحد لا يتحد به أو يحل.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وخاتم أنبيائه الذين هم عباده ومصطفيه من خلقه، تشرفوا بالعبودية وكانوا أعرف الناس بالألوهيّة الحقّة، تنزّل عليهم الروح القدس سفيراً ووحياً مكرماً من الله جل وعزّ لا نفرّق بين أحد من رسله، جاءوا جميعهم مبشرين برسول يأتي في آخر الزمان فيكون النبي الخاتم، وأخذ عليهم العهد بنصرته وتأييده والسير معه، فجعل الله بعثته ختام النبوات، وشريعته ناسخة الشرائع، ودعوته وأحكامه إلى الناس كافة إلى آخر الزمان.

وكان من رحمته تعالى لخلقه وعدله فيهم أن جعل أوصافه وعلاماته موجودة في التوراة والزبور والإنجيل لتكون رحمة لهم تعينهم على الإيمان به واتباعه قال سبحانه: [الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل][1].

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٣٠ أيار ٢٠٠١

**مدير دار الفقه الإسلامي- القدس

[1] سورة الأعراف آيه ١٥٧.

وبعد

فإن تلمّس إشارات ونبوءات تدل على النبي محمد ﷺ النبي الخاتم في الإنجيل والتوراة أمر وجدَ مع بداية الدعوة والبعثة وأسلم بسببها العديد من علماء اليهود والنصارى وأقرّت كذلك قياداتهم السياسية بها، فكان النجاشي والمقوقس وهرقل ممن أقرّوا برسالة محمد ﷺ وأنه نبي صدق وأن كلامه وكلام المسيح عليه السلام يخرجان من مشكاة واحدة، حتى أننا نستطيع القول أن الرهبان قد أوصلوا سلمان الفارسي إلى هذا النبي ومكانه واسمه والإيمان به واتباعه.

وفي هذا البحث حاولت جمع بعض النصوص من الكتاب المقدس تدور حول هذا النبي المنتظر، فسجلت بداية النبوءة بظهور النبي، وهي التي يتفق عليها الجميع، ثم بينت أن هذا النبي لم يظهر في بني إسرائيل حتى مجيء المسيح عليه السلام وذهابه. وبعد ذلك قدمت أدلة على أن هذا النبي هو محمد ﷺ، فبداية أوضحت في الدليل الأول وقبل كل شيء جواز أن يكون النبي المنتظر من ذرية إسماعيل عليه السلام حسب قانون الوراثة والبكورة في التوراة.

ثم قدمت الدليل الثاني والثالث والرابع والخامس حيث بيّنت من خلالها بالتفصيل أن مكان ظهور هذا النبي هو مكة والمدينة.

ثم أوضحت من خلال الدليل السادس والسابع والثامن والتاسع أن النبوة ستخرج من بني إسرائيل وستكون في ذرية إسماعيل وولده قيدار ونسلهما.

وفي الدليل العاشر عرضت صفات النبي الذي بشر به سيدنا داود عليه السلام والتي جاءت في الزبور، وبيّنت كيف أنه لم يظهر بعد داود نبيّ اتّصف بهذه الصفات سوى النبي محمد ﷺ.

أما في الدليل الحادي عشر فقد ناقشت بإسهاب قضية الفار قليط وبيّنت أنه لا يمكن أن يكون المقصود بالكلمة مهما كان لفظها الروح القدس الذي هو الاقنوم الثالث،

وعندها قدّمت من خلال نقاط النقاش نصاً من الإنجيل باللغة العبرية يحوي صراحة اسم أحمد، وبيّنت كيف حُذِفَ ذلك وقُدّم بدله ترجمة أو معنى بطريقة تشوه الأصل والحقيقة.

وهكذا فإنني أعتقد أن الأدلة التي أُخذت فقط من الكتاب المقدس دلّت على مكان ظهور النبي، وعلى شعبه وأمته التي يظهر منها، وعلى صفاته التي عرف بها، بل وعلى اسمه أو لقبه أو حقيقته كداعية حق للناس أجمعين، كل هذه الأدلة من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وبطبعاته الموجودة والمعترف بها.

منطلق البحث

جاء في سفر الاستثناء (١٨) أن الله تعالى خاطب موسى عليه السلام حول بني إسرائيل قائلاً: [وسوف أقيم لهم نبياً مثلك، من بين اخوتهم، واجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمره به ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك]، من هذا النص الواضح والمتفق عليه من الجميع، وهو وعد الله تعالى القاطع بإقامة نبي بعد النبي موسى عليه السلام، وهذا النبي له مكانة عظيمة بين الأنبياء، لأنه ظهر فيما بعد أنبياء كثيرون، فإذا خُصّص هذا النبي من بينهم بوعد إلهي مخصوص فلا شك أن هذا يدل على أن له المكانة العليا بين الأنبياء. وسأحاول تتبع الكتاب المقدس بقسميه العهد القديم والجديد لنتعرف على هوية هذا النبي المنتظر.

هل يوشع عليه السلام هو ذلك النبي؟

حاول اليهود الإدعاء بأن النبي الموعود به هو يوشع عليه السلام، ولكنهم فشلوا في ذلك، ووضح فشلهم لهم وللجميع بسبب نقاط عديدة منها:

١. أن الوعد سيتحقق في المستقبل، بل المستقبل البعيد بسبب كلمه (وسوف)، بينما يوشع عليه السلام كان مقاماً نبياً وقتها.

٢. إن يوشع عليه السلام من بني إسرائيل، وحسب نصّ التوراة، الاستثناء (٣٤): (ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى)، فيتضح من ذلك أن يوشع عليه السلام ليس هو المقصود.

٣. أن يوشع عليه السلام نفسه لم يدّع أنه هو ذلك النبي المنتظر، بينما من الطبيعي والضروري أن هذا النبي عندما يظهر يجب أن يعلن عن نفسه أنه هو المقصود بهذا الوعد، وهذا من أول واجباته التي يجب أن يبلغها للناس لينهي هذا الموضوع ويقفل الباب أمام أي إنسان كاذب يأتي ويدّعي أنه هو ذلك النبي ويضل الناس.

٤. إن الكهنة ورجال الدين سألوا يوحنا المعمدان حسب ما ورد في إنجيل يوحنا (١) ما إذا كان هو ذلك النبي المنتظر، فلو كانوا يعتقدون أن يوشع كان ذلك النبي وقد ظهر وانتهى منذ زمن طويل لما سألوا مثل هذا السؤال للنبي يوحنا.

٥. لو تأملنا في النص: "وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم"، نجد أنه يؤشر أن النبي لن يكون من بني إسرائيل، لأنه لو كان منهم لكان النص وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بينهم أو من أوسطهم، لأن جميع بني إسرائيل بأسباطهم الإثني عشرة كانوا موجودين عند موسى عليه السلام.

إن كلمة اخوتهم فيها إشارة إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام وذريته، وقد استعملت التوراة هذه الكلمة لهذا المدلول، حيث تقول في الباب (١٦) متحدثة عن وعد الرب هاجر في حق إسماعيل: (وقبالة بجميع أخوته ينصب المضارب). (وفي حضرة جميع أخوته يسكن)، (منتهى جميع أخوته يسكن).

هل يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) هو النبي المنتظر؟

يستدل من نصوص الإنجيل أن يوحنا المعمدان ليس هو النبي المنتظر، وذلك من خلال نقاط عديدة منها:

١. عندما سأله الكهنة ورجال الدين فيما إذا كان هو النبي المنتظر كان جوابه بالنفي[يوحنا ١.]

٢. إن السيد المسيح ﷺ وصف يوحنا المعمدان على أنه هو إيلياء كما ورد في إنجيل متى (١٢): (ولكني أقول لكم إن إيلياء قد جاء ولم يعرفوه بل عمل كل ما أرادوا، كذلك ابن الإنسان، فسوف يتألم منهم، حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان).

٣. إن يوحنا المعمدان نفسه صرح في أكثر من نص من الكتاب المقدس أنه ليس ذلك النبي، وان ذلك النبي سوف يأتي بعده، وأن له مكانة عظيمة جداً، نختار النص الوارد في أعمال الرسل (١٣): (ولما صار يوحنا يكمل سعيه جعل يقول من تظنون أني أنا، لست أنا إيّاه، لكن هو ذا يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن أحل حذاء قدميه)، ويقول عنه في موضوع آخر: (أنا أعمدكم بالماء وذلك للتوبة وغفران الخطايا، ولكن هناك شخص قادم بعدي وأقوى مني لدرجة أنني لا أستحق حل سبور حذائه وسيعمدكم بالروح والنار).

٤. اعتبر يوحنا المعمدان نفسه جندياً يمهد الطريق أمام ذلك النبي، والملكوت القادم كما جاء في إنجيل متى (٣)، (وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برّية اليهودية قائلاً توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات)، وهو قطعاً لا يعني بذلك السيد المسيح. لأن السيد المسيح ﷺ نفسه بشّر بنفس البشارة بعده.

٥. عندما كان يوحنا المعمدان في السجن، سمع عن معجزات عظيمة تمت على يد يسوع مما دفعه إلى إرسال تلميذين من تلاميذه إلى يسوع لسؤاله، كما جاء في إنجيل متى (١١): أما يوحنا فلما سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل

اثنين من تلاميذه وقال له: (أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟)، والسيد المسيح عليه السلام لم يكن جوابه بالإيجاب.

هل السيد المسيح عليه السلام هو النبي المنتظر؟

اعتماداً على نصوص العهد القديم والجديد، نستطيع التأكيد أن السيد المسيح عليه السلام ليس هو ذلك النبي المبشر به، ويتبين هذا من النقاط التالية:

١- في نفس النص من سفر الاستثناء الذي يبشر بنبي قادم هناك كلمتان تجعلاننا نستبعد أن يكون المسيح عليه السلام هو ذلك النبي:

الكلمة الأولى: (مثلك) فمن صفات النبي المنتظر أنه يماثل النبي موسى عليه السلام، والمسيح عليه السلام بينه وبين موسى اختلافات جوهرية تمنع القول بالتماثل بينهما منها:

أ- الولادة: موسى من أب وأم، وعيسى من أم بدون أب.

ب- الموت: موسى مات ودفن كما البشر الآخرين، بينما المسيح غير ذلك.

ت- الرسالة: موسى جاء بشريعة جديدة، فيها أحكام تعالج أمور الدنيا والدين، بينما المسيح لم يأت بشريعة جديدة، بل بتعاليم أخلاقية راقية وروحانية شفافة.

ث- الزواج والأولاد: موسى تزوج وأنجب، بينما المسيح لم يفعل.

يضاف لكل ذلك ما يلي: إن الله تعالى ذكر صفة واحدة للمبشّر به، وهي أنه نبي، وليس ابن الله أو الله، ومن هنا فكلما أصرّ أهل الإنجيل أن المسيح عليه السلام هو ابن الله أو هو الرب أو ثالث ثلاثة، فهم بإصرارهم هذا ينفون نفياً جازماً هذه المثلية لأن موسى عليه السلام له صفة واحدة فقط هي النبوة.

الكلمة الثانية: (من بين أخوتهم) وقد مرّ معنا أنه يستبعد جداً أن يكون المقصود بذلك أن هذا النبي من ذرية يعقوب، بل من ذرية إسماعيل ﷺ، وسيكون جوهر هذا البحث هو التدليل على هذه النقطة بدلائل مترابطة تجعلنا نجزم بذلك.

٢- لو كان السيد المسيح ﷺ هو النبي الموعود به في التوراة لكان من أساسيات دعوته أن يقول ذلك ويوضح أنه هو ذلك النبي كي يمنع أي مدّع يأتي في زمانه أو بعده ويدّعي ذلك ويفتن الناس.

٣- مر معنا أن الكهنة ورجال الدين إلى زمن يوحنا المعمدان (وهو نفس زمان المسيح عليه السلام) كانوا يسألون عن ثلاثة: إيلياء، المسيح، النبي، ومر معنا أن المسيح ﷺ شهد أن إيلياء هو يوحنا المعمدان، وورد كذلك في إنجيل متى(٤/٥-٦) أن إيلياء وهو (إلياس) جاء قبل ذلك.

على ضوء ذلك وفي كلا الحالتين فقد بقي أمامنا اثنان فقط هما: المسيح والنبي، وهما اثنان مختلفان وليسا واحداً بدليل النص التالي من إنجيل يوحنا (٧) بعد أن تكلم يسوع، على الجموع المحتشدة: (قال البعض هذا هو بالحقيقة النبي، وآخرون قالوا هذا هو المسيح), وهذا النص يدل أن المسيح شخص آخر، ولما أعلن يسوع أنه هو المسيح وتقبل أهل الإنجيل ذلك، فمن المنطق والحق أن نسأل أخيراً عن النبي من هو؟؟

ولتوضيح الأمر نقول:

عندما ذهب الكهنة ورجال الدين إلى يوحنا سألوه ثلاثة أسئلة عن إيلياء، والمسيح، والنبي، فلو ظهر نبي بعد المسيح، وذهب الكهنة ورجال الدين إليه كم سؤالاً سيسألونه؟ واضح أنه سيسألونه سؤالاً واحداً، هل أنت النبي؟ لأنه لم يعد إلا هذا السؤال.

نستفيد من ذلك أن النبي لم يظهر حتى عهد السيد المسيح، لذلك فإن زمان ظهور هذا النبي هو بعد زمان السيد المسيح عليه السلام.

٤- مما يعزز رأينا السابق أن السيد المسيح ﷺ قد بشّر بقدوم هذا النبي كما فعل يوحنا المعمدان، كما جاء في إنجيل متى (٤)، (ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات).

على ضوء ما سبق يتبين لنا من دراسة الكتاب المقدس بعهديه أن هناك بشارة واضحة بأن الله تعالى سيبعث نبياً، وتبين لنا أن هذا النبي المنتظر لم يظهر في بني إسرائيل أو غيرهم حتى زمن قدوم السيد المسيح ﷺ وذهابه.

وفيما يلي سنستعرض نصوصاً من الكتاب المقدس من العهدين القديم والجديد تدل دلالة واضحة أن النبي سيكون من ذرية إسماعيل، ومكانه مكة المكرمة، بل وتشير حتى إلى اسمه ولقبه.

الدليل الأول

أولاً وقبل كل شيء لا يصح لأي شخص أن يحرم إسماعيل ﷺ من عهد النبوة ويدّعي أن رأيه نابع من التوراة وبشكل جازم، فهناك نصوص في التوراة الموجودة حالياً تدل على أحقية إسماعيل بوراثة النبوة والمكانة والحكم بعد أبيه إبراهيم عليهما السلام، وبالتالي ذريته من بعده، ويتضح ذلك من خلال النقاط التالية:

١- إسماعيل ﷺ هو الابن الأكبر لسيدنا إبراهيم ﷺ، من جاريته هاجر التي أصبحت زوجته، (وأعطتها لإبرام رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت) تكوين (١٦).

٢- التوراة تنص بشكل واضح أن الله تعالى بارك سيدنا إسماعيل عليه السلام: جاء في سفر التكوين (١٧): (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، هاأنا أباركه وأثمّره وأكثره كثيراً جداً، اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة).

٣- قانون الوراثة في التوراة يعني أن إسماعيل هو الذي سيرث الأمر من بعد أبيه عليهما السلام، وهذا يتضح مما جاء في سفر التثنية (٢١): (وإذا كان لرجل زوجتان وكانت إحداهما مفضلّة عنده على الأخرى، وكان لكل واحدة منهما ولد وإذا كان ابن غير المفضلة هو الولد البكر، فإن الولد البكر هو المرشح ليحلّ محل أبيه في تحمل الحكم وولاية العهد وليس ابن الزوجة المفضلة، وعليه فإن الولد البكر سوف يرث ضعف ما يرث أخوه).

الدليل الثاني

جاء في سفر الاستثناء (٣٣) النص المشهور التالي: (وقال جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار)، فإذا كان مجيئه من سيناء كناية عن إعطائه التوراة لموسى عليه السلام وإشراقه من ساعير كناية عن إعطائه الإنجيل للمسيح عليه السلام، فلماذا لا يكون استعلانه من جبل فاران كناية عن إنزال القرآن الكريم على محمد ﷺ سيما وأن جبل فاران من جبال مكة حيث عاش محمد ﷺ . فإن أرادوا إنكار كون فاران من جبال مكّة تذكرهم بما ورد في سفر التكوين (٢١) حول سيدنا إسماعيل عليه السلام: (وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شاباً يرمي السهام، وسكن بريّة فاران)، ومعلوم أن إسماعيل عليه السلام في تلك المرحلة من عمره سكن مكة. كذلك نذكرهم بما ورد في سفر حبقوق(٣): (الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران سلوه).

أما إذا ادعوا أن النص لا يعني بالضرورة ظهور دين أو ظهور شريعة في ذلك المكان فنذكرّهم بما جاء في سفر أشعياء (٢١). (وحي من جهة بلاد العرب في الوعر من بلاد العرب)

الدليل الثالث

لنتأمل في هذا النص من سفر اشعيا (٤٢): (التي قد كانت قد أتت وأنا مخبر أيضاً بأحداث قبل أن تحدث وأسمعكم إياها: سبحوا للرب تسبيحة جديدة، حمدة، من أقاصي الأرض راكبين في البحر وملؤه الجزائر وسكانهن، يرتفع البرية ومدنها في البيوت، نمل قيدار سبحوا يا سكان الكهف من رؤوس الجبال يصيحون)، عندما يرى الباحث عن الحقيقة أن هذا النص يتحدث عن شريعة جديدة سيتذكر مباشرة الوعد الإلهي بإقامة نبي وأن هذا النبي لم يظهر حتى زمن المسيح عليه السلام.

وعن مكان انطلاق هذه الشريعة يذكر النص السابق أنها من أقاصي الأرض فإذا علمنا أن التوراة وأهلها كانوا في فلسطين، فإن أقاصي الأرض لا مانع أن تعني مكة المكرمة البعيدة عن فلسطين، في حين أن ذلك يمنع أن تكون الشريعة الجديدة (وبالتالي النبي المنتظر) ستظهر من فلسطين.

وعندما نقول أن أقاصي الأرض أفضل تفسير لها هو مكة والحجاز، فلأن النص السابق اقترن بذكر ابن إسماعيل (قيدار) الذي عاش وذريته في تلك البلاد ومنها ظهر نبي اسمه أحمد قال عن نفسه أنه النبي المُبَشّر به، جاء في سفر التكوين (٢٥): (وهذه أسماء بني إسماعيل حسب بنايوت بكر إسماعيل، قيدار... اثني عشر قبيلة).

أما عن أصحاب هذه الشريعة وحملتها ومسيرتهم التاريخية فإن سفر شعيا (٤٢) نفسه يتابع فيصفهم بقوله (وأقيد العمي في طريق لم يعرفوها، والسبل لم يعلموا

أسيّرهم فيها، أصيّر أمامهم الظلمة نوراً والصعب سهلاً، هذا الكلام صنعته لهم ولا أخذلهم، اندبروا إلى ورائهم والمتكلمون القائلون للمسبوكة إنكم آلهتنا ليخزون خزياً).

وتعقيباً على هذا النص يكفي أن نقول: لو أردنا أن نصف التغيرات التاريخية التي طرأت على العرب من قبل الإسلام إلى بعده من انتقال من جهل إلى علم، ومن ظلمة إلى نور، ومن ذلة إلى عزة ونصر، ومن تفرق إلى وحدة، كل هذه التغييرات لو أردنا أن نصفها أو نتنبأ بها قبل حدوثها لا نجد أفضل من النصوص السابقة التي وردت أعلاه.

وجدير بنا أن نُذكّر هنا أن بعض الطبعات تروي النص السابق كما يلي: (غنوا للرب أغنية جديدة، تسبيحة من أقصى الأرض، أيها المنحدرون في البحر وملؤه الجزائر وسكانها، لترتفع البرية ومدنها، صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سالع، من رؤوس الجبال ليهتفوا)

نلاحظ أن هذا النص يتكلم عن ذرية (قيدار) وعن مكان (سالع)، وإذا علمنا أن سالع هو جبل في المدينة المنورة أصبحت الدلالة أكبر، وأصبح تفهمنا أعمق لماذا حذفت هذه الكلمة (سالع) من الطبعات الأخرى!

الدليل الرابع

جاء في كتاب أشعيا (٥٤) هكذا: (سبحي أيتها العاقر التي لست تلدين، انشدي بالحمد وهلّلي، التي لم تلدي من أجل أن الكثيرين من بني الوحشة أفضل من بني ذات رجل يقول الرب، أوسعي موضع خيمتك وسرادق مضاربك ابسطي لا تشفقي طول حبالك، ثبتي أوتادك، لأنك تنفدين يمنة ويسرة، زرعك يرث الأمم ويعمّر المدن الخربة. لا تخافي لأنك لا تخزين، ولا تخجلين فإنك لا تستحيين من أجل أنك

خزي صبائك تنسين، وعار ترمّلك لا تذكرين أيضاً، فإنه يتولى عليك الذي صنعك رب الجنود اسمه وفاديك قدوس إسرائيل إله جميع الأرض يدعى، إنما الرب دعاك مثل المرأة المطلقة والحزينة الروح وزوجة منذ الصبا مرذولة قال إلهك، لساعة في قليل تركتك، وبرحمة عظيمة أجمعك، في ساعة الغضب أخفيت قليلاً وجهي عنك وبالرحمة الأبدية رحمتك قال فاديك الرب.

مثلما في أيام نوح لي هذا الذي حلفت له أن لا أصبّ مياه نوح على الأرض، هكذا حلفت أن لا أغضب عليك، وأن لا أوبخك، فإن الجبال ترتجف والتلال تزلزل ورحمتي لا تزول عنك، وعهد سلامي لا يتحرك قال رحيمك الرب، فقيرة مستأصلة بعاصف بلا تعزية، هاأنذا أبلط بالرتبة حجارتك وأونسك بالسفير).

واضح أن هذا النص يتكلم عن مدينة أو بلدة وليس عن امرأة، وأن هذه المدينة ستمر بمرحلتين: الأولى غياب الرحمة الإلهية عنها مدة وعدم قيام أية بنّوة فيها، والمرحلة الثانية أنها ستصبح مدينة مباركة ومحط رحمة إلهية واسعة أبدية، فإذا أقررنا بهذا فلا يوجد مدينة بهذه الخصائص سوى مكة المكرمة، فهي لم يكن بها نبوة بعد سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، فلقب عاقر مناسب تماماً لها عكس القدس وفلسطين مثلاً حيث كثر الأنبياء هناك.

أما بني الوحشة فهي إشارة إلى أبناء هاجر أي نسل سيدنا إسماعيل ﷺ لأن الكتاب المقدس بعهده القديم وصفه بأنه (سيكون إنساناً وحشياً)، أما بني ذات رجل فهم أبناء السيدة سارة التي كانت الزوجة الأولى والمفضلة أي هم بنو إسرائيل. والسؤال هنا كيف سيكون الكثير من أبناء الوحشة (نسل إسماعيل ﷺ)، أفضل (بميزان الرب) من أبناء سارة (بني إسرائيل) إذا انحصرت النبوة في بني إسرائيل وخلت من بني إسماعيل؟ لا شك أن ذلك مستحيل.

فالتفسير الوحيد لهذه الأفضلية الموعودة هو وجود نبوة لاحقة في نسل إسماعيل، وبهذه النبوة يصبح الكثيرون من بني الوحشة أفضل من بني ذات رجل، وبهذا يتحقق قول الرب. ويؤيد ذلك النص (زرعك يرث الأمم) ومن هذه الأمم بنو إسرائيل الذين كانت النبوة فيهم، فهذه النبوة سيرثها هؤلاء أبناء إسماعيل الذين انطلقوا من مكة والذين رمز لهم بالرمز (زرعك).

ولننظر إلى الكلمات التالية: صبائك تنسين، وعار ترمّلك لا تذكرين.. فإنه يتولى عليك الذي صنعك رب الجنود.... لساعة قليلة تركتك، وبرحمة عظيمة أجمعك، .... أخفيت قليلاً وجهي عنك وبالرحمة الأبدية رحمتك... ورحمتي لا تزول عنك. ونكتفي تعقيباً على هذه الكلمات بالقول أنه لا يوجد وصف أفضل من هذا لبيان حال مكة قبل الإسلام وبعده.

ولنتابع هذا النص (فقيرة مستأصلة بعاصف بلا تعزية) فهو يصف حال مكة كما وصفها القرآن الكريم (بوادٍ غير ذي زرع)، ولكن النص التوراتي يكمل بعدها مباشرة: (هاأنذا أبلط بالرتبة حجارتك وأونسك بالسفير) فهي أصبحت مكاناً مقدساً، والصلاة فيها لها مرتبة كبيرة، وأصبحت مهبط الوحي وهو خير سفير من الله للرسول.

الدليل الخامس

في سفر شعياء (٦٠) نقرأ النص التالي: (قومي استنيري، لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك، لأنه هاهي الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم، أما عليك فيشرق الرب، ومجده عليك يرى، فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك، إرفعي عينيك حواليك، وانظري قد اجتمعوا كلهم، جاءوا إليك، يأتي بنوك من بعيد، تحمل بناتك على الأيدي، حينئذ تنظرين وتنيرين، يخفق قلبك ويتسع لأنه

تتحول إليك ثروة البحر، ويأتي إليك غنى الأمم، تعطيك كثيرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتي من سبأ تحمل ذهباً ولباناً، وتبشر بتسابيح الرب. كل غنم قيدار تجتمع إليك كباش بنايوت تخدمك، تصعد إليك مقبولة على مذبحي وأزيّن بيت جمالي). وتعليقاً على هذا النص نقول: إن المتتبع للأحداث التاريخية وآثارها والتي مرّت بمكة وغيرها من البلدان زمن ظهور الإسلام، يجد أن هذا النص يعبر بشكل دقيق وشامل لهذه التغيرات وكيف أصبحت مكة المكرمة مدينة النور في حين كان الظلام والجهل والفساد يعم بقية البلدان، ونلفت النظر في النص السابق إلى بعض الجمل بالذات مثل: (وتبشر بتسابيح الرب)، (كل غنم قيدار تجتمع إليك)، (كباش بنايوت تخدمك تصعد إليك، مقبولة على مذبحي)، (وأزين بيت جمالي).

فأبناء قيدار في النهاية دخلوا في الإسلام واجتمعوا حول مركزه، مكة والكعبة التي هي بيت الله الحرام، وأصبح هناك حج وأصبح هناك أضحيات تذبح، ثم إن الكعبة المشرفة (بيت الله) قد اعتنى بها وزينت بالعمارة وإقبال الناس عليها بدرجة تفوق أي بيت للعبادة عرفته البشرية.

إذن فالنص: قومي استنيري، لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليك ينطبق كلياً على مكة، ويبشر بنور جديد رباني ينطلق فيها. ولو أضفنا هذا النص إلى ما سبق من نصوص تتكلم عن شريعة جديدة، وإلى استعلان الرب من فاران تصبح الدلالة على أن الشريعة الجديدة والنبي المنتظر سيكون انطلاقهما من مكة، تصبح هذه الدلالة أكثر قوة وأكثر ترابطاً.

الدليل السادس

جاء في سفر التكوين(٤٩): (فلا يزول القضيب من يهوذا والرسم من تحت أمره إلى أن يجيء الذي هو له وإليه تجتمع الشعوب). يدل هذا النص على أن القضيب

(الذي يرمز للنبوة) سيخرج من بني إسرائيل ولكنه يعلّق زمان هذا الخروج بمجيء ذلك النبي الذي هو له، فمتى جاء ذلك النبي يخرج القضيب من يهوذا، وهذا يعني بوضوح تام أن ذلك النبي سيكون من خارج بني إسرائيل، وهنا نذكر أن النبي المنتظر سيكون من أخوتهم لبني إسرائيل وأخوتهم لا تخرج عن أحد أمرين:

- إما ذرية إسماعيل ﷺ كما وضحنا
- أو بني إسرائيل أنفسهم كما يفهمها ويفسرها أهل التوراة.

ولا احتمال ثالث للأمر، فإذا جاء هذا النص، ودلّ بوضوح على خروج النبوة من يهوذا أو بني إسرائيل، فإلى أين ستذهب؟! لا شك أنها ستكون في ذرية أبناء إسماعيل ﷺ ولا يوجد هناك تفسير آخر مهما كانت المحاولات.

الدليل السابع

جاء في سفر الاستثناء (٣٢) ما يلي: (هم أغاروني بغير إله، وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة، وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب، وبشعب جاهل أغضبهم)، هم يعني بني إسرائيل، وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب يعني أن الرب سيصطفي شعباً آخر غير بني إسرائيل لتكون النبوة فيه. وصفة هذا الشعب هي أنه شعب "جاهل" وهي صفة لاصقة للعرب قبل الإسلام، وهذا مجمع عليه بل لقد كان لقبهم في عصرهم قبل الإسلام. إنه (عصر الجاهلية)، ولا يجوز أن ننسب ذلك إلى شعب اليونان مثلاً لأنهم كانوا أبعد ما يكون عن صفة الجهل، بل كانوا رواد العلوم في عصرهم وفي مختلف المجالات، وهنا ننوه إلى أن الكتاب المقدس قد ترجم إلى اليونانية وأن اليونانيين كانوا على اطلاع واسع على نصوص الكتاب المقدس فلا يجوز وصفهم بالجهل تحت أي حجة.

الدليل الثامن

جاء في كتاب أشعيا (٦٥) هكذا: (طلبني الذين لم يسألوني قبل، ووجدني الذين لم يطلبوني، قلت هاأنذا إلى الأمة الذين لم يدعوا باسمي)، ووجدني الذين لم يطلبوني: أي الذين وفّقوا أخيراً إلى وجود النبوة فيهم بعد أن كانوا في جهالة من ذات الله وصفاته وشرائعه فلم يسبق لهم أن طلبوه، لأنهم كانوا شعباً جاهلاً كما ورد في الدليل السابق، وهذا يدلل كيف أن النصوص تؤكد بعضها بعضاً وتفسّر بعضها بعضاً، وتدعم بعضها بعضاً.

الدليل التاسع

في إنجيل متى (٢١) تحدثت الآيات من (٣٣) إلى (٤٠) عن رب البيت الذي غرس كرماً وسلمّه إلى كرّامين تصرفوا تصرفاً خاطئاً، ثم يقول بعد ذلك تعقيباً على هذا المثال: (فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرّامين، قالوا أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً رديا، ويسلم الكرم إلى كرّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها، قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه، ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عنهم).

وحول هذا النص الهام نقدم الملاحظات التالية:

١. أقر الكهنة والفريسيون أنه يجب سلب الكرم من الكرّامين الأردياء وتسليمه إلى كرّامين آخرين يعطون الأثمار في أوقاتها.

٢. عرف هؤلاء أنه تكلم عليهم يعني بالضرورة أن الكرّامين الأردياء هم هؤلاء الكهنة والفريسيون، وبالتالي فالنبوة ستسلب منهم وتسلم إلى أمة أخرى أو شعب آخر.

٣. يكفي للدلالة على أن النبوة ستخرج من بني إسرائيل النص الواضح التالي: (لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره).

٤. لمعرفة من هذه الأمة ذكّرهم بنص من نصوص الكتاب الواردة في مزامير داود عليه السلام: "الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب، كان هذا وهو عجيب في أعيننا". فإذا عرفنا أن بني إسرائيل كانوا يحقّرون سيدنا إسماعيل عليه السلام وذريته لأنه (ابن جاريه) أو (ابن الوحش)، ورفضوه فإننا نستطيع فهم النص السابق.

(فالحجر الذي رفضه البناءون): أولاً البناءون هم بنوا إسرائيل والحجر الذي رفضوه هو من أخوتهم (بني إسماعيل) ورفضوه لأنه في نظرهم محط تحقير وازدراء ونبذ، لذلك عندما اصبح هذا الحجر من قبل الرب رأس الزاوية كان أمراً عجيباً في أعينهم، فالتعجب هنا لا مبرر له سوى أن رأس النبوة وخاتم النبوة وأكمل النبوة كان من هؤلاء الذين وصفوا بالتحقير والازدراء والنبذ، فلو كان الحجر هو المسيح عليه السلام لما تعجب داود عليه السلام لأن المسيح من بني إسرائيل أهل النبوات ولأنه كان يجلّه جداً.

ومما يؤكد أن هذا الحجر هو النبي ﷺ النص الذي تلا ذلك: "ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه"، وسيدنا عيسى عليه السلام لم يتصف بهذه الصفة، فقد ورد في نصوص كثيرة التأكيد بما لا مجال للشك فيه أن هذا وصف يتناقص مع صفة النبي عيسى عليه السلام ودعوته .... ففي إنجيل يوحنا (١٢) ما يلي: " وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأنني لم آت لأدين العالم بل لأخلص

للعالم". بينما الصفات الواردة حول الحجر موجودة عند النبي ﷺ من خلال الحروب التي خاضها.

الدليل العاشر

من الأمور المسلم بها عند أهل الكتاب أن سيدنا داود عليه السلام في الزبور (٤٥) يبشر بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ويعدّد صفات ذلك النبي ونقتبس بعض هذه الصفات:

- بهي في الحسن أفضل من بني البشر
- انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الدهر.
- تقلّد سيفك على فخذك أيها القوي بحسنك وجمالك.
- استلّه وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق وتهديك بالعجب يمينك.
- نبلك مسنونة أيها القوي في قلب أعداء الملك، الشعوب تحتك يسقطون.
- سأذكر اسمك في كل جيل وجيل من أجل ذلك تعترف لك الشعوب إلى الدهر والى دهر الداهرين.

ونقول تعليقاً على هذه النصوص:

لم يأت نبي بعد سيدنا داود جمع مع النبوة انتصار القوة العسكرية مثل محمد ﷺ ، حتى أنه بيده وحدها كان يهزم الأعداء عند رمي الحصى وقوله صلى الله عليه وسلم شاهت الوجوه ... وهذا ينطبق على النص السابق (وتهديك بالعجب يمينك). إضافة للقوة العسكرية فإن اسم محمد قد بقي على مرّ العصور يتردّد في الآذان، وأن تقديره وتعظيمه انتشر في جميع أقاصي الأرض، فهو الأول من عظماء التاريخ في ميزان أولئك الذين لم يؤمنوا به....!

الدليل الحادي عشر

جاء في إنجيل يوحنا (١٤): (إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فار قليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم) وكذلك: (والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي وهو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) وكذلك: (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون).

كما جاء في نفس الإنجيل (١٦): (لكني أقول لكم ، الحق أنه خير لكم أن انطلق لأني ان لم انطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء ذاك فهو يوبخ العالم على خطيّه وعلى برّ وعلى حكم، أما الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي، وأما على البرّ فلأني منطلق إلى الأب ولستم تروني بعد، وأما على الحكم فان أركون هذه قد دين، وان لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن، وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي، وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم).

ولمناقشة هذه النصوص السابقة نقول:

اللفظ الحقيقي لكلمة فارقليط موجود في اللغة العبرية والآرامية القديمة، والمشكلة حول معناها ظهرت عندما ترجم الكتاب المقدس إلى اليونانية: فأهل الإنجيل من النصارى والكنيسة قالوا إن لفظ الكلمة باليونانية هو باراكلي طوس وتعني المعزّي والوكيل والمعين وما رادفها، لذلك كتبوها في الطبعات العربية بلفظ (المعزي)، ولكن هناك باحثون آخرون قالوا إن لفظ الكلمة باليونانية هو بيركلوطوس وتعني صيغة المبالغة من الحمد وتقود بسهولة إلى اسم احمد. ونحن بدورنا لن نجعل

المشكلة في اللفظ ومعناه: فإذا اعتبرناها أحمد فذلك واضح، وان اعتبرناها المعزّي والوكيل والشفيع وما رادفها فهذه صفات تناسب أحمد أيضاً.

ولكن المشكلة حقيقة تكمن في أنهم بعد أن حصروا معناها بالمعزي حصروا مدلول كلمة المعزي بالروح القدس ثالث الأقانيم في عقيدتهم، وهذا ما سنوضح بطلانه من خلال النقاط التالية:

١- لو كانت الكلمة تعني روح القدس فهل كان هناك حاجة إلى البدء بالقول (أولاً إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي) سيما والحواريون كانوا مستفيضين بنزول الروح عليهم ولا مظنّة لإنكارهم له، أما لو كانت تعني النبي المنتظر فإن السيد المسيح قد علم بنور النبوة أن الكثيرين من "أمته" ينكرون النبي المبشر به عند ظهوره فأكد أولاً بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجيئه.

٢- إن الروح (في العقيدة المسيحية الكنسية) متحد بالأب مطلقاً وبالابن نظراً إلى لاهوته اتحاداً حقيقياً، فلا يصدق في حقه كلمة (آخر)، عندما قال فارقليط آخر.

٣- لم يثبت في أية رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام وأن هذا الروح ذكرهم إياه، فأين مضمون (هو يذكركم كل ما قلته لكم).

٤- لنأخذ هذا النص: (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون) فلو كان المقصود هو الروح القدس يصبح هذا النص غريباً غير مستساغ من أكثر من وجه؛

- فعدم الإيمان بالروح القدس عندهم ليس محل نقاش لأن إيمانهم به راسخ.
- والآن قد قلت لكم قبل أن يكون: يعني قبل أن يأتي وهذا يناقض كون الروح القدس يأتي إليهم في وقت يسوع عليه السلام وفق ما نص عليه

الإنجيل في أماكن كثيرة. أما لو كان المقصود هو النبي المبشر به فيكون هذا النص في محله وفي غاية الاستحسان.

٥- غريب جداً أن نجد اختلافات كثيرة وتناقضات بين الأناجيل، في حين أنه كان على الجميع أن يعلموا كل شيء وفق النص (يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم).

٦- لنأخذ بعض صفات المبشر به بكلمة الفارقليط: (وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع)، أليس هذا النص يتناسب تماماً بل إنه متطابق مع صفة النبي المبشر به في سفر الاستثناء الذي انطلقنا منه في بحثنا هذا: (واجعل كلامي في فمه، ويكلمهم بكل شيء آمره به).

٧- لنأخذ النص (إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته إليكم) هنا نجد أنه علّق مجيء الفارقليط بذهابه هو، فلو كان المقصود بالفارقليط الروح فان هذا الروح نزل على الحواريين في حضور المسيح عليه السلام عندما أرسلهم إلى البلاد الإسرائيلية، فنزوله ليس مشروطاً بذهاب السيد المسيح، أما إذا كان المقصود بالفارقليط النبي المبشر به فهو مستساغ لأن اجتماع نبيّين بشر يعتنقين دينين مختلفتين بنفس الزمان لا يجوز.

٨- لنأخذ النص التالي: (إن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن). الروح القدس النازل يوم الدار ما زاد حكماً على أحكام عيسى عليه السلام، أما النبي المبشر به فقد جاء بدعوة جديدة وزيادة شرائع، كان يصعب تفهم مقامه والالتزام بشرائعه عليهم في ذلك الوقت.

٩- لنأخذ النص التالي: (ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع)، الفار قليط احتاج إلى السيد المسيح عليه السلام ليقرر صدقه مسبقاً وقبل أن يأتي، فلو

كان الفار قليط هو الروح القدس فإنه لا يحتاج إلى ذلك لأنه لا يتهم بالكذب بينما النبي المبشر به فلأن أهل الكتاب سيكذبونه فقد سبّق السيد المسيح شهادته له بالصدق. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى: الروح عندهم في المسيحية هو عين الله فلا معنى لقوله (بل يتكلم بما يسمع)، أما النبي المبشر به فمن صفاته أنه يتكلم بما يوحى إليه.

١٠- لنأخذ النص: (إنه يأخذ مما هو لي)، وهذا لا يصدق على الروح القدس لأنه عند المسيحيين قديم وغير مخلوق وقادر مطلق ليس له كمال منتظر بل كل كمال من كمالاته حاصل له بالفعل، أما لو كان المقصود بالفار قليط النبي المبشر به، فإن النبي يأخذ من الله لذلك اتبع ذلك بقوله: (جميع ما للأب فهو لي فلأجل هذا قلت مما هو لي يأخذ)، وذلك لأن الديانات جميعها في عقيدتها واحدة ولكن الشرائع تناسب زمن الرسالة.

١١- يجدر بنا أن نلاحظ أنه لم يقتصر مدلول (روح الله) في الأناجيل بمعنى الأقنوم الثالث فقط، بل ورد بمعنى الواعظ الحق أيضاً، وبهذا يصبح تفسير الفارقليط بروح القدس أو روح الحق لا يضر بحق النبي ولا ينفي عنه كونه المقصود لأن النبي المبشر به من المسلّم به أنه الواعظ الحق.

١٢- وزيادة في تبيان الحقيقة نقول: يبدو أن هناك أياد تريد طمس اسم أحمد ومشتقاته من الكتاب المقدس. ولتوضيح كلامنا هذا لنأخذ النص التالي من سفر حجّي (٧/٢) (ولسوف أزلزل كل الأمم، ويأتي مشتهى كل الأمم)، ولكن القسيس دافيد بنجامين كلداني حصل على نسخة أصلية باللغة العبرية للإنجيل من ابنة عم له، وفيها وجد أن الجملة السابعة من سفر حجّي الإصحاح الثاني، الجملة السابعة كانت كما يلي: (ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حِمَدا Himada لكل الأمم)

ولكن يبدو أن هذا الاسم أحمد ومشتقاته يواجه حكماً مسبقاً بتغييبه عن صفحات الكتاب المقدس بالترجمة أو متاهات المعاني للكلمات في اللغات المختلفة أو غيرها من الأساليب.

* * * * *

المراجع

١- إظهار الحق / رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي

٢- محمد في الكتاب المقدس/ البروفسور عبد الأحد داود ترجمة فهمي شما

٣- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن / إبراهيم خليل أحمد

٤- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى/ ابن قيم الجوزية

٥- الرسول/ سعيد حوّى

* * * * * *

محمد ﷺ في التوراة والإنجيل

د. مصطفى أبو صوي**

خلق الله ﷻ الإنسان وكان من رحمته به أن علّمه وأرشده، وقد ظل الوحي يتنزل على الرسل لتستمر هداية البشرية في أطوارها المختلفة إلى ربها، وكان أن بدأ الوحي بآدم عليه السلام إذ أُخرج من الجنة، قال تعالى: (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم)[1]. وكلما أصاب الرسالة تحريف أو تبديل، أو انحرفت البشرية عن الطريق المستقيم، أرسل رب العالمين رسله ليعيدوهم إلى جادة الصواب، وليجددوا دعوة أقوامهم للتوحيد: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله) [2].

وذكر القرآن الكريم عدة أمثلة لأنبياء ورسل دعوتهم واحدة، نذكر منها:

(وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)[3]

وكانت دعوة الأنبياء والرسل لأقوامهم ومنها دعوة عيسى عليه السلام : (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم) [4]، ولما كان الحال المعرفي لهذه الأقوام بسيطاً

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٣٠ أيار ٢٠٠١

**مدير مركز الأبحاث الإسلامية – جامعة القدس

[1] سورة البقرة آيه ٣٧

[2] سورة النحل آيه ٣٦

[3] سورة الأعراف الآيات ٦٥، ٧٣، ٨٥

ويعتمد على المعارف الحسيّة، كانت معجزات الرسل السابقة مادية محسوسة، وهي وعلى الرغم من كونها معجزة إلا أنها مؤقتة، ولذلك فقبول المسلم مثلاً بنبوة المسيح عليه السلام ينبع من ذكر ذلك في القرآن وليس بسبب المعجزات التي أجراها الله ﷻ على يديه، إذ لا يمكن أن نتحقق منها الآن إلا عن طريق الخبر.

ومن هنا فحينما وصلت البشرية إلى الدرجة التي تتمكن فيها من النظر العقلي المجرد في قضايا الوحي والنبوة، كان موعدها مع الرسالة الخالدة والنبوة الخاتمة، وخلود الرسالة يتطلب خلود المعجزة والتي تمثلت في القرآن الكريم من ناحية الإعجاز وفي حفظه من ناحية الخلود. فالإعجاز يتمثل في تحدي القرآن الكريم للبشرية أن تأتي بمثله أو ببعضه: (قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله)[٥] ، ومع أن أنواع الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة إلا أن التحدي بدأ على مستوى اللغة، وإن كانت لا تنفك عن المفاهيم وقد قرر القرآن الكريم أن البشرية جمعاء لن تستطيع أن تأتي بمثله مطلقاً، (وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين (٢٣)، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين (٢٤))[٦] .

وضمن تحضير البشرية وتجهيزها لرسالة الإسلام الخالدة، حوت التوراة والإنجيل ذكر نبي الإسلام محمد ﷺ ولقد ذكر القرآن الكريم ذلك، (الذين يتبعون الرسول النبيّ الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم

---

[٤] سورة المائدة آيه ٧٢
[٥] سورة يونس آيه ٣٨
[٦] سورة البقرة الآيات ٢٣- ٢٤

والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون)[٧] .

وهذه الآية وردت ضمن سياق القصص القرآني حول موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وفي نفس السياق ورد ذكر عالمية الدعوة الإسلامية. (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا...)[٨]. وقد أكد على عالمية الدعوة آيات كثيرة منها:

(قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكر للعالمين) سورة الأنعام آيه ٩٠

(تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) سورة الفرقان آيه ١

(إن هو إلا ذكر للعالمين) سورة ص آيه ٨٧

إذاً، ذكر القرآن الكريم أن التوراة والإنجيل فيهما ذكر محمد ﷺ وفي سياق سورة الصف يخاطب المسيح عليه السلام بني إسرائيل مبشراً بأخيه:

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين)[٩] .

وقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية، وعلى وجه التحديد قول المسيح عليه السلام فيها: " يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمّي العربي المكي أحمد، فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد أقام في ملإ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة"[١٠].

---

[٧] سورة الأعراف آيه ١٥٧

[٨] سورة الأعراف آيه ١٥٨

[٩] سورة الصف آيه ٦

[١٠] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٥) ج٤ ص ٣٥٩

ثم أورد ابن كثير حديثاً متفقاً عليه والرواية للبخاري الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري قال أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحوا الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب". وفي القرآن الكريم أن جميع الأنبياء كانوا على علم ببعثه محمد ﷺ قال تعالى: (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)[١١].

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية: " ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه"[١٢]

وحول طبيعة معرفة الأنبياء السابقين عن الأنبياء اللاحقين، ذكر رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي في كتابه "إظهار الحق" عدة أمور منها: "أن النبي المتقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط في إخباره أن يخبر بالتفصيل التام ، بل يكون هذا الإخبار مجملاً عند العوام، وأما عند الخواص فقد يصير جلياً بواسطة القرائن"، ثم ضرب الهندي مثالاً على هذا من إنجيل يوحنا هكذا: ((١٩) وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت (٢٠) فاعترف ولم ينكر وأقر أني لست المسيح (٢١) فسألوه من أنت إذاً؟ أنت إيلياء؟ فقال لست أنا إيلياء، فسألوه أنت النبي؟ فأجاب لا (٢٢) فقالوا له من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك (٢٣) ، قال أنا صوت صارخ في البرية، قوّموا طريق الرب كما قال

---

[١١] سورة آل عمران آيه ٨١

[١٢] ابن كثير ج٤ ص ٣٦٠

اشعيا النبي (٢٤)، وكان المرسلون من الفريسيين (٢٥) فسألوه وقالوا له فما بالك تعمّد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي، قال الهندي: " والألف واللام في لفظ النبي الواقع في الآية ٢١، ٢٥ للعهد، والمراد النبي المعهود الذي اخبر عنه موسى عليه السلام في الباب الثامن عشر من سفر التثنية على ما صرح به العلماء المسيحيين، فالكهنة واللاويون كانوا من علماء اليهود وواقفين على كتبهم، وعرفوا أيضاً أن يحيى عليه السلام نبي، لكنهم شكوا في أنه المسيح عليه السلام أو إيلياء عليه السلام أو النبي المعهود الذي أخبر عنه موسى عليه السلام ، فظهر منه أن علامات هؤلاء الأنبياء الثلاثة لم تكن مصرحة في كتبهم" [١٣]، ونفس المنطق ينطبق على المسيح عليه السلام فلو كانت علاماته في كتب اليهود مصرح بها لعرف ذلك الكهنة ولقبلوا نبوته، ولكن العكس هو الذي حصل كما في موقف قيافا كما صرح به انجيل يوحنا (الاصحاح الحادي عشر: ٥١).

ومن الواضح أن الأسئلة التي طرحت على يحيى عليه السلام تدل على أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون نبياً آخر غير المسيح وإيلياء، لأنهم فرقوا بين هذين الاثنين "والنبي" حتى بعد أن عاينوا المسيح عليه السلام وسمعوه، ظن بعضهم أنه "النبي" ففي إنجيل يوحنا (الإصحاح السابع: ٤٠-٤١). "(٤٠) فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا هذا بالحقيقة هو النبي. (٤١) آخرون قالوا هذا هو المسيح" فمن الواضح أن " النبي" هو غير المسيح.[١٤].

وقد بين رحمة الله الهندي عادة أهل الكتاب في ترجمة معنى الأسماء أو تبديلها بصورة لا تتفق مع المعنى الأصلي، وضرب عشرات الأمثلة نكتفي منها بواحدة حيث قال: " وفي الآية الرابعة عشر من الباب الحادي عشر من إنجيل متى في

---

[١٣] رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي، إظهار الحق (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣) ص ٤٠٧-٤٠٨

[١٤] الهندي، ص ٤١٠

الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ هكذا: " فإن أردتم أن تقبلوه فهو إيلياء المزمع أن يأتي" وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦، " فإن أردتم أن تقبلوه فهذا هو المزمع بالإتيان" فالمترجم الأخير بدل لفظ إيلياء بهذا، فأمثال هؤلاء لو بدلوا اسماً من أسماء النبي ﷺ في البشارة فلا عجب"[١٥].

وقد دفعت آيات القرآن الكريم التي تصرح بذكر محمد ﷺ عدداً من علماء المسلمين لدراسة "التوراة" و"الإنجيل" على الرغم من أن موقف القرآن الكريم أن هذه الكتب قد أصابها تحريف وتبديل، إلا أن هذه الكتب لا تزال تحمل في طياتها قدراً من الأصل والحَكَم في هذا هو القرآن الكريم؛ (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) [١٦].

ومن الواضح أن الكتاب هو القرآن الكريم، وما بين يديه من الكتاب هي الكتب المتقدمة وأما التصديق هنا فقد فسره ابن كثير أنه متعلق بالكتب المتقدمة المتضمنة ذكر محمد ﷺ ، ثم ذكر ابن كثير آية أخرى لتساعد في فهم الآية المذكورة وهو تفسير القرآن بالقرآن، وهي قوله تعالى: (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا).[١٧]

ثم قال ابن كثير: أي إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدم من مجيء محمد ﷺ لمفعولا، أي لكأننا لا محالة حسن" وأما قوله تعالى (ومهيمناً عليه) وهو قاعدة أساسية في التعامل مع الكتب السابقة، فقد أورد ابن كثير أقوالاً متقاربة المعنى منها قول ابن جرير: " القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله فما وافقه منها فهو حق وما

---

[١٥] الهندي ص ٤١٧

[١٦] سورة المائدة آيه ٤٨

[١٧] سورة الإسراء آيه ١٠٧- ١٠٨

خالفه منها فهو باطل"[18]. ولذلك نجد أن الهندي قبل أن يبدأ بسرد البشارات من "التوراة" و "الإنجيل" يقول: "إن الإخبارات الواقعة في حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن أيضاً مع وقوع التحريفات في هذه الكتب"[19].

وأما الشواهد والإخبارات الواقعة في حق محمد في التوراة والإنجيل فكثيرة جداً، ذكر الهندي ثماني عشرة بشارة نكتفي بواحد من "التوراة" و " واحدة من الإنجيل":

في الباب الثامن عشر من سفر التثنية هكذا: ((١٧) فقال الرب لي نعم جميع ما قالوا (١٨) وسوف أقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوتهم، واجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به (١٩) ومن لم يطع كلامه التي يتكلم به باسمي، فأنا أكون المنتقم من ذلك (٢٠) ، فأما النبي الذي يجترئ بالكبرياء ويتكلم في اسمي ما لم آمره بأنه يقوله ام باسم آلهة غيري فليقتل (٢١) فإن أجبت وقلت في قلبك كيف أستطيع أن أميّز الكلام الذي لم يتكلم به الرب (٢٢) فهذه تكون آية أن ما قاله ذلك النبي في اسم الرب ولم يحدث، فالرب لم يكن تكلم به بل ذلك النبي صورة في تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه".

ويبدو أن المسيحيين يعتبرون هذه النبوءة في حق المسيح عليه السلام وقد أسلفنا كيف أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون نبياً آخر، ولفظ (مثلك) أي مثل موسى عليه السلام فلا يجوز أن يقوم أحد من بني إسرائيل مثل موسى عليه السلام ، ففي سفر التثنية : " ولم يقم بعد ذلك في بني إسرائيل مثل موسى يوفه الرب وجهاً لوجه" وموسى عليه السلام صاحب شريعة تشتمل على الحدود والتعزيزات وأحكام الطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات، بخلاف شريعة عيسى عليه السلام ، فإنها تخلوا من مثل ذلك،

---

[18] ابن كثير ج٢ ص ٦٢
[19] الهندي ص ٤٢٢

وموسى عليه السلام كانت ولادته طبيعية، والمسيح عليه السلام كانت ولادته معجزة لغير أب، وموسى عليه السلام كانت وفاته طبيعية، والمسيح عليه السلام رفع، وموسى عليه السلام كان قائداً مطاعاً في قومه، والمسيح عليه السلام لم يكن كذلك، فمملكته ليست في هذا العالم، وموسى عليه السلام تزوج ولم يفعل المسيح عليه السلام ذلك، ولو اعتبرنا عقيدة المسيحيين في هذه المقارنة لظهرت فروقات جوهرية، فالمسيح عندهم هو ابن الله، وهو أحد الأقانيم الثلاثة، ويجلس على يمين الأب، وقد صلب ودخل إلى الجحيم بعد موته، بل هو الله عندهم وهو الذي يحكم يوم القيامة...الخ.

ومن هنا، فإن (مثلك) تنطبق على محمد ﷺ فالولادة طبيعية، وكذلك الوفاة، والزواج والقيادة، وهو صاحب شريعة.وكذلك فإن البشارة فيها (من بين إخوتهم)، فلو كانت النبوة تتعلق بأسباط بني إسرائيل لكانت "منهم" لا "من بين اخوتهم"، وقد ورد في سفر التكوين " وأمام جميع اخوته يسكن" ١١:١٦، فمن الواضح أن "اخوتهم" هم بنو إسماعيل. ويضاف إلى ذلك أن القول (اجعل كلامي في فمه) وهذا يتضح في كيفية الوحي ورد فعل محمد ﷺ وأسلوب القرآن الكريم الذي بلّغه كما هو:

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه..) سورة ص آيه ١١٤

(ولا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا سمعه وقرءانه) سورة القيامة آيه ١٦

(وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى) سورة النجم الآيات ٣-٤

١- وأما من "الإنجيل" فهي تتعلق بالبشارة بالفارقليط، ففي الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا: ((١٥) إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي (١٦)، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم على الأبد (١٧)

روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه، وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم هو ثابت فيكم.

(٢٦) والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي، وهو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلته لكم، وفي الباب السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا:

"(٧) لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن انطلق، لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم، (٨) فإذا جاء ذاك فهو يوبخ العالم على خطيته وعلى بر وعلى حكم (٩) ، أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي (١٠)، وأما على البر فلأني منطلق إلى الأب، ولستم تروني بعد، (١١)، وأما على الحكم فإن أركون هذا العالم قد دين (١٢)، وأن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن (١٣) ، وإذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي (١٤) وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم (١٥) جميع ما هو للأب فهو لي....".

فبعد أن أورد الهندي هذه البشارة ناقش معنى الفارقليط وإمكانية التحريف اللفظي عن بيركلوطوس وهي في معناها اليوناني تعبر عن "أحمد"، ولكنه يعود إلى "الفارقليط" حيث أنه من معانيها المغرّي والمعين والوكيل أو الشافع[٢٠]، وقد وجدت شخصياً في بعض القواميس اليونانية حضوراً قوياً لمعنى الشفيع، فتكون هذه الصفات تنطبق على محمد ﷺ ، وما جاء في هذه البشارة من أقوال وأفعال محمد ﷺ فيما يتعلق بشهادته للمسيح عليه السلام وقد برأه عن ادعاء الألوهية، وبرأ أمه وهكذا يتحقق معنى تمجيده.

---

[٢٠] الهندي ص ٤٤٧-٤٥٢ بتصرف

وكذلك (ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي) ، هي صفة محمد ﷺ في تبليغ الوحي، وهي تتفق مع ما ورد في البشارة الأولى من التوراة، (وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء آمره به).

وقد رد الهندي أقوال المسيحيين في أن الفارقليط هو الروح القدس، لأنه لا معنى لقوله "بل يتكلم بما يسمع" لأن روح القدس عندهم هو عين الله، وكذلك قول المسيح عليه السلام "إنه يأخذ مما هو لي"، قال الهندي، " وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق وقادر مطلق ليس له كمال منتظر، بل كل كمال من كمالاته حاصل له بالفعل، فلا بد أن يكون الموعود به من الجنس الذي يكون له كمال منتظر "[٢١].

* * * * *

[٢١] الهندي، ص ٤٥٣

يوسف عليه السلام في القرآن الكريم

برقيات من قصة يوسف في القرآن الكريم

الدكتور ابراهيم أبو سالم**

الحمد لله رب العالمين، نحمدك اللهم حمداً كثيراً طيباً مباركاً كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على النور المبين، وآله الطاهرين وصحبه الخيرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،،

فقد رغب أحد الأخوة الكرام إليّ أن ألقي محاضرة بعنوان "يوسف عليه السلام في القرآن الكريم"، ورغم انشغالي النفسي وشرود القلب في ظروف القهر التي يعيشها شعبنا في ظل انتفاضة الأقصى، مما لا يعين كثيراً على البحث والتحضير، وحتى على مجرد التركيز، إلا أنني غالبت نفسي ورأيت أن الأنسب أن لا أرد طلب أخي ولما في ذلك من خير كذلك.

ملحوظه: لكن الحديث عن سورة يوسف التي يتوزع ذكر ذلك النبي الكريم على آياتها جميعاً-على وجه العموم- طويل طويل، لا يمكن أن يأتي عليه محاضر في وقت محدد مهما طال زمن المحاضرة، لأن الذين استغرقوا في ذكر التفاصيل، نافت صفحاتهم حول القصة عن ألف وخمسمائة صفحة في مؤلف واحد، وما أكثر الذين

---

*قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٢٥ حزيران ٢٠٠١

**مدرس في كلية الدعوة وأصول الدين- جامعة القدس

تعرّضوا لهذه السورة الكريمة والقصة الكريمة بحثاً ودراسة ومقارنة، فأين محاضر ما من هذا الحشد الكبير من تلك الدراسات؟

لذلك بدا لي أن الأنسب أن أجعل محاضرتي برقيات وحسب دون الغوص في التفاصيل ودقائق الأمور، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن من المناسب الإشارة إلى أن المحاضرة لن تكون تفسيراً للسورة لأن تفسير آية أو موقف يستغرق وقت المحاضرة، ولن أكتب كثيراً من الآيات لأن مجرد تلاوتها يستغرق الوقت المحدد القصير.

وأخلص للقول أن عناصر الموضوع ثلاثة:

الأول: يوسف مع أبيه واخوته.

الثاني: يوسف في بيت العزيز وفي السجن

الثالث: يوسف على خزائن الأرض

بين يدي الموضوع: أكثر من سورة في القرآن الكريم سميت باسم نبي، منها سورة إبراهيم، ويونس ونوح ومحمد عليهم جميعاً الصلوات، لكن ذكر كل نبي في سورة كان محدوداً جداً أو نادراً إلى درجة أن سورة يونس التي آياتها مائة وتسع لم يذكر فيها يونس إلا مرة واحدة في الآية ٩٨، وهكذا، لكن سورة يوسف كانت مخصصة من أولها إلى آخرها – بالتقريب– وان شئت فحتى الآية (١٠١) لذكر دقائق وتفاصيل أحداث هامة في حياة الكريم بن الكريم بن الكريم.

وبتعبير آخر لم تفصل سورة ما في حياة نبي أكثر من هذه السورة في حياة هذا النبي، ولعل هذا من أسباب تسمية القصة (أحسن القصص) (نحن نقص عليك أحسن القصص) بالإضافة إلى كون القصة مذكورة بتفاصيلها فيما يسمى (العهد القديم– التوراة) مما يسمّى (الكتاب المقدس)، ولقد قدر لي أن اقرأها دراسة فأجد قرابة خمسين فرقاً بينها وبين القصة القرآنية. وحين قدّر لي تدريس مادة القصص

القرآني في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة القدس استغرق تدريس هذه القصة فصلاً كاملاً.

والآن إلى العناصر الرئيسة الثلاثة للموضوع:

العنصر الأول: يوسف مع أبيه وأخوته

وتبدأ الأحداث من رؤية يوسف عليه السلام التي قصها على أبيه وتختم بوجوده ابتداءً في مصر.

البداية: (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين)، انفردت سورة يوسف بنماذج متنوعة لرؤى ومنامات، هذه أول واحدة، والثانية والثالثة ما رآه صاحبا السجن والرابعة ما رآه الملك، ورغم اختلاف الرائين بتراوح بين نبي وملك وسجناء مدنيين، إلا أن هناك تأويلاً بيناً لكل منها كما رأينا

وراثة النبوة:

مما اختص به يوسف عليه السلام أنه نبي بن نبي بن نبي بن نبي، الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، وهذا ملحوظ فيما رآه وما تم تأويله، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: "أي الناس أكرم؟ قال أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله بن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا: نعم، قال فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا".

حب متبادل:

قول يوسف لأبيه: (يا أبت إني رأيت...) واضح في الأدب الشديد مع الوالد يذكرنا بقول إسماعيل لوالده إبراهيم عليهما السلام في قصة الذبح (يا أبت افعل ما تؤمر) وحيث وُجد الأدب الجم من الابن انعكس ذلك على علاقة أبيه وحسن مشاعره،

ومعلوم أن الكبير بحاجة إلى من يؤنسه ويسليه ويحادثه، وهذا نموذج مما فعله يوسف عليه السلام، ويقابل حسن خلق الابن بمحبة الأب ونصيحته المخلصة، فيرد على استشارة ولده له بالقول (يا بني لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيداً) (كل ذي نعمة محسود)، (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان)، ويبدوا أن الأب يعرف جيداً سلوك أولاده الكبار، فإذا ما علموا بخبر رؤيا يوسف ثارت نار الغيرة والحسد في نفوسهم وانعكس ذلك حقداً وكيداً، وربما يكون الأقربون أشد الناس حسداً ولو كانوا أخوة، ولاس يخفى ما بين الأشقاء عادة من منازعات وخصومات أساسها الحسد بسبب المال أو الجاه أو السلطان أو غير ذلك.

ويمضي الوالد الناصح بتأويل الرؤيا بأن الله سيختار هذا الابن ويصطفيه بالعلم والتأويل وذلك الطريق إلى النبوة كما حدث لآبائه من قبل (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب...)، (لقد كان في يوسف واخوته آيات للسائلين...) الدروس والعبر في قصة يوسف عليه السلام ما أكثرها وما أجلّها، وسنأتي على بعضها في ثنايا الموضوع وربما نجملها في النهاية. (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة، .... اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا...).

يعقوب عليه السلام هو إسرائيل نفسه وبنوه هم بنو إسرائيل، وكل ما يحصل حتى مع أخيهم هو نموذج واضح للنفسية الإسرائيلية، فما ذنب يوسف عليه السلام المعلن؟ أنه حبيب أبيه وأخوه الصغير كذلك، وهذا الحب مبرر، فالصغير أقرب إلى قلب الأبوين، والودود كذلك فهو بحسن أخلاقه قادر على أن يأسر قلب والده الشيخ الكبير، وهناك أسباب أخرى لحب الأب، فهذا الصغير محروم من حنان أمه التي توفيت قبل أن تمنحه من حنانها ما يستحق.

ومهما كان سبب الحب، فما هي الجريرة التي يؤخذ بها إلا أنه يستحق الحب، وهل الأخ "ضرة"؟ أم لأنه ابن (ضرة)؟ وإذا كانوا هم يعملون بالرعي وهذا لا يرعى هو وأخوه فما لا يحتاج إلى بيان أن الأكبر والأقدر على ممارسة العمل أولى من الصغير، ولا يتصور أن يتحرك اثنا عشر أخاً معاً فقط لرعي الغنم! وإذا كان هؤلاء الكبار يعملون خارج البيت، فلا يخلو أن يقوم الصغار داخل البيت بأعمال أخرى هي أليق بهم، وأدناها خدمة الوالد الشيخ.

نموذجان من الأخوة:

رأينا فيما سبق أدب يوسف والتصاقه بأبيه وتشاوره معه وتسليته له، ونرى الآن أخوة (ولو كانوا أبناء نبي) يكيدون ليس فقط بأخيهم وإنما بأبيهم فما يحدث مع الولد الحبيب من شر ينعكس على الأب المحب، وربما ألم الأب أكبر، ويأتي لاحقاً فقده بصره من شدة الغم!! ونرى قلة الأدب (أن أبانا لفي ضلال مبين)!!

مؤامرة غير مبررة:

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين) هكذا يفكر بنو إسرائيل مع الآخرين، القتل.. الإبعاد، ما أهون النفس البشرية، وما أقسى القلوب! كيف لا والقرآن الكريم في مواضع عدة يصفهم بأنهم (يقتلون النبيين بغير حق) تلك قسوة القلوب (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو اشد قسوة...).

لماذا يهلكون أخاهم بالقتل الفعلي أو الأبعاد (اطرحوه أرضاً) الذي مؤاده الى الموت غالباً؟ لا لذنب ارتكبه، وإنما لحب أبيه له، فلتكن العقوبة للطرفين للأب والأخ معاً، العقوبة الجماعية وذلك ينعكس على الأخ الصغير الآخر وهكذا.

من سمات بني إسرائيل:

التخطيط لقتل الآخرين، إبعاد الآخرين عن وطنهم، العقوبات الجماعية ، قسوة القلوب، الحسد، الاستعلاء والأنانية، (أنا خير من غيري، وأنا فقط، إذا مت ظمئاناً فلا نزل المسطر)، ارتكاب الجريمة مع سبق الإصرار مع التلفظ باحتمال الاعتذار لاحقاً، (وتكونوا من بعده قوماً صالحين) أي نتوب عن فعلتنا، الغاية تبرر الوسيلة، (يخل لكم وجه أبيكم) فلا بأس من ارتكاب جريمة في حق بريء من أجل أن نزيح العقبات من طريقنا دون الأب، وحتى هذا التعبير فيه ما فيه من سوء الأدب، (وجه أبيكم) وليس (وجه أبينا). وهم على ذلك مجموعة يعني عشرة أصوات لكن صوتاً من العشرة رأى تخفيف الحكم (قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين)، فأرحم واحد فيهم وأصلحهم وأورعهم حكم على أخيه البريء بالرمي في الجب ليباع كما يباع العبيد، والمحصلة واحدة، الإبعاد القهري والقسري وزرع الحسرة في نفس الضحية وأخيه وأبيه، وهم يتلذذون على جراح ومصائب الآخرين، هذا أرحم صوت ارتفع!

المؤامرة والحيلة:

لم نجد بين عشرة من الأخوة ذا قلب رحيم وعاطفة بريئة صادقة ينقض ما اتفقوا عليه ويسرّب الخبر الى الأخ والأب طمعاً في نجاة الصغير، اجتمعوا وما أسوأ ما اجتمعوا عليه: (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون).

بعض أخلاق بني إسرائيل (المباشرين)!!

المؤامرة والحيلة، ومخاطبة الأب بفوقية أو بأفقية، وليس من أدنى إلى أعلى كما ينبغي (مالك لا تأمنا) سؤال استنكار، الكذب: توكيد النصح (إنا، له، اللام

(لناصحون)، تغليف الجريمة، هم يريدون إلقاءه مما يؤدي إلى بيعه أو هلاكه، ويظهرون مصلحته، (يرتع ويلعب) ويؤكدون حفظهم له بعد نصحهم (وإنا له لحافظون) ويراود الأب ويحتال دون جدوى.

كان إحساس الأب في محله أن الولد في خطر، لكن طريقة بعض الكبار المجاملة على غير قناعة، وما خطر على بال الأب أن يصل مستوى أبنائه إلى هذا القدر من الانحدار والخبث، (قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون) يحاول الأب أن يتخلص ولا مناص، ويصر الأخوة على كيدهم ومكرهم بكل الأساليب، الكذب تارة وعرض عضلات القوة تارة، والمراهنة أخرى!!! ولكنهم حكموا على أنفسهم أنهم عصبة خاسرة، (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون)!

إجماع بلا رحمة

ما أحسن الإجماع على خير، وما أقبح الإجماع على باطل، وجريمة، (أليس منكم رجل شديد؟!)

(فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب....) وتلك حتى الآن نية جازمة ولم تصل إلى درجة الفعل، ولو وجد تراجع قبل التنفيذ لكانت حسنة إذ الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، ولكن القرآن الكريم يتركهم ونيتهم وغفل ذكر التنفيذ وسوء الأداء وتفاصيل الجريمة، وإذا يوسف في ظلمات البئر! وهذا إيجاز حذف، فماذا نستطيع أن نتخيل وكيف نتصور التفاصيل؟! هل كان يوسف صباح اليوم الموعود بالرتع واللعب مسروراً سعيداً؟ كيف أستعد ليوم من الفرح واللهو؟ ماذا ارتدى من ملابس تلائم ذلك الجو؟ ماذا قال لأبيه؟ وماذا قال له أبوه؟ هل دعا أخاه الصغير للذهاب معهم؟ وماذا كان موقف الصغير؟ وفي الطريق هل أحسنوا إليه بالفعل والقول أم بدت على جوارحهم بعض مكنونات قلوبهم؟!.وإلى أي حد

أخذوه؟ هل نأوا كثيراً في المرعى أم ذهبوا إلى المراعي المعهودة؟ هل تدارسوا الجب المعهود بعناية؟ هل كان فيه بقية من ماء أم هو مهجور؟

ولنا أن نفجع بلحظة إسقاطه في البئر؟ هل كان إسقاطاً وحشياً بمعنى "قذفوه" أم أنزلوه بحبل من حبالهم؟ ماذا قالوا له مؤنبين منتقمين إبان ذلك وقبيل ذلك وبعد أن اطمأنت نفوسهم إلى التخلص منه؟

أما هو فماذا عساه فعل أو قال؟ هل صرخ أو استغاث أو صمت مجالداً نفسه أم ترجّى أم حرّك عواطفهم لو كان عندهم عواطف؟

لا ندري... لنتخيل ذلك كله أو بعضه أو سواه!!، ونحن نتحدث عن ولد صغير ربما يكون حول العاشرة من العمر وبالغ كثيراً من رفع عمره إلى سبع عشرة سنة! لأنه حينئذ شاب لا يليق به كثيراً في ذلك الزمان وذلك الظرف، (يرتع ويلعب)، ولو كان كذلك لدافع عن نفسه أو قاوم..الخ.

على كل حال، تجلّت قسوة بني إسرائيل حتى على أخيهم ومكرهم وسوء أعمالهم وكذبهم، كل ذلك حتى يخلو لهم وجه أبيهم!

الله مع المظلوم:

وفي قمة المأساة لا بد أن تنزل السكينة والأمل على نفس المظلوم الصابر الرضيّ، (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) وهذا وحي الهام لا وحي نبوّة، فإن تخلى عنك الأقربون وتكالبت عليك النفوس المظلمة فاعلم أن باب الله مفتوح وأن رعايته كائنه. (فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسرا).

تمثيلية مكشوفة:

وبعد الفراغ من الجريمة لا بدّ من البحث عن مخرج وكان الأجدى أن تتحرك عاطفة أحدهم على الأقل واحد من عشرة ويعود إلى صوابه ويكشف معالم الجريمة

لعلهم ينقذونه قبل فوات الأوان، فما أسهل في بضع ساعات أو أقل العودة الى الجب واستخراج يوسف ثم الاعتذار. لكن من طبائع بني إسرائيل التمادي في الجريمة. وعلى أحسن الأحوال الاعتذار المقزز، فبعد قتل أربع نساء بدويات في بيت شعر كانت نتيجة التحقيق أن إطلاق النار كان خطأً وعلى غير المكان، ولكن حدث ما حدث، وعفى الله عما سلف!

تمثيل البكاء:

(وجاءوا أباهم عشاءً يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)، هل نستطيع تصور فجيعة الأب الشيخ من مشهد أولاد يعودون من غير يوسف الحبيب؟ وكم حجم الألم حين يلدغ النبي من أولاده وهو يعلم؟!. الأبناء العشرة يعودون متأخرين معتذرين على فقدان أخيهم بعذر هو أقبح من ذنب! قالوا من قبل (وإنا له لحافظون)، وقالوا (وإنا له لناصحون)، وقالوا: (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون)، وأرادوا بإلحاح اصطحاب يوسف من أجل أن يرتع ويلعب، والآن: هم الذين ذهبوا يستبقون ويلهون وحرموا يوسف من هذا النشاط!، لا بل كلفوه بالحراسة وهو دون سن الحراسة!.

لكن لهجة الكاذب لا تخفى (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)، هي رسالة الكاذب بين شفتيه توضح ما تخفي جنباته، لكن هناك أدلة أخرى على الكذب غير اللهجة الفاضحة.

١- لو كان الذئب أكله، هل أكله كله ولم يبق منه عظماً ولو بقي لأحضروه.

٢- لو كان الأكل بمعنى الجرح والتحطيم، وهو الأكل المجازي وهكذا يفعل الذئب في العادة، فأين الجسد؟

٣- لماذا ترك الذئب كل الغنم صغيرها وكبيرها وهاجم الغلام.

٤- كيف أحضروا القميص دون سواه وكيف أكل الذئب يوسف وظل قميصه سليماً من الأذى؟ لأنهم لطخوا القميص بدم حيوان وكان دليلاً واضحاً على كذبهم، حتى قال يعقوب: ما أرحم الذئب أكل ولدي دون أن يمزق قميصه، كأنما نزع عنه القميص برفق ثم أكله!

مصيبة الأب بأبنائه، قالوا: وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند، فكيف إن كان الظلم من الأبناء الصلبيين؟ انقطعت أمام يعقوب السبل فلم يجد سبيلاً إلا سبيل الله، (فصبر جميل والله المستعان).

يوسف في الجب:

(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين)، غلام كاد له إخوته، ألقوه في الجب، ظلام الجب برودته، هوامّ الليل، الخلوة والوحشة، الضيق النفسي، شيء من ذلك كفيل أن يقضي على حياة الغلام، ولكن رباطة جأشه وقوة صبره وإيمانه ورعاية الله أولاً واخراً أبقى كل ذلك على حياته مع أن الموت محيط به من كل جانب.

كم بقي يوسف في الجب؟ ليلة واحدة أو عدة ليال؟ هل عاد بعض إخوانه في اليوم التالي يطمئنون على وجوده، هل خاطبهم أو خاطبوه؟ الله تعالى أعلم....وكل ذلك بعضه أقسى وأشد إيلاماً من بعض، جوع يوسف وعطشه وقلقه وهمه وخوفه، عناصر مهاجمة لا يقوى على تخفيفها إلا الإيمان. وبينما يوسف في هذا الجو الأليم مادياً ومعنوياً، إذ جاء بصيص أمل ينقذه من بعض ما هو فيه، قافلة ترسل باحثاً عن ماء ويلقي بدلوه في الجب مما يدل على أن هذا الجب كان على طريق القوافل

وكان فيه بقية من ماء في العادة، فخرج الغلام متعلقاً بالدلو ودخل السرور نفس الوارد وبشر التجار ببضاعة مجانية، إنه غلام سيضيف الى ربحهم جديداً.

ولنا أن نتخيل حواراً ما بين الغلام والقافلة، يرجوهم إطلاق سراحه أو إعادته الى أهله مقابل أي ثمن لكن قوبل بآذان موصدة وأسرعوا به بضاعة سرية حتى لا يكشف أمره أحد، وبهذا حكم عليه بالابعاد البعيد والرق الجبري والبيع كما البضاعة وهذا ثقيل مهين على الإنسان العادي، فكيف به على نفس الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم؟

العنصر الثاني: يوسف في بيت العزيز وفي السجن

هذا هو الغلام المدلل يباع في السوق بدراهم معدودة، ويزهد فيه من باعه خوفاً من بحث أهله عنه، وكان قدره أن يضمه بيت عزيز مصر، ثراء ونعمة، إلا أنه لا يمسح جرح الغربة والإبعاد والعبودية. رب البيت يوصي زوجته بهذا الغلام خيراً طمعاً في نفعه أو تعويضاً لعدم إنجابهم، (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً).

بلاء من نوع جديد:

يواجه يوسف في بيت العزيز امتحاناً قاسياً على نقيض السابق، فذلك متعلق بحياته أو وجوده، وهذا متعلق بشرفه وكرامته ودينه، ذلك امتحان القسوة، وهذا امتحان الرخاء وكل منهما أسوأ من الآخر، لكن هذا أفظع، ولو خسر الإنسان حياته محتفظاً بدينه وخلقه فهو عزيز كريم في الدنيا والآخرة، أما إذا انزلق في الرذيلة مهما علا وسضعه الاقتصادي والاجتماعي فالذل والخسران وغضب الله. كل أسباب الفتنة متوفرة؛ شباب متدفق وحاجة ماسة للطرف الآخر وغريب وهو بهذه الصفة أقدر

كثيراً على ممارسة الشهوة، وعبد هو أحوج لإرضاء سيدته لتتعزز مكانته وترقى أسهمه ويتمكن موقفه،

وفي الطرف الآخر جمال وثراء وزينة واندفاع، في هذا الظرف المشحون امرأة العزيز تراود الفتى وتعرض نفسها بكل أنواع العرض في خلوة مغرية، تقدم نفسها بالحركات مرة ومرة ومرة في يوم وشهر وسنة وسنتين، ويفهم الفتى جيداً ماذا تعنى ويمثل دور من لا يعرف من قريب أو بعيد، فكأنما كانت تسبح في الهواء أو تطير في الصحراء، آذان مغلقة وعيون موصدة وقلب محكم، فكان لا بد لها من التصريح الشديد (هيت لك) بعد (تغليق الأبواب) ويكون الجواب بالرفض القاطع (إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون) فهذا الفعل ظلم من وجوه عديدة، ظلم للنفس والمعصية ظلم، وظلم لصاحب البيت الذي رعاه وأكرمه وأوصى به، وإغفال الجميل ومكافأة للنعمة بالنكران.

والنص القرآني يصور حتى مشاعر الطرفين:

(ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه)

أما هي فهمّت به هم فعل بدليل تغليق الأبواب وقولها (هيت لك) أي جهّزت نفسي من أجلك وتلاحقه وتقدّ قميصه وهو راكض، أما هو فلقد كان همه تحرّك نفس، وهذا أمر طبيعي كشاب سليم أن ينفعل ويميل للجنس الآخر لكنه قاوم وانتصر، أما برهان ربه فربما يكون لمعة الإيمان في نفسه أو غير ذلك، وإذا سوّينا بين همها وهمه من حيث النوع فالآية تقول عقب همه (لولا أن رأى برهان ربه) ولولا تلغي ما قبلها، كقولنا: سقط من فوق السطح لولا أن أمسك به أخوه، إذن لم يسقط، وحاول أن يركض هارباً وتبعته وجاء ذكر القميص مرة أخرى وكان برهان نجاة، مزّق القميص من الخلف، وبقدر من الله فوجئا بوجود (سيدها) أي زوجها عند الباب، فسارعت إلى الشكوى وقلب الحقيقة واتهامه بالمنكر وتجهيز لائحة الإتهام

وإصدار الحكم، السجن أو التعذيب، وربما كان ذلك تهديداً طمعاً في موافقته على رغبتها لاحقاً، فلم تذكر (القتل).

لكنه دافع عن نفسه بما أوتي من عقل وحكمة، وذكر الحقيقة كما هي باختصار، وهذا شأن من رزقه الله الأدب وحسن الخلق، فلم يدخل في التفاصيل حفاظاً على المشاعر، لكن شهادة الشاهد من أهلها صبياً كان أو عاقلاً كبيراً انقذت الموقف، وكشفت اللثام عن الصواب، (إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم).

وتوجه العزيز المنكوب في عرضه بالحديث ليوسف أن يمسك عن القصة ويعرض عن ذكرها لأحد تستراً، واكتفى بمخاطبة زوجته بالطلب منها أن تستغفر، والسلام، وفي هذا إشارة إلى أن عندهم ميراثاً من أديان سبقت. لكن الأمر تسارع في القصر بطريقة أو أخرى، فالخدم والحشم ونساء القصر وربما امرأة العزيز نفسها سرّبت الخبر لحاجة في النفس.

وتداولت نساء المدينة وكبراء القوم القصة مستغربات مراودة امرأة العزيز لفتاها، فليس هو بصاحب المقام المناسب، فمن رغبت في مراودة فعليها اختيار من يناسبها لا من هو دونها، ولذلك (إنا لنراها في ضلال مبين)، وهذه ليست جملة وعظية إنما انتقادية. ووصلت كلمات النساء إلى أذن امرأة العزيز، فرغبت في تقديم الدليل على أنها كانت محقّة فيما فعلت ولو كانت أي واحدة من النساء اللاتي تعرضن لها في مكانها لفعلت مثل ذلك أو أكثر من ذلك.

إنها الحيلة، اجتماع عام في مقرها لثلة من النساء ذوات المقامات، وأعدّت لهن جلسة فيها متّكأً وقدمت لهن فاكهة أو ما شابه، وآتت كل واحدة منهن سكيناً للاستعمال الشخصي وطلبت منه الخروج، فخطف الأبصار وشغل القلوب والعقول

عن تصرف الأيدي فوقعت جروح في الأيدي وكان يوسف عليه السلام في غاية الجمال والحسن، حتى جاء في الحديث الشريف (أوتي يوسف شطر الحسن) ، وبعد أن وقعت النساء في المصيدة وشعرت امرأة العزيز بأن النسوة لسن أقل منها شغفاً بحبهن، فهذه لمحة أسالت دماء، فكيف لو تكررت ومضت ساعات الليل والنهار ونظرة تؤدي إلى حملقة، وحديث يوصل إلى مؤانسة، فالأمر حينئذ في خطورة بالغة، وهذه حجة قوية قدمتها عملياً امرأة العزيز دليلاً على صبرها الطويل سنين عديدة قبل أن تصل إلى ما وصلت إليه.

وإثر هذا الانتصار من المرأة على النسوة (قالت فذلكن الذي لمتنّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنّن وليكونا من الصاغرين). وهذا إعلان واضح أنها همت ورغبت ولا تزال مصرّة وأنها لا تستحق اللّوم على ما فعلت وربما ينبغي أن تشجّع وتغبط كما أنه تصريح على سلامة عرض يوسف وسموّ أخلاقه (فاستعصم). وهو كذلك إصرار على رغبتها في استمرار المحاولات والمراودات الصريحة، وسوى ذلك فالويل الويل والثبور الثبور، إنه السجن الذي ينتظره والذل الذي يتوعده.

ويبدو أن المرأة ظنت أن لغة التهديد ستجدي إذ لم تنجح الوسائل الهادئة السلمية، ربما خطر ببالها أنه سيتوب ويثوب إلى ما رغبت، وتنتهي المسألة فيكون صديقاً مؤنساً أو زوجاً آخر هو أضعاف الزوج الأول سناً وشكلاً وحباً متدفقاً.

وما خطر على البال من قريب أو بعيد أن العبد الصالح الذي بلغ أشده واستوت سوقه وأوتي العلم والحكمة وعمق الإيمان وميراث النبوة سيفضل السجن على الفاحشة، ألم قليل محدود له نهاية خير من لذة تعقبها ذلة لا نهاية لها.

(رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم).

وتلك استغاثة بالله واستعانة به واعتراف بالضعف البشري وإذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده.

حل غير منطقي

(ثم بدا لهم من بعدما رأوا الآيات ليسجنّنه حتى حين). حين يُترك المجرم ويدان البريء، حين تظهر البراءة بكل الأدلة والشهود ويعاقب الصالح في حين تطلق حرية المعتدي، تلك إذن قسمة ضيزى، وربما لم يكن الأمر عقوبة بقدر ما هو (فك ارتباط)، فقد أيقن الزوج المسكين أن وجود هذا (الفتى) في البيت مع اندفاع زوجته نحوه سيكسر الجرة، وربما تناقلت النسوة خبر إصرار امرأة العزيز على موقفها، فسمعها القاصي والداني بما في ذلك البعل، فتبين أن الأنسب إبعاده علّ نار الشهوة عندها تضعف لأن الغياب عن العين يؤدي أحيانا إلى الغياب عن الذهن، وبدا لنا أن المرأة صاحبة قرار، وأوامرها محترمة، فهي التي لوّحت مرتين بسجنه تهديداً، ولكن كلامها لم يقع على الأرض، وجميل أن نضع بعض السطور الهامة من قصة يوسف مع امرأة العزيز:

١- لا يمكن للطفل المتبنى أن ينزل منزلة الإبن الحقيقي، ففي الوقت الذي ظن العزيز فيه أن هذا الطفل يصلح ولداً (أو نتخذه ولداً)، رغبت زوجته أن تتخذه صديقاً حميماً أو زوجاً آخر، ومن هنا ألغى الإسلام التبني تماماً، وهي رسالة للذين يتبنّون الأطفال الرضّع، أنه مهما قالت المرأة للطفل ماما وبادلها القول، فإذا شبّ فالمشاعر تتغير والألفاظ تتبدل والمواقع تنعكس، وكذا الذين يربون البنات، فإذا كبرن تحركت الشياطين وأوعزت أن هذه الفتاة الجميلة تصلح عروساً (ويا ليت) أو صديقة وفيّة قريبة المنال، وقد لامس أذني شيء على هذا النحو، فكيف نقتل الغرائز بمجرد القول هذه بنتي أو هذا ولدي، وكم من

امرأة قالت لرجل تحج معه (أنت أخي في عهد الله)، وبعد العودة أصبح زوجها في شرع الله!!

٢- الغريب في المنزل جمرة تحت الرماد، وكذا شأن الخدم والخادمات، وكم اشتعلت بهم النيران- نيران الغرائز، ونيران المفاسد، وفي بعض البلاد فضحت تجارة بيع الأطفال بسبب كثرة الخادمات المستوردات.

٣- الخلوة بين الجنسين مفتاح الإنحراف (ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما).

٤- في العادة والفطرة الرجل هو الذي يراود المرأة فإذا استطاع الرجل كسر اعواد الشيطان هاجم بدوره المرأة فأجبرها على المبادأة كطريق آخر من طرق الفاحشة. (وراودته).

٥- انتصار الإنسان على شيطانه ممكن ولو كان صعباً، فمهما كانت قوة الشر إلا أن قوة الإيمان وقوة العزيمة أعظم.

٦- مقابلة المعروف والإحسان بالإساءة والطعن في العرض ظلم يأباه صاحب القلب النظيف.

٧- سلوك كل الوسائل المؤدية إلى النتائج ليس بالضرورة قادرة على تحقيق المراد.(وراودته..وغلقت... وقالت هيت..) والنتيجة ....آسف.

٨- الميل القلبي لا يعد معصية (وهم بها) بل دليل بعولة ورجولة ما لم يتصاعد ويترجم إلى أفعال. وشتان ما بين عجوز لا يشتهي ولا يفعل وبين شاب متدفق الرجولة يشتهي ولا يفعل.

٩- يوسف طاهر بريء وبشهادة الله له (إنه من عبادنا المخلصين) وبشهادة المرأة نفسها (فاستعصم) وبشهادة النسوة (ما علمنا عنه من سوء)، وبشهادة شاهد من

أهلها (فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن) وبشهادة الشيطان (إلا عبادك منهم المخلصين).

١٠- المعصية تورث الذل، (وألفيا سيدها) ولم يقل (زوجها) ولو قال (سيده) لكان التعبير كذلك صحيحاً فكأنما أصبحت هي أمة ويوسف حرّاً.

١١- ما أكثر المسارعين إلى اتهام الآخرين وإسقاط ما فيهم عليهم (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً...)

١٢- كون الزوجة صاحبة قرار تنفيذي مطلق -مشكلة-(إلا أن السجن).

١٣- شخصية يوسف متزنة وقوية... لم يتلجلج ولم يرتعب، وإنما عرض الحقيقة المختصرة في أحلك الظروف.

١٤- حين يكون الشاهد قريباً ويحكم للغريب، فهذا دليل براءة أعظم.

١٥- الزوج لم يتخذ أي إجراءات عملية في حق زوجته التي يثق أنها منحرفة، أو على طريق الإنحراف واكتفى بالطلب منها أن تستغفر وهذا اجراء هادئ جداً ويبدو أن بيوت الطبقة العليا فيها نوع من الديوثة!

١٦- قناعة السيد بسلامة عرض يوسف: خاطبه باسمه (يوسف أعرض عن هذا، وذلك أكرم له، لكنه خاطب زوجته (واستغفري) بالإعراض!!

١٧- الخبر السيء يخترق الجدران ويطير إلى الآذان ويسارع إلى الألسنة ويصعب على الناس النسيان.

١٨- في بيوت الطبقات الحاكمة، ليس العيب عمل علاقة جنسية مع الآخرين، إنما العيب اختيار من هم دون المستوى، (امرأة العزيز تراود فتاها) أي عبدها.

١٩- مكر النساء عظيم

٢٠-تبهر النساء بالشباب كما العكس، لكن التصريح بذلك يكون على نطاق محلي.

٢١- كلمة العيب تتلاشى مع المال والجاه، فلا بأس من اعلان الإصرار على الفاحشة، (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن).

٢٢- اختيار السجن اختيار موفق من يوسف عليه السلام لأنه النظافة الدينية والطهارة الأخلاقية.

٢٣- المعصية تاريخ... والطاعة تاريخ...والفرق بينهما أن المعصية تاريخ أسود والطاعة تاريخ مشرّف.

٢٤- العمر يمضي بعجره وبجره، فهنيئاً لم سطّر صفحات بيضاء.

٢٥- اللجوء إلى الله ضرورة لأنه مصدر العون (والا تصرف عني كيدهن أصب إليهن)

٢٦- الاعتراف بالضعف البشري وخاصة أمام الشهوة يمثل صدق المشاعر والوصف الحقيقي للواقع.

٢٧- ما أسوأ أن يكون المذنب قاضياً، وحكمه ينفذ!!

٢٨- جميل أن يبرأ البريء والعكس أليم.

٢٩- السجن عقوبة قديمة حديثة، وهي في الغالب مقبرة الأحياء.

٣٠- السجن الإداري من اسوأ أنواع السجن، وهو الاعتقال بلا ذنب وبلا لائحة اتهام، وربما بلائحة براءة، وهذا الذي حصل ليوسف عليه السلام.

حلقة جديدة من حلقات البلاء:

لا يكاد يوسف ينتهي من مصيبة إلا ويقع في أخرى، فبعد أن نجى من كيد إخوته واجه محنة امرأة العزيز، وكان ينبغي أن ينجو منها لكنه خرج إلى محنة جديدة هي محنة السجن ظلماً وزوراً.

وما أدراكم ما سجن مصر في غابر الزمان والأيام، فلا كهرباء وما يترتب عليها من اضاءة وتكييف وما إليها، ولا خدمات ولا حقوق منتظمة، وهو قبل ذلك

وبعده في سجن إداري لكنه بين جنبات سجن مختلط السجين السياسي والأمني والمدني، وإذا كان السجن خليطاً مع اللصوص والمجرمين تضاعف ألمه وضاقت جدرانه، واشتد الحبل على العنق، وفي هذا الجو الكئيب يثبت يوسف جدارة ويظل هو صاحب الشخصية القوية المتزنة ذات الكفاءة العالية وهذا شأن الرجال الصامدين الصابرين الذين يستعلون على الأحداث ويقهرون الواقع ولا يقهرهم، كان قدر يوسف أن يسجن معه فتيان بتهم مختلفة، شتان ما بينها وبين قضية يوسف البيضاء النقية كالغيم في عنان السماء.

وتكثر أحلام السجناء وغالباً ما تصب في رغباتهم في النجاة والإفراج ويتفيئون ظلال الحديث ليواسوا أنفسهم ويسلّوا قلوبهم أو يقتلوا وقتهم، وليقترب موعد الإفراج.

عرض الصاحبان كلّ رؤيته على يوسف الذي أثبت أنه مرجع لهموم من معه وملاذ لأصحابه، أثبت ذلك باستعلائه وقوة شكيمته وسعة معرفته وعمق حكمته ورشده، (إنا نراك من المحسنين).

ويجدها يوسف فرصة سانحة للدعوة إلى الله فيوجز لهما فكرة الإيمان والخطوط العريضة للعقيدة في كلمات (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما). فهو يعزز ثقتهما به أنه قادر على تحديثهما بنوع الطعام وجودته قبل الوصول، لكن هذا ليس من نتاجي الشخصي وإنما من فضل الله (ذلكما مما علمني ربي)، (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون، واتبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب....)٠

هكذا ينبغي أن يميز الإنسان بعقله ما حوله، ويتبين الغث من السمين ويترك ما اعتاده الناس من غثاء في العقيدة والأخلاق، ويؤمن بالآخرة التي هي كائنة لا ريب فيها رغم كفر من كفر، ليغرف من نجاسات الأرض وشهواتها ما استطاع،

والكفيل بصده وتقويم مساره الإيمان بالآخرة، وهناك سلالة أنبياء، ابراهيم اسحاق يعقوب، هؤلاء هم مدرسة الإيمان التي اقتلعت جذور الشّرك.

ونكرر لولا فضل الله ورحمته، ولولا عناية الله ورعايته لما كنا على ما نحن عليه من إيمان به،(ولكن أكثر الناس لا يشكرون) والمعصية منافية للشكر، فتعالوا بنا نشكر ولا نشرك، نؤمن ولا نكفر، وبعد الطرق على نقاط هامة هي:

١- الإيمان بالآخرة

٢- ترك الكفر ومحاربة الشرك

٣- اتباع سلالة الصالحين.

٤- الفضل لله أولاً وأخرا

٥- الأغلب من الناس لا يؤمن ولا يشكر، لأن الشكر مسؤولية والكفر تسيب، والثاني أمتع وأقل تكاليفاً لذلك ينضوي تحته الأكثرون.

بعد هذا الإيجاز المفيد، عاد يطرق على الوحدانية (أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار)، بأسلوب لطيف ومودة بالغة (يا صاحبي السجن)، وأخذ يفند التعبد لغير الله، فإن هي إلا أسماء مخترعة لا قيمة لها ولا جدوى منها.(ما تعبدون من دونه إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون). وبعد هذا الاستغلال الموفق والطرح المفيد أوّل لهما ما رأيا، (يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان).

وبحكمته وفصاحته لم يحدد لهما أيهما سينجو ويعمل ساقياً في قصر الملك ومن هو الذي سيحكم عليه بالإعدام ،،،، حتى لا ينهار أحدهما، وليبق كل منهما على أمل أن يكون هو صاحب الحظ بالنجاة، واغتنم يوسف فرصة نجاة أحدهما قائلاً

له قبيل نجاته: (اذكرني عند ربك)٠ وقد صدق تأويل يوسف بإعدام أحد صاحبيه ونجاة الآخر لكن الذي أفرج عنه كعادة كثيرين ينسى ما كان في السجن ويشتغل بما عاشه من جديد وتخطف الدنيا أبصاره وتلغي بعض ذاكرته القديمة، وما أحاديث ووعود السجون إلا فقاعات سرعان ما تتلاشى.

(فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين)، بضع سنين ما بين الثلاث والتسع ، وقيل أنها سبع حتى حان الموعد.

الملك يرى البقرات والسنبلات:

وهذه الرؤيا الرابعة في السورة: (وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون) وفي الوقت الذي يعتذر الملأ، (قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين)، يتذكر السجين الذي أطلق سراحه أحد صاحبي السجن، بأن مفسّر الرؤى على الحقيقة والصواب يوسف ثم يتذكر وصيته له بذكر اسمه وموضوعه عند الملك، ولكن ... بعد بضع سنوات من المعاناة.

وإن هي إلاّ أوجز فترة حتى يصل السجن بعد الأذن والطلب، فيعرض الرؤيا كما هي –رؤيا الملك– ولا نعلم ماذا دار بينهما من حوار أو عتاب أو سؤال أو جواب، ولكن صلب موضوع اللقاء رؤيا الملك.

المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة:

ولا يخطر ببال يوسف أن ينتقم من الحاكم والمحكومين والنظام الظالم والعزيز الجائر فيعتذر عن تأويل الرؤيا والذي يتعلق به نجاة بلد أو بلاد، فيسارع إلى التأويل لأن كبير القوم لا يحمل الحقد، ويكون التأويل:

(تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبلة إلا قليلاً مما تأكلون ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون).

حين تكون المسألة هامة وخطيرة تطغى على المصلحة الشخصية، وفي هذه المرة لا يطلب من صاحبه أن يذكره عند الملك فما يقدم المشورة والنصيحة مقابل مصلحة شخصية ذاتية، وملحوظ أن يوسف لم يكتف بتفسير الرؤيا، وإنما قدّم النصيحة وهي ضرورة الادخار والحفظ، وإلا فستأتي المجاعة على الأخضر واليابس، وحين يعود الساقي إلى الملك ويخبره يسارع الملك بتكليفه أن يعود مع من يعنيه الأمر ويطلق سراح يوسف ويحضره إليه ليتعرف على هذه الشخصية المعنية بشؤون البلد ومصلحة الناس ونظام الحكم أيضاً مع أنه سجين إداري أي بلا ذنب إلا امتناعه عن تدنيس أعراض الآخرين!.

إعلان البراءة أولى من الحرية:

وسرعان ما عاد الرسول إلى يوسف لكن يوسف رفض الخروج على غير رغبة الملك، وتوقع السامعين، لأن ما يبدو لنا أن حريته طلب فطري بل ورجاء، فكيف يرفض؟ ولماذا؟

هو يريد إظهار براءته وإعلان شرفه الناصع من كل من يعنيهم الأمر: (فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم).فما قيمة الحرية الملطخة،؟ وما قيمة الحياة المخدوشة؟ وهل سيعيّر بسجنه من أحد؟ ومن سيقتنع منه أنه سجن بضع سنين بلا جريمة؟

رغبة يوسف أوامر:

ويا سبحان الله حين يكرم عبداً، هذا سجين لا بل عبد سجين (فتى) اشتراه صاحبه بماله، ثم أودعه السجن بأمره، وهو يشترط على الملك للموافقة على الخروج من السجن أن يجري تحقيق في قضيته التي أكل الدهر عليها وشرب، ونعجب أن الملك استقبل رغبة يوسف بالتنفيذ وسارع لإحضار النسوة بما فيهن امرأة العزيز وسألهن عما حدث، وفتح الملف، وكان لا بد للحقيقة من الظهور بأجلى صورها.

(قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين).

ويحتمل التعقيب التالي لامرأة العزيز وكذلك ليوسف، (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم).

فعلى احتمال أنها امرأة العزيز، فهي تقصد لم أخنه (أي يوسف) وعلى احتمال التعقيب ليوسف يقصد لم أخنه (أي العزيز في زوجته) فما ينبغي أن يكرمني وأخونه في عرضه.

نقاط هامة في حلقة السجن:

١- جيد أن يستوعب الإنسان المصيبة ويتفاعل معها

٢- خير المسجونين الإنسان العملي المحسن النافع لمن حوله المسلّي لهم.

٣- الأحلام والرؤى من أهم ما يعوّل عليه المسجونون إيجاباً أو سلباً، فكم تفرح وكم تقلق وتحزن وتهم؟

٤- الأحلام لها تأويل في الغالب، ولو كان أصحابها غير صالحين.

٥- وجود مرجع صالح للمسجونين رحمة ونعمة.

٦- الداعية يغتنم كل الفرص المتاحة لدعوته.

٧- يحسن أن يختار الداعية الأهم فالمهم من الموضوعات

٨- من أهم الموضوعات الدعوية، الآخرة، عدم الشرك والكفر، التوحيد، تفنيد بطلان المعبودات الاختراعية.

٩- الاعتماد على الله والتوكل عليه.

١٠-من السهل أن ينسى المسجون ما كان، حين ينخرط في سلك الحياة.

١١-بعض السجون تضم بين جنباتها أبرياء، وإلى سنين طويلة.

١٢-الملوك والحكام كذلك تهمهم أحلامهم ويرغبون في تأويلها.

١٣-من قال لا أعلم فقد أفتى. (وما نحن بتأويل الأحلام لعالمين).

١٤-وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

١٥-العتاب لا يقدم وربما يؤخر وإغفال الإساءة خير من إحيائها.

١٦-النصيحة للصالح والطالح للظالم وللرعية معاً.

١٧-المصلحة العامة أولى من الخاصة.

١٨-الشرف والكرامة في السجن خير من الحرية التي فيها ما فيها.

١٩-الله تعالى يسخر الحاكم لخدمة الضعيف أحياناً.

٢٠-الحقيقة تظهر ولو بعد حين، (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا).

٢١-الاعتراف بالذنب خير من التمادي في الباطل.

٢٢-النفس العادية معرّضة لحبائل الشيطان، (أمّارة بالسوء) إلا ما رحم ربي.

العنصر الثالث: يوسف على خزائن الأرض

حين أرسل الملك الساقي وبعض الشرطة إلى السجن قال لهم (ائتوني به) وحين رفض الخروج إلا بعد التحقيق مع النسوة اللاتي اعترفن بسوئهن ورفعن راية يوسف البيضاء وقرر الملك مرة أخرى أن يأتي به، قال (ائتوني به استخلصه لنفسي) وفي الجملة الثانية زيادة ملحوظة، (أستخلصه لنفسي) والاستخلاص هو الاصطفاء والاختصاص.

فجيء بيوسف معززاً مكرماً موفداً على الملك الذي استقبله في قصره وحاوره وحدثه، فأعجب به أيّما إعجاب حتى أعطاه الفرصة أن يطلب ما يشاء فكان الطلب (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم). ذلك بعدما أعطاه الملك وسام شرف (إنك اليوم لدينا مكين أمين) ونلاحظ التأكيد (لدينا) (مكين) (أمين)، كلها كلمات لها ظلال وما من وسام شرف أعظم وأرفع.

إذن يوسف طلب خزائن الأرض ووصف نفسه بصفتين هما المؤهلان للعمل على الخزائن (حفيظ عليم)، وبقليل من التفكر نرى أن هاتين الصفتين أهم ما يكون في المسؤول وخاصة الاقتصادي والذي بيده مصالح الناس وفي قبضته أرزاقهم.

الحفظ، الأمانة والنزاهة، شمعة عمر بن عبد العزيز والعلم، حسن الإدارة وحكمة التصرف ووضع الشيء في محله، ولم يتوان الملك في تأخير الموافقة، فوجدنا يوسف على الفور يمارس وزارة المالية والزراعة والاقتصاد والتجارة والصناعة والتموين، وإن شئتم فهو كل شيء. ولذلك لا ذكر للملك ولا للعزيز بعد الآن في السورة فكأنما أصبح يوسف عليه السلام هو كل شيء، وهذا هو التمكين في الأرض.

(وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، نصيب برحمتنا من نشاء، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتّقون). فالتمكين لا يكون إلا بعد الصبر والابتلاء والسبيل إلى ذلك الإيمان والتقوى والأجر عند الله أعظم من التمكين.

برقية

أرأيتم لو وافق يوسف امرأة العزيز على مشروعها الشيطاني، لظل عبداً خادماً، ومات على ذلك وحرم النبوة، وو..الخ، لكن تقواه وصبره رفع شأنه ومكنه في الأرض وجعله ليس مستشاراً للملك، وإنما يكاد يكون هو الملك بعينه، وإذا به الآمر الناهي، وشتان ما بين ثمرات المعصية وثمرات الطاعة، طبعاً (لو) هنا لا معنى لها لأن ذلك أي المعصية لم تحدث!!.

المجاعة عمت البلاد

مضت السنين السبع الأول المليئة بالخير (السّمان) ثم جاءت السبع العجاف، فشاع الفقر وهلك الزرع وجف الضرع، والتوت البطون وأخذ الناس يبحثون عما يقيتهم، ولما كانت الأيدي الأمينة في مصر هي التي بيدها مال العامة، وكان هناك ترشيد استهلاكي، ظل الخير في البلاد، يوزع بقدر وشاع خبر العطاء المصري، والبقرة الحلوب هناك، فشدّ الناس الرحال من سائر البلاد، وهؤلاء اخوة يوسف يحضرون من بلاد الشام طلباً للعطاء ورغبة في شراء القمح للإنفاق على آلهم وذويهم.

وحين وصل إخوانه إليه عرفهم، أما هم فكان من شبه المستحيل أن يعرفوه، فأنى ليوسف الطفل الملقى في الجب أن يصل هذا الموصل وينال هذه المرتبة؟ ويتبوأ هذا المركز؟ أنّي ذلك؟ بالإضافة إلى أنه كان صغيراً وكبر والملامح تتغير. (وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون)

حيلة شرعية

يجوز للإنسان أن يحتال ليصل إلى حقه، وهذا يوسف بعد سنين طويلة من البلاء والحرمان يرسم خطة لإحضار أبيه وأهله إليه، أما هو فيصعب عليه ترك خزائن الأرض المؤتمن عليها في هذا الظرف العصيب وهو (الحفيظ العليم)، فإن عدم الإبصار الدائم، وترك مواقع المسؤولة وقلة المراقبة أو عدمها، كل ذلك مناف لصفة الحفظ، فالأولى إذن أن لا يسارع إلى تلبية عواطفه وهو التواق لرؤية أبيه وأخيه، فليصبر قليلاً، وسيأتون هم دون أن يذهب هو، وهذا الذي قد كان.

عرف بسؤالهم عن أحوالهم أن أخاه الصغير لا يزال حياً، وكذلك أبوه، فطلب منهم أن يحضروا أخاهم الذي هو شقيقه واعتبر ذلك شرطاً لتزويدهم بالمئونة وإلا فلا. ومن أجل التأكد من عودتهم السريعة وضع بشكل سرّي البضاعة التي أحضروها في رحالهم ليطمئنوا إلى كرمه وصدقه، وكي لا يمتنعوا عن الحضور بسبب إفلاسهم وعدم وجود بضاعة أخرى في المستقبل، فإذا وجد الثمن سيسارعون للارتزاق والبحث عن الطعام في أسرع وقت ممكن.

ونجحت الخطة واقتنع الأخوة وذهبوا يدافعون أمام أبيهم عن ضرورة اصطحاب أخيهم الصغير معهم، وأن هذا هو السبيل الوحيد لإحضار الطعام وبدونه سيمنعون الكيل، لكن أباهم تخوف لأن الملدوغ يخشى من "جرة الحبل"، (قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين)، لكن وجود بضاعتهم التي قدّموها ثمناً في المرة الأولى من زيارة مصر، وجودها بين المتاع كان دليلاً آخر على ضرورة الاستجابة لإحضار الأخ الصغير، ووعدوا هذه المرة بحفظ أخيهم، (...ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير). لكنّ الأب المجرّب والذي في قلبه مخزون من الآلام على ذكر قصة يوسف وممارسات أولاده أجبر هذه المرة أن يأخذ المواثيق على أبنائه أن لا يفرّطوا هذه المرة بأخيهم وألا يكيدوا به.

ولعل الوحي هو الذي يقنع الأب (النبي الشيخ) بالموافقة بداية أن يسلمهم يوسف، وثانياً ولده الصغير لمفاجآت سارة يعرف خطها العريض- من الوحي- ولا يعرف التفاصيل!

نصيحة لا بد منها وخطة محكمة:

(وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة...)، الأب ينصح الأبناء بالدخول متفرقين هل خوفاً عليهم من الحسد؟ أم لسبب أعمق ونظرة أبعد لعلها أن ينفرد يوسف بأخيه دون وجود مصاحب له من اخوته، حتى تتم الخطة بنجاح؟ أم ربما تفرقهم يعزز احتمال تعرف أخيهم عليهم (يوسف) لأنه لا يوقن أن يوسف قد لقيهم حتى الآن! وفعلاً تم التنفيذ، وحان وقت اللقاء، وانفرد يوسف بأخيه وضمه إليه وطمأنه وكان مضطراً للقيام بمسرحية لاستبقاء أخيه، والسبيل لذلك وضع السقاية وهي أداة الكيل (الصواع) وضعها في رحل أخيه ليبرر احتجازه أو عقوبته على الظاهر. وأمر يوسف بالإعلان مناداة على أن صواع الملك قد سرق (ولمن جاء به حمل بعير)، واستغرب الأعراب أن يقوموا بهذا العمل رغم حاجتهم الماسة للاسترزاق دون مشاكل، (قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين). وهم أنفسهم حكموا بقساوة على من سرق أو وجد الصواع في رحله، حكموا عليه بعقوبة (الاحتجاز) (السجن) لأنهم موقنون أن السارق ليس منهم، وهكذا تمت الخطة بنجاح.

وحتى لا يساورهم أدنى شك بدأ بالتفتيش بأوعيتهم وختم بوعاء أخيهم الصغير، فوجد السقاية (الصواع) في رحل أخيه ولتطبيق ما قالوا احتجز أخاهم، وذلك فضل الله أن الحكم صدر منهم، لأن القانون المصري العقوبة بغير الاحتجاز للسارق! وأصر الأخوة على التطاول على الصغير والكبير. (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له

من قبل....)، فتألم يوسف وأسرّ عليهم رداً أنهم هم الأسوأ.(قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون)، ولم يجد اخوة يوسف بداً من الرجاء والتوسل أن يستبدل أخاهم بأحدهم واستعطفوه بوجود أب كبير السن، لكن يوسف رفض بإصرار لأنه لا يوافق على الظلم باستبدال الجاني.

وتحرّكت العاطفة في نفس أحدهم وهو الكبير الذي تذكر مأساة أبيه حين فرطوا في يوسف ورفض مصاحبتهم لأنه لا يطيق رؤية أبيه ببلاء جديد وطلب منهم العودة وإبلاغ الوالد بما حدث وتقديم الأدلة والشهود بصدق الرواية لأن أباهم سوف يتذكر الدليل القديم قميص يوسف ويرفض التصديق.

شدة المصيبة قد تفقد البصر

وحين رجع الأبناء يحملون الخبر السيئ المؤلم وعرضوه على أبيهم تفتحت المواجع واستذكر الماضي والجرح الجديد يذكّر بالجرح القديم، (وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم). وللتخفيف عنه حاول الأبناء تلطيف الجو بلا جدوى، وكان لا بد من اللجوء إلى الله عز وجل خير معين. (قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله واعلم من الله مالا تعلمون) .

اليأس ليس من صفات المؤمنين

ورغم الكابوس الجديد يدعو يعقوب أولاده أن يعودوا ويبحثوا عن يوسف وعن أخيه، (ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وجاء الأخوة راجعين متذللين يخفضون الجناح، ويبحثون عن الصدقة ليس في الطعام فقط وإنما في إطلاق سراح أخيهم كذلك.

المصارحة

وحان موعد المصارحة وطرح الأوراق، ولا بد من ذلك ولو بعد حين، (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون). ولما كان فعلهم سراً بينهم وحدهم، فما الذي يوصل النبأ إلى هذا (العزيز)؟ وبما أن يوسف لم يأكله الذئب ولم يبق في الجب فالنتيجة أن السيارة قد التقطته، وبشيء من التدقيق في ملامحه بالإضافة على الخبر الذي فاجأهم به فقد حصل ترجيح أنه هو هو.

"قالوا أءنك لأنت يوسف، قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين).

عنصران هما الأهم في بلوغ الغايات، التقوى والصبر، وشعر الأخوة مجدداً بذنبهم وكان لا بد من الاعتذار وطلب الصفح، وقد كان، فكبير القوم لا يحمل الأحقاد، وتفويض الأمر إلى الله خير من تحصيل الحق وإنزال العقوبة، (قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين).

ويأتي دور القميص من جديد

(اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين)، إنها معجزة الأنبياء ،هو يعلم بوحي من الله أن القميص سيرد بصر أبيه إليه، ووصلت القافلة تحمل القميص، فاستشعر الأب أن هناك خبراً عن يوسف وهو الذي لم ينْس حتى الآن رؤيا يوسف وضرورة سجود الكواكب الأحد عشرة ليوسف، وقد آن الأوان فما بقي في العمر من بقية.

وللمرة السبعين، لا يخرج الأولاد عن أخلاقهم ..هم ..هم فما غيرتهم الأيام: (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) وألقي القميص على وجه الشيخ الكبير فعاد بصره واستبشر خيراً وذكّرهم بنعمة الله عليه (ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون).

وكان لا بد من إعلان الاعتراف بالذنب وطلب المغفرة من أبيهم بعد سنين طوال من المعاناة جرّاء سوء تصرفاتهم، (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) (قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم).

فما طاب قلبه عليهم، وما عنده قدرة أن يغفر أو يستغفر أو يغسل أدران سنين في لحظة (قال سوف) .. هو وعد وليس استغفار

تأويل الرؤيا:

قد يحصل تأويل الرؤيا بعد سنين تتجاوز العشرة أو العشرين، يوسف يكرم أهله ويستقبل أبويه ويرفعهما على العرش ويسجد الأخوة سجود الاكرام والتعظيم والاحترام (للعزيز). وحينئذ يتذكر يوسف رؤياه التي قصها على أبيه وهو غلام!.

ويطوي يوسف كل أنواع البلاء ويتأدب مع الله فلا يذكر إلا الحسنات، (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو).

ويرفق بأخوته فينسب ما حدث للشيطان (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي..) هذا القلب المليء بالإيمان، المتعالي على الأضغان.

دعاء الختام

وتختم قصة يوسف بدعاء رقيق جميل هو درس أو دروس للمتفكرين والمتذكرين:

(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين).

فهذا يوسف يستعرض نعم الله عليه ولا يذكر مصيبة واحدة مما لحق به، وليس له رجاء ولا طمع إلا في رحمة الله إنه يطلب الوفاة على الصلاح والتوحيد والإسلام وأن يحشر مع عباد الله الصالحين، وأي طلب أعظم من هذا الطلب وأي رجاء أرفع من هذا الرجاء!!

بين رغبات البشر وحكمة القدر

كنا نود لو أن أخوة يوسف ما حسدوه، ولو أنهم ما تآمروا عليه، ولو أنهم ما فكروا بقتله ولا إلقائه في الجب، لو أنهم رحموه حين ألقوه في الجب فأخرجوه أو عاد أحدهم فأنقذه، ولو أن أحدهم رحم إياه فأخبره بالحقيقة لما رأى دموعه فأنقذ الغلام، ولو أن بعض الرعاة من غير اخوته هم الذين عثروا على يوسف فأعادوه لبيته، ولن أن السيارة اقتنعوا برواية يوسف فرحموه وأعادوه لأبيه بثمن أو أطلقوا سراحه رحمة ومجاناً، ولو أن يوسف عاش في بيت العزيز الدهر دون مراودة المرأة، ولو أن المرأة لم تظلم يوسف ولم تحكم عليه بالسجن، ولو أن العدالة أخذت مجراها فسجنت المرأة وأطلق سراح الفتى، ولو أن صاحب السجن الذي نجى لم ينس أن يحدث سيده بقصة يوسف، إذن يطلق سراحه على الفور، ولو أن يوسف خرج أول مرة حين قال الملك (ائتوني به) ....الخ

كنا نود ذلك كله وغير ذلك رحمة بيوسف وأبي يوسف وتحقيقاً للعدالة وإقصاءً للظلم. لكن يد القدر نسجت الأحداث جميعاً على غير رغبة البشر، ولو أن حلقة من الحلقات المذكورة فقدت وبعبارة لو أن أي رغبة من رغباتنا تحققت لما وصلنا إلى النهاية السعيدة. إن بلاء الفرد أو الأفراد لتحقيق مصلحة الأمة والمجتمع أجدى.

كانت الأحداث عبارة عن لبنات – لبنة لبنة كلها أقامت بناءً – لو سقطت منه طوبة لانهدم البناء، فمن يؤول الرؤيا للملك لو لم يكن يوسف أوّل الرؤيا لصاحبي السجن وخرج أحدهما؟ ومن يعرف يوسف ويوصله بالملك لولا صاحبه، ولولا ظلم المرأة له، ولولا ولولا ولولا؟!

من ينقذ مصر وأكناف مصر، ومن ينقذ أخوة يوسف وأباهم والأعراب بجوارهم، لولا عدل يوسف، وأنى ليوسف أن يصل إلى هذا المقام لولا كل ما حدث؟!

لو جاءت المجاعة سبع سنين دأباً دون وجود الحفيظ العليم على خزائن الأرض لهلك العباد ولعمت المجاعة ديار الشام فضلاً عن مصر ومن حولها، ولكانت الخسائر بمثابة إبادة لن توفر يوسف نفسه ولا أباه ولا أخوته.

أرأينا إلى قدر الله ما أحكمه، سبحان الله، هل نستطيع أن نرتب على هذا قاعدة قرآنية بلفظ آخر، (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون).

وختاماً: أكرر الاعتذار بسبب مزيد من الاختصار، فسورة يوسف وقصة يوسف لا يصلح الحديث عنها في محاضرة، لأن ذلك يستدعي إغفال كثير من الكنوز، وفي ذلك خسارة ولا ريب

والله الهادي إلى سواء السبيل

* * * * *

الندوة الرابعة عشرة*

الإسلام والتعددية السياسية

الدكتور سعيد القيق**

قال تعالى "**ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**"[1]

لقد كرم الله بني آدم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم بما منحهم في طبيعة خلقهم من طاقات وقدرات وعلى رأسها الطاقة العقلية والإرادة الحرة وقدرات النطق واللغة والتعبير "وعلّم آدم الأسماء كلها"[2]. وقوله عز وجل "**خلق الإنسان علمه البيان**"[3]

ومنّ الله علينا بدينه العظيم، الذي أعطى كل شعبة من شعب الحياة منهاجاً متزناً متكاملا متفاعل الأطراف متناسقا مع الفطرة الإنسانية ومع بقية شعب الحياة، فهو يعالج الحياة كلياً وجزئياً وينسق بين أجزائها وبين فكرتها الكلية ويمنح كلا من طرفيها العناية التامة ويرتقي بها إلى قمة النبل والشرف والكرامة .

وينمي المواهب والطاقات المودعة في الإنسان على مسيرها الطبيعي، حتى يؤدي الإنسان دوره المطلوب في بيئة تسودها الواقعية والطمأنينة والسلام والتطابق الكامل بين ضمير الإنسان ومشاعره الفطريّة ونزعاته الخلقية وبين ممارسته العملية الواقعية .

---

* قدمت هذه الورقة في ندوة الدائرة المستديرة ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية بتاريخ ٢٨ حزيران ٢٠٠١

** رئيس قسم التشريع في كلية الدعوة وأصول الدين - القدس

[1] سورة الإسراء آيه ٧٠

[2] سورة البقرة آيه ٣١

[3] سورة الرحمن آيه ٤

وجاءت شريعته عامة شاملة، ومقتضى شمولها أنها لا تنحصر في جيل من الأجيال أو عصر من العصور، فهي للناس جميعاً حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وجمعت هذه الشريعة بين الثابت والمتغير، فالمبادئ والغايات ثابتة، وفي الوقت نفسه تجد الوسائل والأساليب متغيرة تختلف من عصر لآخر، وتتخذ أكثر من شكل أو صورة، وقبل الحديث عن آراء العلماء حول مشروعية الأحزاب السياسية في الإسلام لا بد من الحديث عن الأمور التالية:

١- حدود الاختلاف في الفكر الإسلامي

اختلف علماء المسلمين في مسألة الاختلاف، فاعتبر فريق منهم أن ظاهرة الاختلاف ظاهرة سلبية، بل اعتبرها البعض ظاهرة مرضية في الأمة، سواء كانت في أصول الأحكام والعقائد أو كانت في الفروع، فالأصل في الأمة الإسلامية هو الوحدة السياسية والفقهية والاجتماعية والثقافية. واعتبروا تعدد المذاهب الفقهية في الإسلام وما صاحبه من تعصب كل أصحاب مذهب إلى مذهبهم هو ظاهرة سلبية، فالأصل أن لا يكون هناك تعدد للمذاهب في الإسلام، وأن يكون الإسلام مذهباً واحداً. وقد استدلوا ببعض النصوص القرآنية والنبوية مثل قوله تعالى "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" وقوله تعالى: "ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وألئك لهم عذاب عظيم"[٤]. وقوله ﷺ : "لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا"[٥] .

أما الرأي الآخر فقد قسم الاختلاف إلى قسمين :

الأول: اختلاف تنوع وهو محمود

---

[٤] سورة آل عمران الآيات ١٠٣، ١٠٥

[٥] متفق عليه

الثاني: اختلاف تضاد وهو مذموم[٦].

وقالوا إن الاختلاف والتعدد لا يعني بالضرورة التفرق، كما أن بعض الاختلاف ليس ممقوتاً مثل الاختلاف في الرأي نتيجة الاختلاف في الاجتهاد، وقالوا إن دائرة الاختلاف المسموح به هو في الفروع التي لم يرد فيها نص شرعي .

أما أصول الأحكام والعقائد فلا مجال للاختلاف فيها، وشاهدهم في ذلك هو ما عليه الأمة من اختلاف في المذاهب الفقهية، وقد اجمع على ذلك جمهور علماء الأمة ولم ينكروه ولم ينادوا بإلغاء هذه المذاهب. ومن حياة الصحابة عندما اختلفوا في صلاة العصر وهم في طريقهم إلى بني قريظة، ولم ينكر الرسول ﷺ على أي من الفريقين المختلفين .

٢- طبيعة الدولة في الإسلام

إن صح في تاريخ الغرب المسيحي الازدواج في السلطة، بحكم وجود الكنيسة ككيان سلطوي قائم بذاته، منفصل عن الكيان السلطوي الزمني وهو ما يعني أن الغرب المسيحي قد عرف بالفعل نوعين من المؤسسات دار بينها صراع طويل، دارت الدائرة فيه على سلطان الكنيسة وانتصرت العلمانية .

فليس في الإسلام شيء يعرف "بالمؤسسة الدينية" وليس فيه طبيعة "الكليروس" أو كهنوت أو رجال دين حكموا أو يحكمون بالحق الإلهي المقدس[٧]، وليس فيه ثمة تلك المقابلة المتوهمة بين سلطتين أو مؤسستين حتى يتعين الفصل بينهما وإنما للقضية في الإسلام منطوق مختلف ولها فيه سياق متميز تعرض به، ومنطوق القضية هو: أن "دولة الإسلام أمة محكومة بمنهاج الله تعالى الذي أجمله وفصله في كل شأن من

---

[٦] الدكتور يوسف القرضاوي/ فتاوي معاصر ص ٦٥٨

[٧] عدنان زرزور "القومية العلمانية" ص ١٣٩

شؤون الحياة، وكل ضرب من ضروبها في عقيدتها وتصوراتها، وفي تشريعها ونظمها وفي أخلاقها وسلوكها، والحاكم في الإسلام ليس وكيلاً عن الله ولكنه وكيل عن الأمة و "العقد الاجتماعي" بينه وبين الأمة قائم على طاعته لله في أبنائها بأن يحكمهم بالعدل ويأخذهم بأحكام الله أو بعبارة جامعة بأن يطيع الله تعالى فيهم .

وهو محكوم بهذا المنهاج لا يملك الحياد عنه أو التفلّت منه، وإلا فلا طاعة له ولا تلبية وإنما هي المخالفة والمنازعة .

كما قال الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ في أول خطبة سياسية جامعة بعد وفاة النبي ﷺ: "أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم". إنها طاعة مقيدة وليست مطلقة أو عمياء بحكم النيابة عن الله أو الحق الإلهي المقدس! فالشريعة أو الأحكام الثابتة المنزلة من عند الله في هذا الحال ليست إفتئاتا على الثيوقراطية أو الحكم الديني الأوروبي أو حكم رجال الدين بسبيل !

فلو كانت الحكومة الإسلامية "ثيوقراطية" لكان للخليفة أن يفعل ما يشاء، فيغفر لمن يشاء ويحرم من يشاء ويسحق من يشاء، ولكن الخليفة مقيد بنصوص القرآن والسنة وما تسفر عنه الشورى وليس له حاشية يرأسها باسم طبقة رجال الدين، ولا كهنة لها امتيازات غير محدودة[٨].

ولقد ثبت في الشريعة الإسلامية أن الحاكم إذا ارتكب جريمة استحق العقاب، فهذا الرسول ﷺ طلب القود من نفسه وهو مريض وقال: "أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه[٩] ".

---

[٨] محمد كاظم حبيب "مؤامرة فصل الدين عن الدولة" ص ١٣٧ دار الإيمان، الطبعة الأولى – بيروت

[٩] السيرة النبوية لابن هشام، المجلد الأول ص ٦٢٦، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم البياري الطبعة الثانية، مطبعة البابي الحلبي القاهرة ١٩٥٥

فلم يخلع الإسلام الحنيف على الحكام صفة التنزيه عن الإجرام، وإذا أجرموا لم ينفعهم من العقاب فالناس جميعاً أمام الشرع سواء. قال ابن خلدون في المقدمة ص ٦٨٣ "الخليفة لا يتميز عن سائر المسلمين إلا من حيث كونه منفذاً للأحكام وحارساً للدين".

وليس بين المسلمين من يدعي لنفسه أنه لا ينطق إلا باسم الله الذي فوضه في ذلك، كما كان حال رجال الدين في أوروبا، الذين يعتقدون أن ما يحلّونه في الأرض يحلّه الله في السماء، وما يحرمونه يحرّمه الله في السماء، وهم يستندون في ذلك إلى الإنجيل الذي ينص على ما يحله عيسى باعتباره ابنا لله يحله الله في السماء، وما يحرمه في الأرض يحرمه الله في السماء.

كما وأنه ليس في الإسلام "صكوك غفران" أو "حرمان" فهذا الدين القيم لا يقبل بحال أن يكون حرفة يتوصل بها فريق من الناس لكسب قوتهم ويميزون أنفسهم به عمن يتلقون علوم الدين عنهم، ذلك لأن الأساس هو انعدام الوساطة بين العبد وربه، قال تعالى: "**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**[١٠]".

والإسلام لا يمنع أحد من تحكيم عقله في فهم النصوص الشرعية، فهي ليست أسرارا خفية لا يعلمها إلا الكهنة وليس لها لغة لا يفقهها إلا الأحبار والرهبان، بل هو آيات بيّنات ،أقام عليها حضارة علمية ومدارس فقهية وفكرية ويقول عز وجل عن هذه الآيات: "**ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر**[١١]".

---

[١٠] سورة الحجرات آيه ١٣

[١١] سورة القمر آيه ١٧، عبد القادر عودة، "الإسلام بين الجهل أبناءه وعجز علمائه" ص ٢٧، المختار الإسلامي ١٩٧٦، القاهرة

بمعنى أن كل إنسان كان يمكن أن يكون في الوقت نفسه رجل دين ورجل دنيا، بل أن ينتقل كما يشاء من ميدان نشاط إلى آخر، فليس لرجل الدين من وظيفة دينية كغيرها من الحرف المعرفية والتعليمية والتربوية .

فالذين يتّهمون دولة الإسلام بأنها دولة دينية نقول لهم؛ أنكم تقولون على الإسلام غير الحق، فهناك فرق كبير بين الدولة الإسلامية أي الدولة التي تقوم على الإسلام، والدولة الدينية التي عرفها الغرب النصراني في العصور الوسطى، وعلة ذلك أن هنالك خلطاً كبيراً بين ما هو إسلامي وما هو ديني، فكثيرون يحسبون أن كل ما هو إسلامي يكون دينياً والواقع إن الإسلام أوسع وأكبر من دين حتى أن علماء الأصول المسلمين جعلوا الدين إحدى الضروريات الخمس التي جاءت الشريعة الإسلامية لحفظها وهي: الدين والنفس والمال والنسب وزاد بعضهم العرض .

وسأضرب مثلاً موضحاً لذلك: نحن ندعو إلى تربية إسلامية متكاملة، وهذه التربية تشمل أنواعاً من التربية تبلغ خمسة عشر نوعاً إحداها التربية الدينية، فهناك التربية العقلية والجسمية والخلقية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والأدبية والمهنية والفقهية والفنية والجنسية .....الخ، فالتربية الدينية شعبة واحدة من شعب التربية الإسلامية .

فالخطأ كل الخطأ، الظن بأن الدولة الإسلامية هي "دولة دينية" "ثيوقراطية"[١٢]، إنما الدولة الإسلامية "دولة مدنية" تقوم على أساس الاختيار والبيعة والشورى، ومسئولية

---

[١٢] من العلماء من لا يرى مانعاً من وصف الدولة الإسلامية بأنها دولة دينية ووصف الحكم الإسلامي بأنه حكم ديني، ويعتبر ذلك أصوب وأعدل ويدافع عن وجهة نظره بقوله: ليس من الضروري أن يلحق الحكم الديني الإسلامي في هذه الحال بما وصفت به الدولة الدينية في أوروبا، فالحكم غير الحكم والدين غير الدين والممارسات غير الممارسات، والتاريخ غير التاريخ، وليس من الضروري أن نعيد مصطلحاتنا أو نعدلها،-سعة وضيقا- حتى تكون متفقة مع مصطلحات الآخرين أو مفهومه في ضوء ممارساتها! نقول: دولة الإسلام دولة دينية ونقول: الحكم عندنا حكم ديني ولا يلحق بذلك خطأ أو اشتباه في أنه من نوع الحكم الإلهي التي عرفته أوروبا في العصور الوسطى –عصر سيادة

الحاكم أمام الأمة، وحق كل فرد من الرعية أن ينصح هذا الحاكم ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، بل يعتبر الإسلام هذا واجب كفائياً على المسلمين، ويصبح فرض عين إذا قدر عليه وعجز غيره عنه.

الحضارة الإسلامية الذي عرف نفسه بالحكم الإسلامي، ولكن مفهومها وممارساتها وأسس بناءها أقرب ما تكون الى ما يسمى عند الأخرين دولة مدنية، (القومية والعلمانية- مدخل علمي "عدنان زرزور" ص ١٣٩).

والرأي الراجح في هذا أن نقول لا توصف الدولة الإسلامية بكونها دينية أو مدنية بالمعنى الغربي الأوروبي ذلك كما عرفنا أن الدولة الدينية في التاريخ الأوروبي والمفهوم الغربي يحكمها رجال الدين مباشرة أو بطريقة غير مباشرة وهم الذين ينصبون رئيس الدولة بمراسم وشعائر دينية خاصة، وهم الذين يتولون القضاء، ويستأثرون بفهم النصوص الشرعية الدينية، ولهم بالجملة امتيازات خاصة، وليس شيئا من ذلك في الدولة الإسلامية، فليس فيها طبقة رجال دين ولا امتيازات من أي نوع كان لرجال الدين وليس تنصيب الرئيس او الإمام إلا عملية شعبية يتولاها أهل الحل والعقد الذين منهم العلماء وغيرهم، وبايعهم الشعب ولا يستأثر إنسان بحكم مذهبه الديني بتفسير النصوص الدينية او الشريعة، وفي الدولة الدينية الأوروبية لا مجال لمناقشة الرئيس لأنه يستمد سلطته من الله بسبب أن توليته كانت من قبل رجال الدين وهم يمثلون الإرادة الإلهية وكل هذا مرفوض رفضا تاما في الإسلام، فالرئيس يناقش ويخطئ ويصيب، ولا يستمد لا هو ولا العلماء من الله مباشرة، بحيث لا يصح تخطئتهم ومناقشتهم، وكل ما في الأمر بالنسبة للدولة الإسلامية أنها وان كانت بشرية إنسانية من حيث تولي السلطة وعقد البيعة والمراقبة الشعبية، فإنها تستمد مفاهيمها وشرعيتها من الإسلام، أما وصف الدولة بالمدنية في التاريخ والمفهوم الأوروبي فمعناه فصل الدين وما يتصل به من إقامة شعائره وتعاليمه وقواعده الأخلاقية، بل التشريعية عن الدولة، والدولة لا تتدخل به وهذا المعنى غير مقبول، كذلك في الدولة الإسلامية، لأنها مكلفة بإقامة شريعة الإسلام وقواعده الأخلاقية والعمل على إقامة شعائره والتزام حدوده، ولكن الدولة الإسلامية من جهة أخرى، لو نظر إليها من وجهة نظرنا في الدولة المدنية لوجد أنها تشبهها من حيث أن تنصيب رئيسها لا يكون بمراسيم دينية وليس فيها رجال دين لهم امتيازات خاصة في نطاق الدولة حتى أنها تستمد مفاهيمها وشرعيتها من الإسلام، أما وصف الدولة بالمدنية في التاريخ والمفهوم الأوروبي فمعناه فصل الدين وما يتصل به من إقامة شعائره وتعاليمه وقواعده الأخلاقية، بل التشريعية عن الدولة، والدولة لا تتدخل به وهذا المعنى غير مقبول، كذلك في الدولة الإسلامية، لأنها مكلفة بإقامة شريعة الإسلام وقواعده الأخلاقية والعمل على إقامة شعائره والتزام حدوده، ولكن الدولة الإسلامية من جهة أخرى لو نظر إليها من وجهة نظرنا في الدولة المدنية لوجد أنها تشبهها من حيث أن تنصيب رئيسها لا يكون بمراسيم دينية ليس فيها رجال دين لهم امتيازات خاصة في نطاق الدولة حتى أن الزواج يجري عقده بين الزوجين أو وكيلهما وبحضور الشهود وليس فيه مراسم دينية ولا يشترط فيمن يعقده أن يكون رجل دين المعنى الغربي، وبناء على ما تقدم من الدولة الإسلامية لا تدخل في هذا التصنيف أصلاً، فإن شئت قلت عنها دينية ومدنية وان شئت نفيت عنها الوصفين معا بحيث ما تعتبره من الاعتبارات فهي نظام قائم بذاته في هذا الباب.

ولو كان الإسلام شرع هذه "السلطة" المعروفة في الملل السباقة عليه من البوذية والبراهمة واليهود والنصارى أو أجازها، لوجد في المسلمين نظام ورؤساء ودرجات ومسميات وامتيازات غير محدودة، كما وجد عند غيرهم، ولكن شيئاً من ذلك لم يوجد، وإنما وجدت طائفة تصدرت للتربية والإرشاد، ثم انقسمت إلى طوائف وجماعات، ولم يكن لهم سلطة على أحد، وإنما يتبعهم من شاء باختياره، ولم يسلموا مع ذلك من رمي الفقهاء لهم بالانحراف عن الدين، وأما لقب "شيخ الإسلام" فهو من اختراع الملوك والأفراد الذي بعدوا عن المظهر الديني، واستعانوا بمن له هذا المظهر، لأجل التأثير في نفوس العامة والمفكرين، وان وجدت السلطة الدينية على حقيقتها في طائفة الباطنية، ثم وجدت لهذه الطائفة حكومة مدنية في الفاطميين، ولكن مذهب الباطنية ليس من الإسلام في شيء.

وقد أشار صاحب "كتاب الإسلام قوة الغد العالمية"[١٣] إلى وظيفة الخلفاء في الدولة الإسلامية بقوله:". غير أن الخلفاء لم يكن لهم سوى السلطة الدنيوية فهم ينفذون ما شرعه النبي ﷺ ويضبطون أمور الدولة طبقا للشريعة الإسلامية، لم يمارسوا فيها سلطة فردية "أوتوقراطية" ولم يتمتعوا بمكانة روحية عند المسلمين، كتلك التي يتمتع بها بابا الكنيسة الرومانية عند المسيحيين إذ يحتل البابا المركز الروحي الأول في الكنيسة.

ويقول محمد البهي: "... فالإسلام بنظامه كان ولم يزل كمجموعة من المبادئ والقيم العليا دين الحياة اليومية، ودين الحياة السياسية ودين التوجه الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، وإذا حصل أن وقع في تاريخ هذا المجتمع فصل بين سلطة تسمى زمنية

---

[١٣] باول شمتز، " الإسلام قوة الغد العالمية" ص ١٦٢ ترجمة محمد شامي مكتبة وهبة نصر.

وأخرى تسمى دينية، فلا يعود ذلك إلى طبيعة الإسلام ولا إلى رغبة علماء الإسلام في المنافسة في السيادة والسلطة، وإنما يعود إلى الضعف في قيادة المجتمع التي كانت تنزع إلى الدنيا في انطلاق وفي غير محدود، أو إلى ضعف المجتمع نفسه، ووقوعه تحت التأثير الأجنبي الذي كان يسعى إلى التسلط على المسلمين".

"وإذا وقف علماء المسلمين في تحيز للحكام في المجتمع العربي الإسلامي في حقبة من الزمن، فقد كان ذلك، ويكون لضعف هؤلاء العلماء، ورغبتهم في الارتزاق بالدين، وليس من أجل تنافسهم على السلطة، كما كان يصنع رجال الكنيسة الرومانية مع طبقة الأمراء والنبلاء في المجتمع الأوروبي".[١٤]

وقد صدر كتاب بعنوان "الإسلام والدولة" للصحافي البريطاني " إدوارد مورتمير "أكد فيه على أنه لا يوجد في الإسلام نظام الحكومة الدينية في أوروبا، فلا صلة أبدا بين التشريع الإسلامي وحكومة الكهنوت في أوروبا، وقد شهد بذلك علماء من النصارى منهم الدكتور "نظمى لوقا"[١٥]، وبهذا كله يتأكد لنا أن النظرية لا أساس لها في الأديان الإلهية التي قامت على أساس التوحيد-وانحراف بعد ذلك- وان هذه المقولة لا تعدوا أن تكون عبارة عن اجتهادات بشرية خاطئة ليس لها سند شرعي، وحتى وإن صدقت على بعض الديانات كما ذكرنا سابقا، فإنها لا تصدق على الإسلام، إذ بينه وبين هذه النظرية بعد المشرقين.

---

[١٤] محمد البهي، "طبيعة المجتمع الأوروبي وانعكاس آثاره على المجتمع الإسلامي المعاصر" ٧٥-٧٦، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٠

[١٥] سالم بهنساوي، "تهافت العلمانية في الصحافة العربية"، ص ٥٧، دار الوفاء للطباعة، مصر، ط١، ١٩٩٠

٣- علاقة الثقافة الإسلامية بالثقافات الأخرى:

هل يجوز للحضارة الإسلامية الاقتباس من الحضارات الأخرى ؟

اختلف العلماء والمصلحون في الأمة الإسلامية حول هذه القضية إلى ثلاثة آراء خاصة بعد ظهور الفارق الواضح بين التقدم الغربي وتخلف الأمة الإسلامية .

الرأي الأول: وهو الأخذ مطلقاً أنه لن يتسنى لنا التقدم والنهوض إلا إذا حذونا حذو الحضارة الغربية وأن نأخذ كل ما لديهم من الثقافات ومفاهيم ونظم حضارية .وهذا الرأي مردود لأنه يتعارض مع أبسط القواعد والمفاهيم الشرعية، لأن أسس الحضارة الغربية تتناقض مع أسس الحضارة الإسلامية .

الرأي الثاني: وهو الرفض مطلقاً، أي أن نرفض كل شيء يأتي من الغرب أو كل شيء يأتي من خارج دائرة الإسلام، وحجتهم في ذلك أن الإسلام هو دين الله وهو دين كامل غير منقوص ولا يحتاج إلى شيء من الحضارات الأخرى، وأن كل شيء من خارج الإسلام لا يمكن أن ينسجم مع طبيعة الإسلام .واستشهد بقوله تعالى:"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينكم"

وبقوله ﷺ : "لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبرا وذراعاً بذراع حتى ولو دخلوا حجر ضب لدخلتموه قيل اليهود والنصارى قال فمن" فالحديث فيه دلالة على النهي عن الأخذ من سنن الأمم الأخرى خاصة اليهود والنصارى .

الرأي الثالث: يجوز الاقتباس والأخذ من الحضارات الأخرى ولكن ليس كل شيء يؤخذ منهم وانما جعلوا لهذا الاقتباس ضوابط شرعية وهي:

أولاً: أن تكون هناك حاجة ومصلحة للمسلمين لأخذ جانب محدد من تلك الثقافات.

ثانياً: أن لا يخالف نصاً شرعياً أو أساساً من أسس الإسلام أو قيم وأخلاق ومبادئ الإسلام

واحتج أصحاب هذا الرأي كما أورد الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه فتاوى معاصرة بأن الرسول ﷺ قام بحفر الخندق، ولم تكن هذه مكيدة يعرفها العرب إنما هي من أساليب الفرس واتخذ الرسول ﷺ خاتماً يختم به كتبه، قيل له: إن الملوك لا يقبلون الكتاب إلا إذا كان مختوماً، واقتبس معاوية نظام البريد واقتبس عمر نظام الخراج ونظام الدواوين. وبعد النظر فيما أوردنا من أداء حول جواز أن نقتبس الحضارة الإسلامية من الحضارات الأخرى ما ينفعنا، ولكن بضوابط وهي أن يكون فيه منفعة للمسلمين، وان لا يخالف ديننا وأن نجعله ينسجم مع الحضارة الإسلامية .

٤-الحريات والحقوق السياسية التي كفلها الإسلام للفرد في المجتمع الإسلامي يمارسها تحت مظلة الشريعة ومن خلال وسائل مختلفة ومن أهمها:

أ- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي هو واجب على كل مسلم في كل ما يمس الأخلاق والمصالح العامة والنظام العام، وفي كل ما أوجبت فيه الشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[١٦]. وقد ثبت هذا الواجب

---

[١٦] عبد القادر، عودة الإسلام وأوضاعه السياسية ص ٢٨٥

فيه الشريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[١٦]. وقد ثبت هذا الواجب الشرعي بنصوص في القرآن الكريم والسنة المطهرة، كما ثبت أيضا بالإجماع وبسيرة الخلفاء الراشدين. فالأحاديث النبوية الشريفة تصرح بوجوب الإنكار على الحاكم ووجوب محاسبته، وأن من يقتل في سبيل هذا الواجب يعتبر في منزله سيد الشهداء. ويعد منع المسلم من القيام بهذا الواجب ظلماً كبيراً لا مثيل له، فمن يمنع إنساناً من إظهار الحق ومساندته فهو بفعله هذا لا يسلبه حقاً أساسياً فحسب بل يعوقه أيضاً عن أداء فرض، ولا بد من حصوله على هذا الحق من أجل صحة المجتمع وسلامته[١٧].

ب- الاجتهاد: هو دأب العلماء المبدعين، فلا يليق بالعالم والمفكر إلا إبداء رأيه فيما يعرض عليه مستهدياً بتوجيهات الإسلام، وقد نهى الشرع عن التقليد؛ قال تعالى: "ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا "[١٨].

والتشريع في الإسلام قسمان :

الأول: النصوص الشرعية الخالصة لله تعالى والتي لا يجوز الاجتهاد فيها، فالقواعد الشرعية الكلية والأحكام القطعية الثانية وما علم من الدين بالضرورة كلها لا مجال للاجتهاد فيها، فالتشريع فيها لله .

---

[١٦] عبد القادر، عودة الإسلام وأوضاعه السياسية ص ٢٨٥
[١٧] أبو الاعلى المودودي الحكومة الإسلامية ص ٤٢
[١٨] سورة الإسراء أيه ٣٦

الثاني:وهي الأحكام التي لا نص فيها ولا يجوز الاجتهاد فيها، فالأحكام الغنية بأدلتها والمسائل المستجدة التي تحتاج إلى إجابة، يجتهد فيها من قبل أهل الاجتهاد الذين تتوافر فيهم شروط الاجتهاد .

ج) **النصيحة لله ولرسوله ولجماعة المسلمين** قال ﷺ: "الدين النصيحة؛ قالوا لمن يا رسول الله قال لله ولرسوله ولأمة المسلمين وعامتهم".[١٩] ولقد أثمر هذا المنهج ثمرات طبيعية في توفير جو من الثقة والشعور بالاستقلالية، والإحساس بالمسؤولية لدى الفرد المسلم، فكان يبدي رأيه في جليل الأمور ويسيرها. فهذه امرأة مسلمة تنتقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما أراد تحديد المهور، ولا يملك عمر إلا التنازل عن رأيه عندما اتضح له الدليل .

وكان للمعارضة رأيها المعتبر في الميزان السياسي الإسلامي، وهذا ما أفصحت عنه الخطابات السياسيّة التي أدلى بها كل من أبي بكر وعمر ﷺ أثر توليهما الخلافة، فقد أورد ابن الأثير[٢٠] عن أبي بكر الصديق حينما ولي الخلافة قال: "أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني"

والنماذج من سيرة الخلفاء الراشدين والتاريخ الإسلامي كثيرة، وتدل دلالة واضحة على محاسبة الحكام والنصح لهم، وكانت بصوره فردية في معظم الأحوال ولا يوجد مانع شرعي أن تكون المحاسبة جماعية، بل هي الأفضل، لأن الإمام إذا علم أن هناك من يحاسبه أذعن إلى الحق ورجع إليه، خاصة إذا كانت صادرة من

---

[١٩] النسائي في البيعة باب النصيحة للإمام
[٢٠] الكامل في التاريخ ٢٢٤/٢

جماعة أو حزب له مبادئ معينة يلتقي حولها أفرادها. كما وأننا نؤكد خلال هذه الأحداث التاريخية، أن الفكر الإسلامي لا يضيق بالرأي الآخر ما دام هذا الرأي يتخذ له من الشرع مستنداً.

وليس بالمقبول أن يجاهر أحدهم بعداوة الشرع، ثم يطالب بالحماية تحت شعار حرية الرأي، فهذه ليست حرية؛ إنما هي الفوضى المرفوضة، ثم إنه لا بد أن يصدر الرأي عن الصدق دون الكذب فلا نعده مقبولاً ما نراه في بعض الصحف والمجلات من مهاترات وتقولات بقصد الإثارة والتهريج تحت دعوى حرية التعبير عن الرأي .

د- **حق الاشتراك في العمل السياسي:** قرر الإسلام للإنسان ضمن ما قرره من حقوق أساسية؛ حق اشتراك كل أفراد المجتمع في الحكومة، إذ لا بد وأن تسير الحكومة لمشورة الأفراد قال تعالى: "ليستخلفنهم في الأرض"، وقد جاء الضمير هنا في صيغ فقال ليستخلفنهم كلهم لا بعضهم فالحكومة ليست لفرد أو أسرة أو طبقة بل حكومة الأمة بأسرها، وتتكون بمشورة الأفراد كلهم: "وأمرهم شورى بينهم"، يعني أن الحكومة تسير بالتشاور فيما بين الأفراد، فمن رضي به المسلمون ولّوه أمرهم ومن لم يرضوا به فلا حكم له عليهم. وهذا الحق السياسي يستوي فيه المسلم مع غيره من أهل الذمة، الذين لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ولا يستثنى من ذلك إلا مسائل العقيدة.

هـ- **حق حرية الاجتماع:** إن حرية الاجتماع هي النتيجة المنطقية لحرية التعبير، وبما أن القرآن قد أوضح كثيراً أن اختلاف الآراء حقيقة ملازمة للحياة الإنسانية، فأنّى له إلا أن يعترف بحركة صاحب الرأي بين الناس؟ فمن الممكن أن تظهر بين الأمة التي تجتمع على مبدأ واحد، ونظرية واحدة، ومدارس مختلفة

يتقارب دعاتها على أي حال فيما بينهم "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"[٢١].

وحيث أن هناك فرقاً بين التصورات التفصيلية لمفاهيم الخير والمعروف والمنكر، فإن المتحدثين على نظرية واحدة في الأمة قد تتشكل بينهم على هذا الأساس مدارس فكرية مختلفة، وجماعات وأحزاب متعددة ومن ثم تظهر جماعات تختلف فيما بينها باختلاف آرائها في النظريات السياسية والقانون والفقه وما إلى ذلك.

فالسؤال إذن أليس من حق الجماعات التي تختلف فيما بينها في وجهات النظر أن تنال حرية الاجتماع في ظل الدستور الإسلامي وميثاق الإسلام الخاص بحقوق الإنسان؟

لقد ظهر هذا السؤال أمام علي ﷺ بظهور الخوارج، والاعتراف لهم بحقهم في حرية الاجتماع، وكان فحوى كلامه لهم، أنكم أحراراً طالما لم تجرّدوا سيوفكم لتفرضوا نظريتكم على الآخرين كرهاً[٢٢].

مدى مشروعية التعددية في النظام السياسي الإسلامي ودستور الدولة الإسلامية:

إن قضية الأحزاب والتعددية السياسية، قضية لم تعرف بين الفقهاء والمفكرين الإسلاميين قديماً، بل هي من القضايا المعاصرة التي بحث فيها الفقهاء المعاصرون متأثرين بمبادئ النظم السياسية والديمقراطية، وما تولد عنها من نظام تعدد الأحزاب

---

[٢١] سورة آل عمران آيه ١٠٤

[٢٢] محمد أبو زهرة، "تاريخ المذاهب الإسلامية" ص ١٧

السياسية ونظام إجراء الانتخابات العامة لإرساء قواعد الحكومة والدولة، ومن الممكن أن نضعها تحت فقه السياسة الشرعية في الإسلام .

وقد انقسم الفقهاء في مواقفهم وآراءهم حول هذه المسألة إلى فريقين: فريق يرى بأن الحرية السياسية في النظام السياسي الإسلامي، لا يجوز أن تعمل وتؤدي دورها إلا من خلال قناة شرعية واحدة. ومن ثم تكون الأحزاب السياسية ليس لها مسوغاً شرعياً. وفريق أخر ذهب إلى أن الحرية السياسية في الإسلام قد تؤدي دورها من خلال قنوات متعددة على أن تصب كل تلك القنوات في رافد واحد هو الرافد الإسلامي، في قواعده الكلية ومبادئه الرئيسية ومن ثم فليس هناك ما يمنع شرعاً من قيام النظام الإسلامي على النظام الحزبي في صورته المتعددة .

حجة الرافضين للأحزاب السياسية :

الفريق الأول

وقد أستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه إلى أدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية وإلى أدلة مأخوذة من طبيعة النظام السياسي الإسلامي التي تحذر المسلمين من جميع أنواع الفرقة والاختلاف وتوجب عليهم لزوم الجماعة والاقتداء ومن هذه الأدلة:

قوله تعالى: "إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله"[٢٣]، وقوله تعالى: "ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون[٢٤]".

---

[٢٣] سورة الأنعام آيه ١٥٩

[٢٤] سورة الروم آيه ٣٢

فهاتان الآيتان صريحتان في النهي عن الفرقة وأنها ليست من صفات المؤمنين، بل هي من صفات المشركين، وأن الاستقامة على النهج القويم تقتضي تجنب الانضمام إلى جماعات مما يعني معه الانحدار إلى مستوى الحزبية التي قد تؤدي إلى الهلاك.[٢٥]

واستدلوا بآيات أخرى من القرآن فهموا منها أن الانقسام إلى أحزاب يؤدي إلى فقدان القوة مع ما يستتبع ذلك من تعريض الناس للاستعباد، وهي عين الخطة التي اتبعها فرعون في تفريق قومه إلى شيع فتمكن بهذا الأسلوب من اضطهادهم واستعبادهم .

ومن الأحاديث النبوية التي استدلوا بها والتي حذر فيها رسول الله ﷺ من الاختلاف والافتراف أشد التحذير وأخبرهم أنه سبب هلاك الأمم الذين مضوا من قبل وأنه سبب الدخول في النار فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار"[٢٦] وعن أبي ذر قال رسول الله ﷺ: "من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه"[٢٧]

وقد خلصوا من كل تلك الاستدلالات إلى القول هذا حال الافتراق في نظر الشريعة، وهو مظهر من مظاهر الأحزاب السياسية فماذا يكون حال الأحزاب السياسية نفسها في نظر الشريعة وهي مفضية إلى هذا المظهر؟ وهذا ما لا يحتاج إلى البيان[٢٨]

---

[٢٥] جامع الترمذي أبواب الفتن وباب في لزوم الجماعة

[٢٦] مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٨٠/٥

[٢٧] وردت استدلالات في هذا الاتجاه على لسان خالد اسحق في بحث المنشور بمجلة المسلم المعاصر السنة الحادية عشرة العدد ٤٤ لسنة ١٩٨٥، تحت عنوان "الأحزاب السياسية ونمط القيادة في الدولة الاسلامية ص ١١- ص٤٦.

[٢٨] وفي كتاب "الأحزاب السياسية في الإسلام" ص ٣٤ تاليف صفي الرحمن المبارك، فهرس سنة ١٩٨٧ م

واستندوا في رأيهم أيضاً إلى أدلة مأخوذة من الطبيعة الكلية للشريعة، وفيها قولهم أن الإسلام بطبيعته يؤدي إلى وحدة الفكر، لأنه نظام عقيدي، فكلما كان الإيمان صحيحاً خالياً من الانحرافات، كلما أدى إلى تضامن الأمة وتماسكها ووحدة عقيدتها.

أما إذا اختلفت الأمة في المسائل العقيدية فإن هذا يؤدي إلى تشقق القاعدة الشعبية وهي الأمة فتنقسم الفرق كل فرقة تتجمع حول أمر أخلاقي من أمور العقيدة .

وربما تفاقم الخلاف فتحول إلى حرب أهلية، ومن ثم فليس قيام الفرق الإسلامية وما يتبعها من قيام الأحزاب السياسية من خصائص الإسلام ولوازمه، بل إن ما حصل من تكون الفرق الإسلامية بعد الفتنة الكبرى ما هو إلا مرض انتاب الأمة في ذلك الحين فعلينا أن نتجنب مثل تلك الفرق ونسعى إلى وأدها كلما أطلت برأسها.

وأضافوا قائلين أن النظام الحزبي لا يتلاءم مع الإسلام، ذلك أن النظام الحزبي يجعل العضو ملتزما برأي الحزب وليس له حق الخروج على دائرة الرأي الحزبي.

وانطلاقا من ذلك كله؛ فإنه ينبغي التخلص من النظام الحزبي لما يؤدي إليه من تدنيس النظام السياسي بأنواع من العصبية الجاهلية، والذي من الممكن فيه أن تستبد بزمام الأمر في البلاد طائفة مولعة بالنفوذ والسلطة، فتنفق أموال الجمهور في استمالة الناس ثم تفعل في البلاد ما تشاء، غير آبهة بمساعي الجمهور في كبح جماحها والأخذ على يدها [٢٩].

وإن كان هناك رد على أصحاب هذا الرأي، فهو أن الآيات التي استدلوا بها تحرم التفرق في الدين، وهذا مما لا خلاف فيه لأنه تفرق في العقائد، وهو محظور شرعاً لأنه يطال المقومات الأساسية التي تركز عليها البنية الاجتماعية بمفهومها الواسع

---

[٢٩] راجع في هذا الاتجاه كتاب تدوين الدستور الإسلامي أبي الأعلى المودودي ص ٨٥

للأمة . وهذا الفهم لا يسري على المعارضة الجماعية أو الأحزاب السياسية، لان هذه الأحزاب ينحصر دورها داخل الأمة في اقتراح البدائل العملية للوضع الراهن [٣٠] . وذلك في نطاق البحث عن تحسين الأحوال فيها، وهذه البدائل لا يجوز أن تخرج عن المقومات الأساسية للأمة والتي ينظمها الدستور ويحدد معالمها، وأن هذا الدستور قد تمت الموافقة عليه من قبل الأمة، ومن ثم لا يملك الحزب السياسي الخروج على أحكامه. إضافة إلى ذلك أن تلك البدائل أو البرامج الحزبية لا بد أن تخضع هي الأخرى لقواعد الشرعية وما تنبثق عنها من مشروعية .

ومن هذا المنطلق؛ فإن إي تجمع سياسي يسعى إلى تقويض النظام الأساسي للامة إنما يقوم بنوع من الانتحار السياسي [٣١].

أما بالنسبة للاستدلالات العقلية التاريخية بالفرق الإسلامية من خوارج ومعتزلة وشيعة وما جنته على الأمة الإسلامية، هو استدلال غير موفق لأنه حكم على كل هذه الفرق بحكم واحد. فمما لا شك فيه، أن هناك من الفرق من انتسبت إلى الإسلام نفاقاً فسعت إلى هدم الإسلام بدوافع شعوبية حاقدة، وإذا استثنينا مثل تلك الفرق، فإن جل الحركات المعارضة التي قارعت السلطة وسعت إلى تولي مركز القيادة، كانت في الأعم الأغلب ترفع شعارات إسلامية خالصة وأصولها الفكرية من صميم العقيدة الإسلامية. ومن هنا فإن حركات المعارضة في التاريخ الإسلامي، ليست شراً كلها ولكنها كانت محاولات جادة لإعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي وذلك بصرف النظر عما شابها من أخطاء[٣٢].

---

[٣٠] راجع خالد اسحاق ص ٣٧ مرجع سابق

[٣١] "أزمة الحرية السياسية في الوطن العرب"، صالح سميح ص ٣١١

[٣٢] "المعارضة في الفكر السياسي الإسلامي"، نفين عبد الخالق مصطفى ط ١٩٨٥م

أما القول بأن التعددية الحزبية تقتضي التزام الفرد برأي الحزب المنتمي إليه بصرف النظر عن الخطأ والصواب في مضمون ذلك الالتزام هذا القول هو قول صحيح. لأن من الأمور المؤكدة أن الأحزاب قائمة بطبيعتها على التشيع والتمسك بشعار (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، وإن لم تعترف الأحزاب صراحة بأن هذا الأمر هو أساس قيامها، إلا أن تلك الحقيقية وإن مثلت عيباً جوهرياً في التعددية الحزبية المنبثقة عن الأنظمة الوضعية، فإنها لا تجد لها مكانا في المعارضة الإسلامية لأن المسلم الحق يعرف المقصود الشرعي من شعار "أنصر أخاك ظالما أو مظلوماً"، فقد قال رجل لرسول الله ﷺ، يا رسول الله: أنصره إن كان مظلوماً فرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ فقال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره ومن ثم يكون الشعار الإسلامي في هذا الميدان هو: **"أنصر أخاك مظلوماً وانصحه ظالماً"**[٣٣]، وأما قولهم: أن وجود الأحزاب يؤدي إلى تقسيم ولاء الفرد بين حزبه الذي ينتمي إليه وبين دولته التي بايعها على السمع والطاعة والنصرة فتقول، يصدق هذا الكلام إذا كان منهج الحزب منهج غير إسلام ولا يتفق مع منهج الإسلام في برنامجه العلمي، بحيث يتخذ موقف المعارض للحكومة في كل الأحوال سواء أصابت أو أخطأت. أي اعترض من اجل الاعتراض وليس من أجل المصلحة العامة ولكن يفترض في هذه الأحزاب أن تكون على منهج الإسلام فتوافق الحكومة إذا أصابت وتعارض إذا أخطأت وإذا كان الفرد المسلم إمعة مطيعاً لحزبه طاعة عمياء سواء أخطأ الحزب أو أصاب، وهذا لا يجوز في الإسلام حتى افضل المسلمين أبو بكر وعمر ﷺ لم يأمرنا بطاعتهم إذا أخطئوا.

---

[٣٣] "انظر الإسلام والاستبداد السياسي"، محمد الغزالي ص ١٥٤

هذا من الناحية النظرية والافتراضية، لان الأمة لم تخوض تجربة الأحزاب السياسية وتحكم عليها، أما من الناحية العملية فنجد أن انتماء المسلم إلى قبيلة أو إقليم أو جمعية أو نقابة أو حزب لا ينافي الانتماء للدولة .

لان كل هذه الولاءات والانتماءات مربوطة بأصل واحد وهو الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والممنوع أن يكون الولاء للكافرين كما قال تعالى: "إنما وليّكم الله ورسوله والذين أمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون".

وقوله تعالى: "ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون".وأما على صعيد الواقع وتجربة البشرية جمعاء، فنجد أن أنظمة سياسة وأهم شعوب لها عشرات بل مئات السنين تعيش وفق أنظمة سياسية تقوم على التعدد الحزبي وتداول السلطة وأن أفراد هذه الدول بالرغم من تعدد الأحزاب لا يعانون من انقسام في الولاء بين الحزب والدولة والدليل على أن انتماءهم للدولة، هو أن هذه الأحزاب مرة تنجح وتحصل على أغلبية الأصوات، وإذا لم تحسن التصرف في إدارة شؤون الناس فإنها تفشل في الانتخابات وتخسر كثيراً من الأصوات، فإن دل هذا فإنما يدل على أن ارتباط المواطن وولاءه للدولة وليس للحزب وإلا لبقي الحزب الحاكم في السلطة إلى الأبد وهذه التجارب أثبتت صحة ما تقول في دول وشعوب غير إسلامية ولا تنهج منهج الإسلام فكيف إذا طبق منهج الإسلام سيكون اضمن لنجاح هذه التجربة. وأمر آخر هو أننا يجب أن نفرق بين الدولة والحكومة، فالدولة شعبها وأرضها ومؤسساتها هي محل اجماع الجميع بالولاء والطاعة لها والحفاظ عليها وعلى مقدراتها، أما الحكومة فهي شخص أو مجموعة أشخاص يديرون شؤون الأمة سواء كانت مدتهم محدودة أو غير محدودة، فطاعتنا لهم ما داموا يسيرون في الاتجاه الصحيح أما إذا أضلوا الطريق كما أخبر أبو بكر وعمر فلا طاعة لهم علينا.

هذا من الناحية النظرية والافتراضية، لان الأمة لم تخوض تجربة الأحزاب السياسية وتحكم عليها، أما من الناحية العملية فنجد أن انتماء المسلم إلى قبيلة أو إقليم أو جمعية أو نقابة أو حزب لا ينافي الانتماء للدولة .

لان كل هذه الولاءات والانتماءات مربوطة بأصل واحد وهو الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين والممنوع أن يكون الولاء للكافرين كما قال تعالى: "إنما وليّكم الله ورسوله والذين أمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون".

وقوله تعالى: "ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون".وأما على صعيد الواقع وتجربة البشرية جمعاء، فنجد أن أنظمة سياسة وأهم شعوب لها عشرات بل مئات السنين تعيش وفق أنظمة سياسية تقوم على التعدد الحزبي وتداول السلطة وأن أفراد هذه الدول بالرغم من تعدد الأحزاب لا يعانون من انقسام في الولاء بين الحزب والدولة والدليل على أن انتماءهم للدولة، هو أن هذه الأحزاب مرة تنجح وتحصل على أغلبية الأصوات، وإذا لم تحسن التصرف في إدارة شؤون الناس فإنها تفشل في الانتخابات وتخسر كثيراً من الأصوات، فإن دل هذا فإنما يدل على أن ارتباط المواطن وولاءه للدولة وليس للحزب وإلا لبقي الحزب الحاكم في السلطة إلى الأبد وهذه التجارب أثبتت صحة ما تقول في دول وشعوب غير إسلامية ولا تنهج منهج الإسلام فكيف إذا طبق منهج الإسلام سيكون اضمن لنجاح هذه التجربة. وأمر آخر هو أننا يجب أن نفرق بين الدولة والحكومة، فالدولة شعبها وأرضها ومؤسساتها هي محل اجماع الجميع بالولاء والطاعة لها والحفاظ عليها وعلى مقدراتها، أما الحكومة فهي شخص أو مجموعة أشخاص يديرون شؤون الأمة سواء كانت مدتهم محدودة أو غير محدودة، فطاعتنا لهم ما داموا يسيرون في الاتجاه الصحيح أما إذا أضلوا الطريق كما أخبر أبو بكر وعمر فلا طاعة لهم علينا.

حجة الفريق الثاني: الذي أجاز التعدد الحزبي وأعتبره من المباحات وقد استند فيما انتهى إليه إلى أدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، كما استند أيضاً إلى أدلة عقلية مستمدة من الطبيعة الكلية للإسلام.أدلته التي استدل بها من القرآن الكريم قوله تعالى: "**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**" [٣٤]

وقوله تعالى : " **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**[٣٥]" .

وقوله تعالى :" **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون**"[٣٦]

ووجه الاستدلال من هذه الآيات الثلاث هو وضوح النزعة الجماعية في تكليف الأمة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعلوم أن قيام كل أفراد الأمة بهذا الواجب هو أمر صعب المنال، ومن ثم فإن إسناد هذه المهمة إلى أصحاب الرأي وقادة الفكر، هي الوسيلة العملية الناجحة في هذا المقام. ومما لا شك فيه، أن قادة الفكر والرأي سوف يختلفون في الوسائل التي تعينهم على تحقيق فريضة ذلك المبدأ، فيتحزب الأفراد حول تلك الوسائل، ومن ثم تظهر الأحزاب السياسية كوسائل عملية يستعان بها في أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن الأدلة المستمدة من السنّة ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: "مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم إذا استهمّوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان

---

[٣٤] سورة آل عمران آيه ١٠٤
[٣٥] سورة آل عمران آيه ١١٠
[٣٦] سورة المائدة آيه ٧٨

الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا حرقنا في نصيبنا حرقاً ولم نؤذ من فوقنا ؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً". ففي هذا المثل الذي أورده الحديث أدق تصوير للمسؤولية الفردية والجماعية ولعاقبة التفريط فيها. فالشخص الأخرق لو ترك لصنع ما يحلو له فسيقود المجتمع كله إلى الهلاك، فإذا كثر هؤلاء الخرقاء وتعددت الخروق التي يضعونها، فالمجتمع غارق لا محالة [٣٧]. ومما لا شك فيه أن المعارضة الفردية في وضع كهذا الوضع الذي ورد في الحديث الشريف لا تكون فعالة ومجدية كما هي المعارضة الجماعية، وحتى تكون هذه المعارضة كذلك فلا بد أن تكون منظمة، وقد أثبت الفكر السياسي في تطوره الحديث، أن الأحزاب السياسية هي الأطر الأكثر صلاحاً لتنظيم المعارضة الجماعية [٣٨].

من الأدلة العقلية التي استدل بها المجيزين للأحزاب السياسة وتعددها قولهم: "لقد كان من نتائج العقل والإرادة الحرة ذلك الاختلاف الإنساني المشهور في تاريخ الإنسانية الطويل، اختلاف الإنسان مع نفسه وتغيير فكره ما بين وقت وآخر، واختلاف الإنسان الفرد مع غيره من أفراد البشر، واختلاف الجماعة مع الجماعة، والاختلاف طبيعة إنسانية لا ضير فيها إذا صانته مناهج التفكير الرشيد وحرمان الأخلاق من مزالق التعصب الذي قد يدفع للكذب والعدوان على الحقيقة وعلى الناس أنفسهم، فإذا اشطط المرء وجمح دون ضابط دفعته طبيعته في الاعتزاز بالنفس والاعتداء على الغير إلى الاندفاع مع الأهواء وتجاوز الحدود المقبولة البناءة للخلاف إلى الاقتتال وإهدار حرية الآخرين في الرأي والتعبير، ومن الأدلة العقلية التي استدل بها أنصار هذا الرأي أيضاً قولهم أن النظام الإسلامي يقوم على

---

[٣٧] الإسلام والاستبداد السياسي محمد الغزالي ص ١٤٨

[٣٨] "أزمة الأحزاب السياسية"، ص ٣١٨، مرجع سابق

الشورى، والشورى والمعارضة وجهان لعملة والمراجعة وتبادل الرأي والنصيحة بين الحاكم والمحكوم من أجل المصلحة العامة .

وإذا كانت البساطة السياسية في صدر الإسلام قد اكتفت بالمعارضة الفردية، فإن الأمر مختلف تمام الاختلاف في عصرنا الحاضر، فقد تعقدت وتشابكت المشاكل وتفرعت التخصصات وزاد تعداد السكان إلى درجة يصعب معها التعرف على قادة الفكر والرأي في المجتمع، والذين يتولون عادة الرقابة على السلطة ومعارضتها عند الاقتضاء ما لم تنشأ تنظيمات سياسية لها من الإمكانات والوسائل ما عليها من التعبير عن الرأي ونشره وحمايته والدفاع عنه(واحدة هدفها المشاورة)[٣٩] وأضافوا دليلا آخر قالوا فيه أنه "مع ضعف الوازع الديني الذي كان يمثل نوعا من الرقابة الداخلية في نفس الحكم الإسلامي وأهل اختياره وشعبه. لم يعد هناك بد من إيجاد نوع من الرقابة الخارجية تمارسها هيئات منظمة كالأحزاب السياسية تستطيع منع تسلط الحكام وكشف مفاسدهم وفي ذلك دفع للناس ببعضهم من شأنه درء المفاسد في الأرض" "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين"[٤٠] .

وخلاصة القول في هذا المقام أن الأحزاب السياسية مباحة ومشروعة في الإسلام، لما تقوم به من واجبات عامة وما تمثله من ضمانات فعلية لعدم الاستبداد بالسلطة، كما أنها وسيلة حضارية لانتقال السلطة وتداولها بصورة سليمة بدون عنف وسفك دماء .

وقد اشترط أصحاب هذا الرأي شروطاً في جواز التعددية الحزبية منها :

---

[٣٩] فاروق عبد السلام، "السلام والأحزاب السياسية" ص ٣٣ -ص ٤٧ القاهرة ١٩٧٨م.
[٤٠] سورة البقرة الآيات ٢٥١

١- احترام ثوابت الأمة وقطعيات الشريعة وأن لا يستخف بالإسلام أو بأي دين سماوي، احترام مقدسات الأمة .

٢- أن يكون هذا الحزب يعمل لصالح الأمة، فلا يكون عميلاً لأي جهة خارجية ولو خرج على ثوابت الأمة فان الأمة تحاكمه .

٣- الأحزاب السياسية من وجهة نظر الإسلام، تأخذ حكم ما تقوم عليه أو تدعو إليه فإن كانت تقوم على أساس غير الإسلام فإن وجودها يكون حراماً .

قال تعالى : "ولتكن منكم أمة يدعوه إلى الخير ويأمرون بالمعروف ... الخ الآية.

نفهم من هذه الشروط أن التعددية في ظل النظام السياسي الإسلامي ليست تعددية مطلقة دائماً، وإنما مقيدة فلا بد من ضوابط ولا بد من شروط، حتى تكون هذه الأحزاب بناء لأهداف إيجابية لا سلبية، فهناك أشياء ثابتة عند كل شعب من الشعوب، وكل مجتمع من المجتمعات لا بد أن ترعى وتحترم، فمثلاً الأحزاب السياسية البريطانية تحترم النظام الملكي لأن الدستور يلزمها بذلك .وفي أمريكا لا يجيز الدستور الأمريكي قيام أحزاب تدعو إلى النظام الشيوعي أو إلى انفصال الولايات الأمريكية عن بعضها البعض.

وفي ختام هذا البحث، يجمل بنا أن نسجل أراء فقهية في هذه القضية لعالمين جليلين هما الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، وفضيلة الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله .

فقد سئل الشيخ الغزالي عن مدى مشروعية المعارضة المنتظمة في إطار المذهبية الإسلامية فرد قائلاً: هب أن جماعة من الناس تخيرت من مذاهب الفقه الإسلامي أن تأخذ الزكاة من جميع الزروع والثمار وأن تبقي المناجم ملكاً لأصحابها على أن يؤخذ منها الخمس وأن يسوّى بين دية الرجل والمرأة، وأن تباشر المرأة عقد

زواجها، وأن تقبل شهادتها في الدماء والأعراض كما تقبل في الأموال. ثم وضعت هذه الجماعة منهاجها هذا وعرضته على الأمة وذكرت أنه أساس حكمها إذا منحت التأييد من الجمهور، أيكون هذا التصرف ارتداداً عن الإسلام ؟ أيكون عصياناً مسلحاً للحاكم الموجود. لا هذا ولا ذاك .

وهناك ما يساويه في الخطورة: هب أن جماعة من الناس رأت أن تضع منهجاً للتصنيع في البلاد ذات البيئة الزراعية، أو لإنشاء سوق إسلامية مشتركة أو لتطوير أساليب عرض الإسلام، مستغلة في ذلك إمكانات الحكم، فما الذي يمنع من إنشاء حزب لتحقيق ذلك ؟. [٤١]

وسئل فضيلة الشيخ يوسف القرضاوي عن التعددية السياسية في الإسلام فأجاب: :مفهوم التعددية يعني اختلاف الناس يعني أن الناس ليسوا شيئاً واحداً والتعدد موجود في الحياة بألوان، منها التعدد الديني، التعدد الجنسي والعنصري ومنها التعدد اللوني والتعدد اللساني اللغوي، كما قال القران: "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين"، يعني أن الناس تختلف ألسنتها وتختلف عناصرها وعروقها، وتختلف أديانها حتى القرآن الكريم، اعتبر اختلاف الدين أو تعدد الأديان واقعاً بمشيئة الله تعالى ومشيئة الله تعبر عن حكمته. والمشيئة الإلهية مرتبطة بالحكمة الإلهية، لا يشاء الله إلا ما فيه حكمة لذلك، قال الله تعالى: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم"

أي خلقهم ليختلفوا، فما دام أعطى كلاً منهم العقل ليفكروا والإرادة ليرجح، فعقلي ليس مثل عقلك، وإرادتي ليست مثل إرادتك، أنا أفكر غير ما تفكر فيه، وأميل إلى

---

[٤١] راجع الشيخ محمد الغزالي، "مائة سؤال عن الإسلام" الجزء الثاني ص ٢٥ـص ٢٧ ط ١٩٨٤م

أشياء قد لا تميل أنت إليها، فلا بد أن تختلف، ولذلك قال: "ولذلك خلقهم"، ما دام أعطاهم العقل والإرادة فلا بد أن يختلفوا، فهذا الاختلاف وجدنا القرآن يعبر عنه في آيات كثيرة ويسميه اختلاف الألوان، وعبر عنه باختلاف التنوع فالقرآن يقول: "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك"[٤٢] فاختلاف الألوان أو اختلاف الأنواع هذا أمر يقوم عليه الكون كله وهذا لا بد أن يوجد في الحياة السياسية، بل إن الحياة السياسية قابلة للتنوع أكثر من غيرها، فإذا كنا قبلنا التعدد في الناحية الدينية (اختلاف العقائد) وقبلنا الاختلاف في أمور كثيرة، وقبلنا في داخل المجتمع الإسلامي باختلاف المدارس الفقهية، ووجود المذاهب الفقهية هو دليل على وجود الأحزاب السياسية، لأن المذهب الفقهي عبارة عن مدرسة لها رؤية معينة ولها أصول تعتمد عليها، ولها في ضوء هذه الأصول أفكار فقهية واستنباط وأحكام واجتهادات تخالف بها المدرسة الأخرى، فكذلك الحزب هو عبارة عن مدرسة له رؤية سياسية وله أصول يعتمد عليها تخالف الحزب الآخر[٤٣]

* * * * *

[٤٢] سورة فاطر آيه ٢٧-٢٨

[٤٣] مقالات ولقاءات ١٩٩٩/٤/٤، قناة الجزيرة الفضائية